حياة محمد ﷺ

المجلد الثاني

محمَّد علي قطب

الدار النموذجية للطباعة والنشر
صيدا - بيروت

1

شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: 11/558
تلفاكس: 655015 - 632673 - 00961 1 659875
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
بوليفار د. نزيه البزري - ص.ب: 221
تلفاكس: 720624 - 729259 - 00961 7 729261
بيروت - لبنان

• المطبعة العصرية
كفر جرة - طريق عام صيدا جزين
00961 7 230841 - 07 230195
تلفاكس: 655015 - 632673 - 00961 1 659875
صيدا - لبنان

الطبعة الأولى
2015 - 1436 هـ

Copyright© all rights reserved
جميع الحقوق محفوظة للناشر
لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو بالتصوير أو التسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدما.

E. Mail alassrya@terra.net.lb
alassrya@cyberia.net.lb
info@alassrya.com

موقعنا على الإنترنت
www.almaktaba-alassrya.com

المُحْتَوَياتُ

الْإِسْرَاءُ وَالْمِعْرَاجُ ... 5

بَيْعَةُ الْعَقَبَةِ ... 19

الْهِجْرَةُ إِلَى الْمَدِينَةِ ... 34

الْمَدِينَةُ الْمُنَوَّرَةُ ... 48

الْجِهَادُ مِنْ بَدْرٍ إِلَى أُحُدٍ ... 63

الْخَنْدَقُ وَإِجْلَاءُ الْيَهُودِ ... 79

بَيْنَ الْحُدَيْبِيَةِ وَخَيْبَرَ ... 93

عُمْرَةُ الْقَضَاءِ وَجَيْشُ الْأُمَرَاءِ ... 107

الْفَتْحُ الْمُبِينُ ... 121

مِنْ حُنَيْنٍ إِلَى تَبُوكَ ... 135

حَجَّةُ الْوَدَاعِ ... 147

عَامُ الْوُفُودِ ... 157

إِلَى الرَّفِيقِ الْأَعْلَى ... 173
صِفَةُ أَخْلَاقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ... 185
سِلَاحُ رَسُولِ اللهِ وَخَيْلُهُ ... 201

الْإِسْرَاءُ وَالْمِعْرَاجُ

قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾.

(الإِسْرَاءُ: 1)

وَقَالَ سُبْحَانَهُ:

﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ ۖ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ (النَّجْمُ: 1 - 7).

***

مَرَّتْ عَشْـرُ سَـنَوَاتٍ عَلَى رَسُـولِ اللهِ ﷺ، مُنْذُ مَبْدَإِ بَعْثَتِهِ، وَهُوَ يَدْعُو قُرَيْشًا إِلَى اللهِ تَعَالَى، إِلَى عِبَادَةِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ، وَتَرْكِ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَالتَّخَلِّي عَنْ عَادَاتِ وَتَقَالِيدِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَانْتِهَاجِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

وَلَكِنْ دُونَ جَدْوَى، فَمَا اتَّبَعَهُ مِنْهُمْ إِلَّا نَفَرٌ يَسِيرٌ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ وَبِرِسَالَتِهِ إِلَّا الْمَسَاكِينُ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَالْأَرِقَّاءِ وَالْعَبِيدِ، أَمَّا أَكْثَرُ النَّاسِ فَقَدْ ظَلُّوا فِي جَهَالَتِهِمْ غَارِقِينَ، وَفِي ضَلَالَتِهِمْ يَعْمَهُونَ، وَفِي بَيْدَاءِ الْحَيَاةِ تَائِهِينَ.

وَلَوْ أَنَّهُمْ وَقَفُوا عِنْدَ حَدِّ السَّـلْبِيَّةِ فِي الْإِعْرَاضِ عَنِ الْإِسْلَامِ لَكَانَ الْأَمْرُ بَسِـيطًا، نَوْعًا مَا، وَلَكِنَّهُمُ ارْتَدُّوا عَلَى الدَّعْوَةِ بِكُلِّ قَسْوَةٍ وَوَحْشِيَّةٍ يُمْعِنُونَ فِي فِتْنَةِ الْقِلَّةِ الْمُؤْمِنَـةِ، وَيُحَاوِلُونَ جَهْدَ طَاقَاتِهِمْ أَنْ يَرُدُّوهَا إِلَى صُفُوفِهِمْ، بَعْدَ أَنْ هَدَاهَا اللهُ تَعَالَى إِلَى الْحَقِّ وَالْخَيْرِ.

وَلَقَدْ مَرَّ بِنَا مَا لَقِيَهُ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَـلَامُهُ عَلَيْهِ مِنْ أَذَاهُمْ، وَغَطْرَسَـتِهِمْ وَجَهَالَتِهِمْ وَعُقُوقِهِمْ، وَلَقَدْ بَلَغُوا ذُرْوَةَ الْفِتْنَةِ وَالْجُمُوحِ بَعْدَ مَوْتِ «أَبِي طَالِبٍ» وَ«خَدِيجَةَ».

وَمَرَّ ﷺ بَعْدَ ذَهَابِهِ إِلَى «الطَّائِفِ» وَعَوْدَتِهِ مِنْهَا دُونَ طَائِلٍ، وَبَعْدَ عَرْضِ نَفْسِهِ وَدَعْوَتِهِ عَلَى الْقَبَائِلِ دُونَ فَائِدَةٍ.

مَرَّ بِحَالَةٍ نَفْسِيَّةٍ بَائِسَةٍ يَائِسَةٍ، مِنَ الْحُزْنِ وَالْهَمِّ.

وَكَانَ ﷺ قَـدْ عَادَ إِلَى «مَكَّةَ» بِدُونِ حِمَايَةٍ أَوْ جِوَارٍ، فَدَخَلَهَا مُجَاوِرًا لِـ «الْمُطْعِمِ بْنِ عَدِيٍّ».

وَكَانَ لَهُ ابْنَةُ عَمٍّ مِنْ «أَبِي طَالِبٍ»، تُلَقَّبُ بِـ «أُمِّ هَانِئٍ» وَتُدْعَى «فَاخِتَةَ»، كَانَتْ كَثِيرًا مَا تَسْتَضِيفُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي دَارِهَا بَعْدَ مَوْتِ «خَدِيجَةَ» وَتَعْتَنِي بِهِ، وَتُقَدِّمُ لَهُ بَعْضَ الْخِدْمَاتِ. وَكَانَتْ مُشْرِكَةً تُتَابِعُ زَوْجَهَا «هُبَيْرَةَ»، وَلَكِنَّهَا فِي نَفْسِ الْوَقْتِ تَصِلُ الرَّحِمَ وَتُعْطِي الْوُدَّ، وَتَحْدِبُ عَلَى النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى ﷺ.

وَفِي إِحْدَى لَيَالِي شَهْرِ «رَجَبٍ»، لَيْلَةِ السَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْهُ، وَقَبْلَ الْهِجْرَةِ بِسِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا، كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَبِيتُ فِي دَارِ «أُمِّ هَانِئٍ».

وَبَيْنَمَا هُوَ مُسْتَغْرِقٌ فِي نَوْمِهِ جَاءَهُ «جِبْرِيلُ» ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ فَأَيْقَظَهُ وَدَعَاهُ إِلَى مُتَابَعَتِهِ وَمُرَافَقَتِهِ، فَقَامَ النَّبِيُّ مَعَهُ، وَمَضَيَا مَعًا إِلَى الْحَرَمِ، وَهُنَاكَ وَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ دَابَّةً مَرْبُوطَةً عِنْدَ الْحِجْرِ، غَرِيبَةَ الشَّكْلِ، عَجِيبَةَ الْهَيْئَةِ، ذَاتَ أَجْنِحَةٍ عِنْدَ فَخْذَيْهَا، مُتَوَسِّطَةَ الْحَجْمِ، مُسْرَجَةً مُهَيَّأَةً لِلرُّكُوبِ، فَطَلَبَ إِلَيْهِ «جِبْرِيلُ» أَنْ يَمْتَطِيَهَا، فَلَمَّا اعْتَلَى ظَهْرَهَا، وَأَمْسَكَ بِلِجَامِهَا، انْطَلَقَتْ بِهِ كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ، تَضَعُ حَوَافِرَهَا عِنْدَ مُنْتَهَى نَظَرِهَا.

كَانَتْ هَذِهِ الدَّابَّةُ «الْبُرَاقَ» الشَّرِيفَ؛ وَكَانَتِ الْغَايَةُ مَدِينَةَ «بَيْتِ الْمَقْدِسِ» فِي الشَّامِ، حَيْثُ الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكَ اللهُ حَوْلَهُ.

وَفِي الطَّرِيقِ لَقِيَ ﷺ قَافِلَةً مِنَ الْأَعْرَابِ، آتِيَةً مِنَ الشَّامِ إِلَى «مَكَّةَ»، كَثِيرَةَ الْجِمَالِ وَالْأَحْمَالِ.

لَمْ تَسْتَغْرِقِ الرِّحْلَةُ مِنْ مَكَّةَ، مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى إِلَّا زَمَنًا يَسِيرًا، لَا يُقَاسُ بِأَزْمَانِنَا وَأَوْقَاتِنَا نَحْنُ.

هُنَاكَ تَرَجَّلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ ظَهْرِ الْبُرَاقِ، وَرَبَطَ الْمِقْوَدَ إِلَى حَلْقَةٍ فِي حَائِطِ الْمَسْجِدِ، وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ لِلّٰهِ تَعَالَى، ثُمَّ بَدَأَ رِحْلَةً أُخْرَى كَرِيمَةً شَرِيفَةً عَظِيمَةً، رِحْلَةً إِلَى السَمَاوَاتِ الْعُلَى.

كَانَ رَفِيقُهُ فِيهَا «جِبْرِيلُ» ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ، يَسْتَفْتِحُ لَهُ عِنْدَ كُلِّ سَمَاءٍ، فَيَجِدُ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ «عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ»، يَلْقَوْنَهُ بِالْبِشْرِ وَالتَّرْحِيبِ وَيُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ، وَيُسَرُّونَ لِمَقْدِمِهِ.

حَتَّى بَلَغَ السَّمَاءَ السَّابِعَةَ، فَبَدَتْ لَهُ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى، وَهِيَ شَجَرَةٌ كَبِيرَةٌ عَظِيمَةٌ ضَخْمَةٌ، أَوْرَاقُهَا كَآذَانِ الْفِيَلَةِ، وَثِمَارُهَا كَمَا وَصَفَهَا ﷺ تُقَارِبُ قِلَالَ هَجَرَ (وَهِيَ مَدِينَةٌ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ اشْتَهَرَتْ بِصُنْعِ الْقِلَالِ مِنَ الْفَخَّارِ).

وَرَأَى هُنَاكَ أَرْبَعَةَ أَنْهَارٍ جَارِيَةٍ، نَهْرَانِ ظَاهِرَانِ، وَنَهْرَانِ بَاطِنَانِ، فَسَأَلَ قَائِلًا:

ـ مَا هَذَا يَا «جِبْرِيلُ»؟

قَالَ:

ـ أَمَّا الْبَاطِنَانِ فَنَهْرَانِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ فَالنِّيلُ وَالْفُرَاتُ.

ثُمَّ رُفِعَ لَهُ ﷺ الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، فَإِذَا آلَافٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَدْخُلُونَهُ...، ثُمَّ قُدِّمَ لَهُ إِنَاءٌ مِنْ خَمْرٍ، وَإِنَاءٌ مِنْ لَبَنٍ، وَإِنَاءٌ مِنْ عَسَلٍ، فَتَنَاوَلَ اللَّبَنَ وَشَرِبَهُ، فَقَالَ «جِبْرِيلُ» ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ:

ـ هِيَ الْفِطْرَةُ الَّتِي أَنْتَ عَلَيْهَا وَأُمَّتُكَ.

ثُـــمَّ تَلَقَّى ﷺ الْأَمْرَ بِفَـــرْضِ الصَّلَاةِ، وَكَانَتْ خَمْسِـــينَ صَلَاةً فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ.

وَفِي طَرِيـــقِ الْعَوْدَةِ الْتَقَاهُ «مُوسَـــى» ـ عَلَيْهِ السَّـــلَامُ ـ، فَتَحَادَثَا فِي عَدَدِ الصَّلَوَاتِ الْمَفْرُوضَةِ، فَقَالَ «مُوسَى» ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ:

ـ إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسِـــينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي ـ وَاللهِ ـ قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْـــتُ مِـنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ.

فَرَجَعَ ﷺ إِلَى رَبِّهِ يَسْـــأَلُهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْ أُمَّتِـــهِ عَدَدَ الصَّلَوَاتِ، فَجَعَلَهَا الْبَارِي ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ أَرْبَعِينَ.

وَمَا زَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَرَاوَحُ بَيْنَ «مُوسَى» وَرَبِّهِ يَسْأَلُهُ التَّخْفِيفَ حَتَّى اسْتَقَرَّتْ عَلَى خَمْسٍ، وَسَمِعَ ﷺ مُنَادِيًا يَقُولُ:

ـ أَمْضَيْـــتَ فَرِيضَتِي وَخَفَّفْتَ عَنْ عِبَادِي؛ هِيَ فِي الْعَدَدِ خَمْسٌ وَفِي الْأَجْرِ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا.

وَنَزَلَ ﷺ حَيْثُ كَانَ الْبُرَاقُ بِانْتِظَـــارِهِ، فَامْتَطَى صَهْوَتَهُ وَعَادَ مِنْ حَيْثُ أَتَى.

وَكَانَتِ الْقَافِلَـــةُ الَّتِي لَقِيَهَا فِي ذَهَابِهِ مَا تَزَالُ تُغِذُّ السَّـــيْرَ بِاتِّجَاهِ «مَكَّةَ»، وَلَقَدْ أَدْرَكَهَا التَّعَبُ، فَأَقَامَتْ لِلرَّاحَةِ بَعْضَ الْوَقْتِ.

وَعِنْدَ مُرُورِهِ ﷺ بِهَا أَدْرَكَـــهُ الْعَطَشُ، فَنَزَلَ بِهَا، وَتَنَاوَلَ مِنْ وِعَاءٍ كَانُوا يُغَطُّونَهُ بِغِطَاءٍ مَاءً، ثُمَّ أَعَادَهُ إِلَى مَكَانِهِ، وَأَفْرَادُ الْقَافِلَةِ نِيَامٌ مُسْتَغْرِقُونَ.

وَعادَ إِلَى فِرَاشِهِ فِي بَيْتِ «أُمِّ هَانِئ».

وَقُبَيْلَ الْفَجْرِ، اسْتَيْقَظَ ﷺ وَأَيْقَظَ أَهْلَ الْبَيْتِ، ثُمَّ قَالَ لِـ«أُمِّ هَانِئ»:

- يَا «أُمَّ هَانِئ»، لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَكُمُ الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ، كَمَا رَأَيْتِ بِهَذَا الْوَادِي - (يَعْنِي مَكَّةَ) - ثُمَّ جِئْتُ «بَيْتَ الْمَقْدِسِ» فَصَلَّيْتُ فِيهِ، ثُمَّ قَدْ صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْغَدَاةِ عِنْدَكُمُ الْآنَ كَمَا تَرَيْنَ. وَاللهِ لَأُحَدِّثَنَّ الْقَوْمَ بِذَلِكَ.

فَقَالَتْ «أُمُّ هَانِئ»:

- لَا تُحَدِّثْهُمْ بِذَلِكَ يَا ابْنَ عَمِّ، فَإِنَّهُمْ مُكَذِّبُوكَ.

فَلَمْ يُصْغِ إِلَيْهَا وَخَرَجَ، فَتَعَلَّقَتْ بِثَوْبِهِ لِتَمْنَعَهُ فَلَمْ يُمْكِنْهَا ذَلِكَ، فَطَلَبَتْ إِلَى خَادِمَةٍ تَعْمَلُ عِنْدَهَا أَنْ تَلْحَقَ بِهِ وَتُخْبِرَهَا مَاذَا يَكُونُ مِنْ شَأْنِهِ وَشَأْنِ الْقَوْمِ مَعَهُ.

جَلَسَ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ، فَرَآهُ «أَبُو جَهْلٍ»، فَقَالَ:

- هَلْ مِنْ خَبَرٍ؟

وَلَقَدْ أَرَادَ «أَبُو جَهْلٍ» - اللَّعِينُ - أَنْ يَسْخَرَ وَيَسْتَهْزِئَ بِسُؤَالِهِ هَذَا، فَقَالَ ﷺ:

- نَعَمْ.

فَقَالَ:

- وَمَا هُوَ؟

قَالَ ﷺ:

- إِنِّي أُسْرِيَ بِيَ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ.

فَقَالَ «أَبُو جَهْلٍ» وَابْتِسَامَةُ السُّخْرِيَةِ عَلَى وَجْهِهِ:

- إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ؟!!

قَالَ ﷺ:

- نَعَمْ.

فَقَالَ اللَّعِينُ:

- أَرَأَيْتَ إِنْ دَعَوْتُ قَوْمَكَ لَكَ لِتُخْبِرَهُمْ... أَتُخْبِرُهُمْ بِمَا أَخْبَرْتَنِي بِهِ؟

قَالَ ﷺ:

- نَعَمْ.

وَقَامَ «أَبُو جَهْلٍ» يُنَادِي، رَافِعًا عَقِيرَتَهُ:

- هَيَّا يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ.

فَاجْتَمَعَ مَنْ فِي الْمَسْجِدِ وَغَيْرُهُمْ عَلَى صَوْتِ «أَبِي جَهْلٍ»، وَتَحَلَّقُوا حَوْلَهُ وَحَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ عِنْدَئِذٍ قَالَ «أَبُو جَهْلٍ»:

- حَدِّثْهُمْ يَا «مُحَمَّدُ» بِمَا حَدَّثْتَنِي بِهِ مِنْ قَبْلُ.

وَلَقَدْ أَرَادَ اللَّعِينُ أَنْ يَجْعَلَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَمِنْ حَدِيثِهِ عَنِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ مَادَّةً لِلْهُزْءِ وَالسُّخْرِيَةِ، يَتَنَدَّرُونَ بِهَا، وَيَتَفَكَّهُونَ.

ثُمَّ سَرَدَ ﷺ أَخْبَارَ رِحْلَتِهِ عَلَى مَسَامِعِ الْقَوْمِ الَّذِينَ الْتَفُّوا حَوْلَهُ، وَهُمْ فِي سُكُونٍ وَصَمْتٍ مُطْبِقٍ وَكَأَنَّ عَلَى رُءُوسِهِمُ الطَّيْرَ، لَا يَنْبِسُونَ بِبِنْتِ شَفَةٍ، اسْتِغْرَابًا وَتَعَجُّبًا...

أَمَّا الْكَافِرُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْمُنَافِقُونَ فَقَدْ ظَنُّوا بِأَنَّهُ ﷺ قَدْ أَصَابَتْهُ جِنَّةٌ، وَأَنَّهُ قَدْ فَقَدَ عَقْلَهُ، وَقَالُوا:

- هَذِهِ فُرْصَتُنَا فِي التَّشْنِيعِ عَلَيْهِ، وَتَرْوِيجِ إِشَاعَاتِ السُّوءِ عَنْهُ، وَهَا هُوَ قَدْ ذَهَبَ عَقْلُهُ، وَأَرَاحَنَا اللهُ مِنْ دَعْوَتِهِ وَدِينِهِ.

وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ ضِعَافُ الْإِيمَانِ فَقَدْ بَدَتِ الْحَيْرَةُ عَلَى وُجُوهِهِمْ، وَاعْتَمَلَ الشَّكُّ فِي قُلُوبِهِمْ، وَاضْطَرَبَتْ عُقُولُهُمْ، وَغَدَوْا بَيْنَ مُصَدِّقٍ وَمُكَذِّبٍ، لَا يَدْرُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ!

وَهَذَا مِصْدَاقُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ (الإِسْرَاءُ: 60)؛ فِتْنَةً وَامْتِحَانًا وَابْتِلَاءً لِنُفُوسِ النَّاسِ؛ لِيَعْلَمَ اللهُ الصَّادِقِينَ مِنَ الْكَاذِبِينَ، وَلِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ.

وَنَطَقَ أَحَدُ الْمُشْرِكِينَ الْحَاضِرِينَ فَقَالَ:

- مَا هَذَا السَّفَهُ وَهَذَا الْجُنُونُ؟! إِنَّ الْعِيرَ (الْقَافِلَةُ) لَتَطَّرِدُ (تَجْرِي وَتُسْرِعُ) إِلَى الشَّامِ فِي شَهْرٍ وَتَعُودُ فِي شَهْرٍ، وَأَنْتَ تَقُولُ أَنَّكَ غَدَوْتَ إِلَى هُنَاكَ وَعُدْتَ فِي لَيْلَةٍ أَوْ بَعْضِ لَيْلَةٍ؟!

لَكِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ اسْتَمَرَّ فِي سَرْدِ الْحَدِيثِ غَيْرَ مُبَالٍ بِأَيِّ اعْتِرَاضٍ أَوْ قَوْلٍ أَوْ تَسْفِيهِ رَأْيٍ.

ثُمَّ قَامَ أَحَدُ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمَجْلِسِ يُسْرِعُ الْخُطَى إِلَى «أَبِي بَكْرٍ»، وَيَقُولُ لَهُ فِي جَزَعٍ وَلَهْفَةٍ:

- يَا «أَبَا بَكْرٍ» قُمْ إِلَى صَاحِبِكَ، قُمْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِنَّهُ فِي الْمَسْجِدِ يُحَدِّثُ النَّاسَ أَنَّهُ قَدْ أُسْرِيَ بِهِ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ.

فَقَالَ «أَبُو بَكْرٍ»:

- وَهَلْ قَالَ ذَلِكَ؟

فَقَالَ الرَّجُلُ:

- نَعَمْ...

فَقَالَ الصِّدِّيقُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -:

- إِنْ كَانَ قَدْ قَالَ ذَلِكَ فَقَدْ صَدَقَ...

فَقَالَ الرَّجُلُ مُتَعَجِّبًا:

- أَتُصَدِّقُهُ؟!

فَقَالَ «أَبُو بَكْرٍ» فِي ثِقَةٍ وَاطْمِئْنَانٍ:

- كَيْفَ لَا أُصَدِّقُهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ، وَأَنَا أُصَدِّقُهُ فِي خَبَرِ السَّمَاءِ «الْوَحْيِ» يَأْتِيهِ فِي أَيَّةِ سَاعَةٍ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ.

ثُمَّ قَامَ وَأَتَى مَعَ الرَّجُلِ إِلَى الْمَسْجِدِ عِنْدَ الْكَعْبَةِ، وَقَدِ ازْدَادَ تَجَمُّعُ النَّاسِ، وَكَثُرُوا مِنْ حَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، يَسْأَلُونَهُ فَيُجِيبُهُمْ.

وَلَمَّا وَصَلَ «أَبُو بَكْرٍ» جَلَسَ بِجِوَارِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْتَمِعُ، وَإِذَا بِسُؤَالٍ يُطْرَحُ:

- إِذَا كُنْتَ فِعْلًا قَدْ زُرْتَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ - كَمَا تَقُولُ وَتَزْعُمُ - فَصِفْهُ لَنَا.

عِنْدَئِذٍ، وَكَمَا يَقُولُ ﷺ، تَرَاءَتْ لَهُ الْمَدِينَةُ الْبَعِيدَةُ وَكَأَنَّهَا أَمَامَهُ وَبَيْنَ يَدَيْهِ، وَرَاحَ يَصِفُ مَعَالِمَهَا وَمَوْقِعَهَا وَبُيُوتَهَا وَأَمَاكِنَهَا، وَيَصِفُ الْمَسْجِدَ الْأَقْصَى، وَكَانَ «أَبُو بَكْرٍ» - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - يَقُولُ لَهُ إِثْرَ كُلِّ وَصْفٍ:

- صَدَقْتَ يَا رَسُولَ اللهِ، صَدَقْتَ يَا رَسُولَ اللهِ.

أَمَّا الْحَاضِرُونَ مِمَّنْ كَانُوا يَعْرِفُونَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، بِسَبَبِ زِيَارَتِهِمْ لَهُ مِنْ قَبْلُ، سَوَاءٌ كَانُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَقَدْ بُهِتُوا وَأَصَابَتْهُمُ الْحَيْرَةُ، فَاتَّسَعَتْ حَدَقَاتُ عُيُونِهِمْ، وَانْفَتَحَتْ أَفْوَاهُهُمْ، وَظَهَرَتِ الدَّهْشَةُ فِي كُلِّ سِمَةٍ مِنْ سِمَاتِ وُجُوهِهِمْ!!

ثُمَّ قَالَ قَائِلٌ مِنَ الْحَاضِرِينَ:

- وَمَا عَلَامَةُ مَا تَقُولُ؟

فَحَدَّثَهُمْ ﷺ عَنِ الْقَافِلَةِ الَّتِي مَرَّ بِهَا، وَكَيْفَ شَرِبَ الْمَاءَ مِنْ وِعَاءٍ مُغَطًّى كَانَ مَعَ أَفْرَادِهَا، وَأَنَّهُ يَتَقَدَّمُهَا جَمَلٌ أَوْرَقُ عَلَيْهِ غِرَارَتَانِ، إِحْدَاهُمَا بَرْقَاءُ وَالْأُخْرَى بَيْضَاءُ.

وَأَضَافَ السَّائِلُ:

- وَمَتَى مَوْعِدُ وُصُولِ هَذِهِ الْقَافِلَةِ؟

فَقَالَ ﷺ:

- مَعَ غُرُوبِ شَمْسِ يَوْمِ غَدٍ.

ثُمَّ انْفَضَّ الْجَمْعُ، وَتَفَرَّقَ النَّاسُ، وَقَدْ غَلَبَ عَلَى أَكْثَرِهِمُ الْمَيْلُ إِلَى التَّصْدِيقِ، وَظَهَرَ ذَلِكَ فِي مُحَادَثَتِهِمْ مَعَ بَعْضِهِمْ، فَقَالَ الْخَبِيثُ اللَّعِينُ «أَبُو جَهْلٍ»:

- نَنْتَظِرُ وُصُولَ الْقَافِلَةِ الَّتِي تَحَدَّثَ عَنْهَا «مُحَمَّدٌ»، وَنَسْأَلُ أَصْحَابَهَا عَمَّا سَرَدَهُ عَلَيْنَا، وَقَصَّهُ عَلَى مَسَامِعِنَا، وَنَرَى جَمَلَهَا الْأَوْرَقَ وَغِرَارَتَيْهِ كَمَا زَعَمَ.

إِثْرَ هَذَا الْكَلَامِ تَعَلَّقَتْ قُلُوبُ النَّاسِ وَعُقُولُهُمْ وَأَنْظَارُهُمْ نَحْوَ مَقْدِمِ الْقَافِلَةِ مِنْ «ثَنِيَّةِ التَّنْعِيمِ» كَمَا حَدَّدَ الْمُصْطَفَى ﷺ.

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي، خَرَجَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ إِلَى «ثَنِيَّةِ التَّنْعِيمِ»، مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ، يَنْتَظِرُونَ وُصُولَ الْقَافِلَةِ.

الْمُسْلِمُونَ فِي أَمَلٍ وَرَجَاءٍ وَيَقِينٍ، وَالْمُشْرِكُونَ فِي حِقْدٍ وَحَسَدٍ، وَاعْتِقَادٍ فِي أَنَّ الْقَافِلَةَ لَنْ تَصِلَ، فَيُصْبِحَ «مُحَمَّدٌ» مِنَ الْكَاذِبِينَ، وَيَرْتَدَّ أَكْثَرُ النَّاسِ عَنْ مُتَابَعَتِهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ، فَيَذْهَبَ أَمْرُهُ بَدَدًا وَتَفْشَلَ رِيحُهُ.

مَرَّتِ السَّاعَاتُ بَطِيئَةً مُتَثَاقِلَةً، وَكَأَنَّ النَّهَارَ قَدْ طَالَ، وَكَأَنَّ الشَّمْسَ لَا تَتَزَحْزَحُ مِنْ مَكَانِهَا، وَهَذَا مَا كَانَ يَشْعُرُ بِهِ كُلُّ الْأَطْرَافِ، الْمُسْلِمُونَ يَسْتَعْجِلُونَ الْمَغِيبَ كَيْ تَصِلَ الْقَافِلَةُ، فَيَفُوزُوا بِصِدْقِ الْمُصْطَفَى ﷺ، وَالْمُشْرِكُونَ يَسْتَعْجِلُونَهُ أَيْضًا حَتَّى يَعُودُوا إِلَى «مَكَّةَ» وَقَدْ ظَهَرُوا... وَبَاءَ «مُحَمَّدٌ» بِالْخُسْرَانِ الْمُبِينِ.

وَلَكِنْ... وَمَعَ اقْتِرَابِ قُرْصِ الشَّمْسِ مِنَ الْأُفُقِ، وَمُلَامَسَتِهِ لَهُ، ظَهَرَ مِنْ وَرَاءِ كَثِيبٍ مِنَ الرِّمَالِ، خَيَالَاتٌ وَظِلَالٌ: أَخَذَتْ تَتَّضِحُ شَيْئًا فَشَيْئًا.

وَإِذَا بِجَمَلٍ أَوْرَقَ يَتَقَدَّمُ قَافِلَةً عَلَيْهِ غِرَارَتَانِ، إِحْدَاهُمَا بَيْضَاءُ وَالْأُخْرَى بَرْقَاءُ!

فَتَعَالَتْ أَصْوَاتُ الْحَاضِرِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ تَشُقُّ أَجْوَازَ الْفَضَاءِ بِالتَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ، وَضَجَّتِ السَّمَاءُ بِالنِّدَاءِ:

- صَدَقَ رَسُولُ اللهِ... صَدَقَ رَسُولُ اللهِ.

وَانْتَظَرَ الْجَمِيعُ حَتَّى وَصَلَتِ الْقَافِلَةُ بِجَمِيعِ أَفْرَادِهَا، وَجِمَالِهَا، فَسَأَلُوهُمْ سُؤَالَيْنِ اثْنَيْنِ:

- هَلْ نَدَّ (شَرَدَ) لَكُمْ بَعِيرٌ فِي مَكَانِ كَذَا؟

فَقَالُوا:

- نَعَمْ، وَقَدْ دَلَّنَا عَلَيْهِ رَجُلٌ كَانَ يَمُرُّ بِنَا عَلَى رَكُوبَةٍ.

ثُمَّ سَأَلُوهُمْ:

- وَهَلْ نَقَصَ مَاءُ شَرَابِكُمْ أَثْنَاءَ أَوْبَتِكُمْ فِي مَكَانِ كَذَا، وَكَيْفَ وَجَدْتُمُوهُ؟

فَقَالُوا:

- نَعَمْ، نَقَصَ الْمَاءُ عَمَّا تَرَكْنَاهُ عَلَيْهِ، وَوَجَدْنَاهُ فِي حَالَةٍ غَيْرِ حَالَتِهِ الْأُولَى، وَكَانَ غِطَاؤُهُ مَقْلُوبًا!

وَعَادَ الْجَمِيعُ مِنْ حَيْثُ كَانُوا يَنْتَظِرُونَ الْقَافِلَةَ عِنْدَ «ثَنِيَّةِ التَّنْعِيمِ»، عَادَ الْمُسْلِمُونَ فِي فَرْحَةٍ غَامِرَةٍ، يَكَادُونَ يُسَابِقُونَ خُطُوَاتِهِمْ إِلَى رَسُولِ

اللهِ ﷺ، أَمَّا الْمُشْـرِكُونَ الضَّالُّونَ الْمُعَانِدُونَ، فَقَدْ عَـادُوا يَجُرُّونَ أَذْيَالَ الْخَيْبَةِ وَالْفَشَـلِ، وَالْحَسْـرَةُ تَأْكُلُ قُلُوبَهُمْ، وَيُحَرِّقُونَ الْأُرَمَ (يَغْتَاظُونَ فَيَحُكُّونَ أَضْرَاسَـهُمْ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ). وَتَبَدَّلَ حَالُ الْمُسْلِمِينَ فِي «مَكَّةَ» إِلَى أَحْسَنَ، وَكَذَلِكَ تَحَسَّنَ وَضْعُ النَّبِيِّ ﷺ.

إِذِ اعْتَبَرَ الْمُشْرِكُونَ مَوْضُوعَ حَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ حَوْلَ «الْإِسْرَاءِ» مَنْفَذًا لَهُمْ إِلَى تَفْشِـيلِهِ وَتَكْذِيبِهِ، وَالْإِمْكَانِ فِي مُحَارَبَتِهِ، اعْتَبَرُوا ذَلِكَ إِشَارَةً إِلَى مَعْرَكَةٍ جَدِيـدَةٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ، وَلَكِنَّ اللهَ ـ سُـبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ أَيَّدَهُ وَنَصَرَهُ، وَعَزَّزَ مَوْقِفَهُ، وَبَاءُوا هُمْ بِالْخُسْرَانِ الْمُبِينِ.

تَنَفَّسَ الْمُسْـلِمُونَ الصُّعَدَاءَ، وَاطْمَأَنَّتْ نُفُوسُـهُمْ قَلِيلًا، وَارْتَاحُوا فِي مُزَاوَلَةِ شَـعَائِرِ دِينِهِمْ، وَإِقَامَةِ صَلَوَاتِهِمْ، خَاصَّةً الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ الَّتِي فُرِضَتْ عَلَيْهِمْ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ.

لِمَاذَا كَانَتْ رِحْلَةُ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ؟

يَقُولُ اللهُ ـ سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى ـ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾. إِذًا... ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ﴾ (الإِسْرَاءُ: 1).

فَلَقَدْ رَأَى رَسُـولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، وَالشَّوَاهِدِ وَالْعَلَامَاتِ وَالْإِشَارَاتِ وَالْعَجَائِبِ، وَالظَّوَاهِرِ الْكَوْنِيَّةِ الْعَظِيمَةِ، مَا لَوْ رَآهُ بَشَرٌ عَادِيٌّ لَذَهَبَ عَقْلُهُ، وَجُنَّ جُنُونُهُ، وَفَقَدَ كُلَّ إِدْرَاكٍ وَحِسٍّ؛ وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى ثَبَّتَ

فُؤَادَ الْمُصْطَفَى ﷺ، ذَلِكَ الْفُؤَادَ الْمُعَنَّى، الْفُؤَادَ الَّذِي قَاسَى عَلَى التَّوَالِي أَحْدَاثًا جِسَامًا مِنَ الْإِرْهَاقِ وَالْعَذَابِ، مِنَ «الْمُقَاطَعَةِ» فِي شِعْبِ «أَبِي طَالِبٍ»، إِلَى وَفَاةِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ وَسَيِّدَةِ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ «خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ، إِلَى مَوْتِ «أَبِي طَالِبٍ»، الْعَمِّ الصَّالِحِ الَّذِي اسْتَمَرَّ طَوَالَ حَيَاتِهِ دَرْءًا وَدِرْعًا لِلْمُصْطَفَى ﷺ، يَحْمِيهِ وَيَمْنَعُهُ وَيُدَافِعُ عَنْهُ، إِلَى ذَهَابِهِ لِلطَّائِفِ وَاحْتِمَالِهِ مِنْ أَذَى ثَقِيفٍ مَا لَا يُحْتَمَلُ وَلَا يُطَاقُ، إِلَى دُخُولِهِ ﷺ بَلَدَهُ «مَكَّةَ» فِي جِوَارِ «الْمُطْعِمِ بْنِ عَدِيٍّ».

كُلُّ ذَلِكَ الْهَمِّ وَالْعَذَابِ وَالْوَصَبِ احْتَمَلَهُ ﷺ بِصَبْرِ النَّبِيِّ الرَّسُولِ، صَاحِبِ الرِّسَالَةِ، وَحَامِلِ الْأَمَانَةِ، فَإِذَا بِهِ يُخَاطِبُ رَبَّهُ دَاعِيًا وَيَقُولُ:

«إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلَا أُبَالِي».

وَمِنْ ثَمَّ فَقَدْ كَانَتْ رِحْلَةُ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ، تَسْرِيَةً وَتَعْزِيَةً لِقَلْبِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ، وَلِنَفْسِ الرَّسُولِ الْعَظِيمِ، وَتَشْرِيفًا لَهُ، وَإِسْعَادًا لِفُؤَادِهِ وَرُوحِهِ بِالدُّنُوِّ مِنَ الْعَرْشِ، ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ (النَّجْمُ: 8 ، 9).

وَبَعْدُ فَهَلْ أَذْعَنَتْ قُرَيْشٌ وَاسْتَسْلَمَتْ، وَدَخَلَتْ فِي طَاعَةِ اللهِ وَدِينِهِ؟ أَمْ ظَلَّتْ عَلَى جُمُوحِهَا وَعِنَادِهَا وَكُفْرِهَا؟

وَمَنْ هُمُ الَّذِينَ سَيَفُوزُونَ بِشَرَفِ حَمْلِ لِوَاءِ الدِّينِ وَاحْتِضَانِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ﷺ؟

بَيْعَةُ الْعَقَبَةِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

(الفَتْحُ: 10).

***

اكْتَظَّتْ (ازْدَحَمَتْ) «مَكَّةُ» بِالنَّاسِ الْقَادِمِينَ إِلَيْهَا مِنْ شَتَّى دِيَارِ الْحِجَازِ، وَمِنْ مُخْتَلِفِ الْبَوَادِي وَالنُّجُوعِ، قَصَدُوهَا فِي الْمَوْسِمِ تَعْظِيمًا لِلْبَيْتِ الْعَتِيقِ، وَتَقْدِيسًا لِحُرْمَتِهِ.

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَا يَتْرُكُ نَادِيًا مِنْ أَنْدِيَةِ الْغُرَبَاءِ عَنْ «مَكَّةَ» إِلَّا جَاءَهُ وَحَدَّثَ أَهْلَهُ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ، وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ نَفْسَهُ، وَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ.

وَلَقَدْ أَظْفَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِنَفَرٍ قَادِمِينَ مِنْ «يَثْرِبَ»، فَلَمَّا كَلَّمَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ، قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ:

- يَا قَوْمُ... تَعْلَمُونَ وَاللهِ أَنَّهُ النَّبِيُّ الَّذِي تَوَعَّدَكُمْ بِهِ يَهُودُ، فَلَا يَسْبِقَنَّكُمْ إِلَيْهِ.

ثُمَّ أَجَابُوهُ إِلَى مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ، وَصَدَّقُوهُ، وَقَبِلُوا مِنْهُ مَا عَرَضَهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْإِسْلَامِ. وَقَالُوا لَهُ:

- إِنَّا تَرَكْنَا قَوْمَنَا، وَلَا قَوْمَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالشَّرِّ مَا بَيْنَهُمْ، وَعَسَى أَنْ يَجْمَعَهُمُ اللهُ بِكَ، فَسَنُقْدِمُ عَلَيْهِمْ وَنَدْعُوهُمْ إِلَى أَمْرِكَ، وَنَعْرِضُ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَجَبْنَاكَ إِلَيْهِ مِنْ هَذَا الدِّينِ، فَإِنْ يَجْمَعْهُمُ اللهُ عَلَيْكَ فَلَا رَجُلَ أَعَزُّ مِنْكَ.

ثُمَّ انْصَرَفُوا رَاجِعِينَ إِلَى بَلَدِهِمْ، وَكَانَ هَؤُلَاءِ النَّفَرُ سِتَّةَ أَشْخَاصٍ هُمْ: «أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ»، وَ«أَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ التَّيِّهَانِ»، وَ«عَوْفُ بْنُ الْحَارِثِ» وَ«رَافِعُ بْنُ مَالِكٍ» وَ«عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ» وَ«جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ».

فَلَمَّا قَدِمُوا إِلَى «يَثْرِبَ»، ذَكَرُوا لِبَعْضِ قَوْمِهِمْ مَا كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَاسْتَصْوَبُوا رَأْيَهُمْ، وَاسْتَحْسَنُوا مَوْقِفَهُمْ، ثُمَّ لَمَّا كَانَ الْعَامُ التَّالِي حَضَرَ مِنْهُمْ إِلَى «مَكَّةَ» اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا فِيهِمُ السِّتَّةُ السَّابِقُونَ، فَنَزَلُوا فِي شِعْبٍ فِي ضَاحِيَةِ «مَكَّةَ» يُدْعَى «الْعَقَبَةَ»، وَهُنَاكَ وَافَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَاجْتَمَعَ بِهِمْ، فَبَايَعُوهُ بَيْعَةَ الْعَقَبَةِ الْأُولَى، عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكُوا بِاللهِ

شَيْئًا، وَلَا يَسْرِقُوا، وَلَا يَزْنُوا، وَلَا يَقْتُلُوا أَوْلَادَهُمْ، وَلَا يَأْتُوا بِبُهْتَانٍ يَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ، وَلَا يَعْصُوهُ فِي مَعْرُوفٍ، فَإِذَا وَفَّوا فَلَهُمُ الْجَنَّةُ، وَإِذَا غَشِيَهُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ فَأُخِذُوا بِحَدِّهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُمْ، وَإِنْ سُتِرُوا عَلَيْهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَأَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ.

فَطَلَبُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنْ يُرْسِلَ مَعَهُمْ مَنْ يُعَلِّمُهُمْ وَيُفَقِّهُهُمْ وَيُقْرِئُهُمُ الْقُرْآنَ، وَيَؤُمُّهُمْ فِي الصَّلَاةِ.

فَاخْتَارَ ﷺ مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِهِ شَابًّا مُؤْمِنًا فَقِيهًا، قَدْ تَغَلْغَلَ الْإِسْلَامُ فِي قَلْبِهِ وَعَقْلِهِ وَجَوَارِحِهِ، هُوَ «مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ، فَنَزَلَ فِي «يَثْرِبَ» فِي ضِيَافَةِ «أَسْعَدِ بْنِ زُرَارَةَ». وَكَانَ «مُصْعَبٌ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ لَسِنًا، ذَكِيًّا، أَرِيبًا، حَاضِرَ الْبَدِيهَةِ، فَقِيهًا، مُعَلِّمًا.

فَأَخَذَ يَدْعُو النَّاسَ فِي «يَثْرِبَ» إِلَى الْإِسْلَامِ، وَيَغْشَى كُلَّ الدُّورِ وَالْأَمَاكِنِ وَالْمُنْتَدَيَاتِ، وَيُخَاطِبُ جَمِيعَ الْمُسْتَوَيَاتِ، الشُّيُوخَ وَالرِّجَالَ وَالْفِتْيَانَ.

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ خَرَجَ «مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ» مَعَ «أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ» قَاصِدَيْنِ دَارَ «بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ» وَ«بَنِي ظُفَرَ» فَدَخَلَا بُسْتَانًا مِنْ بَسَاتِينِ «بَنِي ظُفَرَ»، وَجَلَسَا عِنْدَ بِئْرٍ يُقَالُ لَهُ «بِئْرُ مَرَقٍ»، فَاجْتَمَعَ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ يَسْتَمِعُونَ إِلَى «مُصْعَبٍ» يُحَدِّثُهُمْ حَدِيثَ الْإِسْلَامِ الْعَذْبِ.

وَكَانَ فِي طَرَفِ الْبُسْتَانِ رَجُلَانِ مِنْ أَهْلِ «يَثْرِبَ»، بَلْ مِنْ زُعَمَائِهَا هُمَا «سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ» وَ«أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ»، وَكَانَا لَا يَزَالَانِ عَلَى شِرْكِهِمَا؛

وَلَقَدْ تَضَايَقَا مِنْ تَجَمُّعِ النَّاسِ عَلَى «مُصْعَبٍ» وَ«أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ»، فَقَالَ «سَعْدٌ» لِـ «أُسَيْدٍ»:

- لَا أَبَا لَكَ يَا «أُسَيْدُ».. انْطَلِقْ إِلَى هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ قَدْ أَتَيَا دَارَنَا؛ لِيُسَفِّهَا ضُعَفَاءَنَا فَازْجُرْهُمَا، وَانْهَهُمَا أَنْ يَأْتِيَا ثَانِيَةً؛ فَإِنَّهُ لَوْلَا «أَسْعَدُ ابْنُ زُرَارَةَ» مِنِّي حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ، لَكَفَيْتُكَ ذَلِكَ، هُوَ ابْنُ خَالَتِي وَلَا أَجِدُ عَلَيْهِ مَقْدِمًا.

فَأَخَذَ «أُسَيْدٌ» حَرْبَتَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَيْهِمَا، فَلَمَّا رَآهُ «أَسْعَدُ» قَالَ لِـ «مُصْعَبٍ»:

- هَذَا سَيِّدُ قَوْمِهِ، وَقَدْ جَاءَكَ، فَاصْدُقِ اللهَ فِيهِ.

قَالَ «مُصْعَبٌ»:

- إِنْ يَجْلِسْ أُكَلِّمْهُ.

فَوَقَفَ «أُسَيْدٌ» عَلَيْهِمَا مُتَشَتِّمًا، وَقَالَ:

- مَا جَاءَ بِكُمَا إِلَيْنَا تُسَفِّهَانِ ضُعَفَاءَنَا؟ اعْتَزِلَانَا إِنْ كَانَتْ لَكُمَا بِأَنْفُسِكُمَا حَاجَةٌ.

فَقَالَ لَهُ «مُصْعَبٌ»:

- أَوَتَجْلِسُ فَتَسْمَعَ، فَإِنْ رَضِيتَ أَمْرًا قَبِلْتَهُ، وَإِنْ كَرِهْتَهُ كُفَّ عَنْكَ مَا تَكْرَهُ؟

فَقَالَ «أُسَيْدٌ»:

- أَنْصَفْتَ.

ثُمَّ رَكَزَ حَرْبَتَهُ وَجَلَسَ إِلَيْهِمَا، فَكَلَّمَهُ «مُصْعَبٌ» بِالْإِسْلَامِ، وَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَظَهَرَ نُورُ الْإِسْلَامِ فِي وَجْهِهِ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي إِشْرَاقِهِ وَتَسَهُّلِهِ!

ثُمَّ قَالَ:

- مَا أَحْسَنَ هَذَا وَأَجْمَلَهُ!! كَيْفَ تَصْنَعُونَ إِذَا أَرَدْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا فِي هَذَا الدِّينِ؟

فَتَهَلَّلَ وَجْهَا «أَسْعَدَ» وَ«مُصْعَبٍ» فَرَحًا، وَقَالَا لَهُ:

- تَغْتَسِلُ فَتَطْهُرُ، وَتُطَهِّرُ ثَوْبَيْكَ، ثُمَّ تَشْهَدُ شَهَادَةَ الْحَقِّ، ثُمَّ تُصَلِّي.

فَقَامَ إِلَى مَاءِ الْبِئْرِ، فَاغْتَسَلَ، وَطَهَّرَ ثَوْبَيْهِ، وَتَشَهَّدَ شَهَادَةَ الْحَقِّ، ثُمَّ قَامَ فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ كَمَا عَلَّمَاهُ؛ ثُمَّ قَالَ لَهُمَا:

- إِنَّ وَرَائِي رَجُلًا (يَعْنِي سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ) إِنِ اتَّبَعَكُمَا لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِهِ، وَسَأُرْسِلُهُ إِلَيْكُمَا الْآنَ.

وَصَلَ «أُسَيْدٌ» إِلَى مَجْلِسِ «سَعْدٍ»، فَلَمَّا رَآهُ «سَعْدٌ» مُقْبِلًا، قَالَ لِجُلَسَائِهِ:

- أَحْلِفُ بِاللهِ لَقَدْ جَاءَكُمْ «أُسَيْدٌ» بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ مِنْ عِنْدِكُمْ.

ثُمَّ قَالَ لَهُ «سَعْدٌ»:

- مَا فَعَلْتَ؟

قَالَ:

- كَلَّمْتُ الرَّجُلَيْنِ، فَوَاللهِ مَا رَأَيْتُ بِهِمَا بَأْسًا، وَقَدْ نَهَيْتُهُمَا، فَقَالَا:

نَفْعَــلُ مَا أَحْبَبْتَ. وَقَدْ حُدِّثْتُ أَنَّ «بَنِي حَارِثَةَ» خَرَجُوا إِلَى ابْنِ خَالَتِكَ «أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ» لِيَقْتُلُوهُ؛ لِيُحَقِّرُوكَ.

فَقَامَ «سَــعْدُ بْنُ مُعَاذٍ» مُغْضَبًــا، مُبَادِرًا، مُخَوَّفًا لِلَّــذِي ذُكِرَ مِنْ «بَنِي حَارِثَةَ»، وَأَخَذَ الْحَرْبَةَ فِي يَدِهِ، ثُمَّ قَالَ:

- وَاللهِ مَا أَرَاكَ أَغْنَيْتَ شَيْئًا.

ثُمَّ خَرَجَ إِلَيْهِمَا «سَــعْدٌ»، فَلَمَّا رَآهُمَا مُطْمَئِنَّيْنِ، أَدْرَكَ أَنَّ «أُسَيْدًا» إِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْمَعَ مِنْهُمَا كَمَا سَمِعَ هُوَ.

فَوَقَفَ «سَــعْدٌ» كَمَا وَقَفَ «أُسَيْدٌ» مِنْ قَبْلُ مُتَشَتِّمًا، ثُمَّ قَالَ لِابْنِ خَالَتِهِ «أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ»:

- وَاللهِ يَا «أَبَا أُمَامَةَ»، لَوْلَا مَــا بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنَ الْقَرَابَةِ مَا رُمْتَ هَذَا مِنِّي، أَتَغْشَانَا فِي دَارِنَا بِمَا نَكْرَهُ؟!

فَرَدَّ عَلَيْهِ «مُصْعَبٌ» وَقَالَ:

- أَوَتَقْعُدُ فَتَسْــمَعُ، فَإِنْ رَضِيتَ أَمْرًا رَغِبْتَ فِيهِ قَبِلْتَهُ، وَإِنْ كَرِهْتَهُ عَزَلْنَا عَنْكَ مَا تَكْرَهُ.

فَقَالَ «سَعْدٌ»:

- أَنْصَفْتَ.

ثُمَّ رَكَزَ الْحَرْبَةَ وَجَلَسَ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ الْإِسْــلَامَ، وَقَــرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَعَرَفُوا الْإِسْلَامَ فِي وَجْهِهِ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي إِشْرَاقِهِ وَتَسَهُّلِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُمَا:

ـ كَيْفَ تَصْنَعُونَ إِذَا أَنْتُمْ أَسْلَمْتُمْ وَدَخَلْتُمْ فِي هَذَا الدِّينِ؟

قَالَا:

ـ تَغْتَسِلُ فَتَطْهُرُ، وَتُطَهِّرُ ثَوْبَيْكَ، ثُمَّ تَشْهَدُ شَهَادَةَ الْحَقِّ، ثُمَّ تُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ.

فَقَامَ إِلَى الْبِئْرِ فَاغْتَسَلَ، وَطَهَّرَ ثَوْبَيْهِ، وَشَهِدَ شَهَادَةَ الْحَقِّ، ثُمَّ رَكَعَ رَكْعَتَيْنِ كَمَا عَلَّمَاهُ، ثُمَّ أَخَذَ حَرْبَتَهُ فَأَقْبَلَ عَائِدًا إِلَى نَادِي قَوْمِهِ وَمَعَهُ «أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ»، فَلَمَّا وَقَفَ عَلَيْهِمْ قَالَ:

ـ يَا بَنِي «عَبْدِ الْأَشْهَلِ» كَيْفَ تَعْلَمُونَ أَمْرِي فِيكُمْ؟

فَقَالُوا:

ـ سَيِّدُنَا، وَأَفْضَلُنَا رَأْيًا، وَأَيْمَنُنَا نَقِيبَةً.

فَقَالَ:

ـ فَإِنَّ كَلَامَ رِجَالِكُمْ وَنِسَائِكُمْ عَلَيَّ حَرَامٌ، حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ!

فَمَا أَمْسَى فِي دَارِ «بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ» رَجُلٌ وَلَا امْرَأَةٌ إِلَّا مُسْلِمًا أَوْ مُسْلِمَةً.

ثُمَّ رَجَعَ «سَعْدٌ» إِلَى «مُصْعَبٍ» وَ«أَسْعَدَ» فَأَقَامُوا فِي دَارِ «أَسْعَدَ» يَدْعُونَ إِلَى الْإِسْلَامِ، حَتَّى لَمْ تَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا وَفِيهَا رِجَالٌ مُسْلِمُونَ وَنِسَاءٌ مُسْلِمَاتٌ.

وَمَعَ إِطْلَالَةِ الْمَوْسِمِ التَّالِي كَانَ «مُصْعَبٌ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أَوَّلَ مَنْ

تَرَكَ «يَثْرِبَ» إِلَى «مَكَّةَ»، وَدَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا رَآهُ رَحَّبَ بِهِ، وَسَأَلَهُ كَيْفَ تَرَكَ «يَثْرِبَ»، فَقَالَ «مُصْعَبٌ»:

- لَمْ يَبْقَ مِنْهَا بَيْتٌ إِلَّا وَفِيهِ ذِكْرُ اسْمِ «مُحَمَّدٍ» ﷺ.

فَتَهَلَّلَ وَجْهُ النَّبِيِّ ﷺ، وَسُرَّ بِمَا سَمِعَ.

وَعَرَفَتْ أُمُّ «مُصْعَبٍ» بِقُدُومِهِ إِلَى «مَكَّةَ»، وَانْتَظَرَتْ حَتَّى يَأْتِيَهَا وَيُسَلِّمَ عَلَيْهَا بَعْدَ طُولِ غِيَابٍ، ثُمَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِ تُعَاتِبُهُ قَائِلَةً:

- يَا عَاقُّ... كَيْفَ تَتَأَخَّرُ عَنِّي؟!

فَرَدَّ عَلَيْهَا قَائِلًا:

- مَا كُنْتُ لِأَبْدَأَ بِأَحَدٍ قَبْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

ثُمَّ بَدَأَ الْمَوْسِمُ، وَتَوَافَدَ أَهْلُ «يَثْرِبَ»، مُسْلِمُونَ وَمُشْرِكُونَ، كُلٌّ قَدْ قَدِمَ إِلَى «مَكَّةَ»؛ تَعْظِيمًا لِلْكَعْبَةِ وَالْبَيْتِ الْحَرَامِ.

وَكَانَ عَدَدُ الْمُسْلِمِينَ الْقَادِمِينَ ثَلَاثَةً وَسَبْعِينَ رَجُلًا وَامْرَأَتَيْنِ، مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، وَالْمَرْأَتَانِ هُمَا: «نُسَيْبَةُ بِنْتُ كَعْبٍ الْمَازِنِيَّةُ» (أُمُّ عِمَارَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا)، وَ«أَسْمَاءُ بِنْتُ عَمْرٍو» (أُمُّ مَنِيعٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا).

وَنَزَلُوا فِي الْمَكَانِ الَّذِي نَزَلُوا فِيهِ مِنْ قَبْلُ، فِي الْعَقَبَةِ، ثُمَّ أَرْسَلُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يُخْبِرُونَهُ، وَيَتَوَاعَدُونَ مَعَهُ عَلَى اللِّقَاءِ، فَضَرَبَ لَهُمْ مَوْعِدًا فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ مِنْ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، لَيْلًا؛ حَتَّى لَا يَشْعُرَ بِهِمْ أَحَدٌ، وَلَا يَلْفِتُوا الْأَنْظَارَ إِلَيْهِمْ.

وَفِي الْمَوْعِدِ الْمُعَيَّنِ بَدَءُوا يَتَسَلَّلُونَ إِلَى الْمَكَانِ فُرَادَى، كَتَسَلُّلِ الْقَطَا (نَوْعٌ مِنَ الطُّيُورِ)، حَتَّى اكْتَمَلَ عَدَدُهُمْ فِي الشِّعْبِ، وَانْتَظَرُوا قُدُومَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَيْهِمْ.

ثُمَّ أَتَى ﷺ وَمَعَهُ عَمُّهُ «الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»، وَكَانَ لَا يَزَالُ عَلَى شِرْكِهِ، وَإِنَّمَا أَتَى لِيَسْتَوْثِقَ لِابْنِ أَخِيهِ مِنَ الْقَوْمِ، وَكَانَ أَوَّلَ الْمُتَكَلِّمِينَ إِذْ قَالَ:

- يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ (وَيَعْنِي بِهِمُ الْأَوْسَ وَالْخَزْرَجَ) إِنَّ «مُحَمَّدًا» مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ، وَقَدْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنَا مِمَّنْ هُمْ عَلَى مِثْلِ رَأْيِنَا فِيهِ، فَهُوَ فِي عِزَّةٍ مِنْ قَوْمِهِ، وَمَنَعَةٍ فِي بَلَدِهِ، وَإِنَّهُ قَدْ أَبَى إِلَّا الِانْحِيَازَ إِلَيْكُمْ، وَاللُّحُوقَ بِكُمْ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ وَافُونَ لَهُ بِمَا دَعَوْتُمُوهُ إِلَيْهِ، وَمَانِعُوهُ مِمَّنْ خَالَفَهُ، فَأَنْتُمْ وَمَا تَحَمَّلْتُمْ مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ مُسَلِّمُوهُ وَخَاذِلُوهُ بَعْدَ الْخُرُوجِ إِلَيْكُمْ... فَمِنَ الْآنَ فَدَعُوهُ، فَإِنَّهُ فِي عِزَّةٍ وَمَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَبَلَدِهِ.

فَقَالُوا جَمِيعًا:

- قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْتَ، فَتَكَلَّمْ يَا رَسُولَ اللهِ، فَخُذْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ مَا أَحْبَبْتَ.

ثُمَّ تَكَلَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ؛ فَتَلَا الْقُرْآنَ، وَدَعَا إِلَى اللهِ وَرَغَّبَ فِي الْإِسْلَامِ.

ثُمَّ قَالَ:

- أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ.

فَقَامَ «الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ» فَأَخَذَ بِيَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَالَ:

- نَعَمْ... وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَنَمْنَعَنَّكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أُزُرَنَا، فَبَايِعْنَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَنَحْنُ وَاللهِ أَبْنَاءُ الْحُرُوبِ وَرِثْنَاهَا كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ.

ثُمَّ قَالَ «أَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ التَّيِّهَانِ»:

- يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرِّجَالِ (يَعْنِي الْيَهُودَ) عُهُودًا، وَإِنَّا لَقَاطِعُوهَا، فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ فَعَلْنَا ذَلِكَ، ثُمَّ أَظْهَرَكَ اللهُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى قَوْمِكَ وَتَدَعَنَا؟!

فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ:

- بَلِ الدَّمُ الدَّمُ، وَالْهَدْمُ الْهَدْمُ، أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي، أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ، وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ.

ثُمَّ قَالَ ﷺ:

- تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَالنَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَنْ تَقُولُوا فِي اللهِ وَلَا تَخَافُوا لَوْمَةَ لَائِمٍ...

ثُمَّ قَامُوا إِلَيْهِ فَبَايَعُوهُ وَاحِدًا بَعْدَ الْآخَرِ، وَأَشْهَدُوا اللهَ تَعَالَى عَلَى صِدْقِهِمْ وَوَفَائِهِمْ وَالْتِزَامِهِمْ بِالْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ.

ثُمَّ قَالَ لَهُمْ ﷺ:

- أَخْرِجُوا إِلَيَّ مِنْكُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا يَكُونُونَ عَلَى قَوْمِهِمْ بِمَا فِيهِمْ.

فَأَخْرَجُوا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا اخْتَارُوهُمْ، تِسْعَةً مِنَ الْخَزْرَجِ وَثَلَاثَةً مِنَ الْأَوْسِ، وَهُمْ: «أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ، وَسَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ، وَرَافِعُ بْنُ مَالِكٍ، وَالْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ حَرَامٍ، وَعُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ، وَسَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَالْمُنْذِرُ بْنُ عَمْرِو بْنِ خُنَيْسٍ، وَأُسَيْدُ بْنِ حُضَيْرٍ، وَسَعْدُ بْنُ خَيْثَمَةَ، وَرِفَاعَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُنْذِرِ».

❊❊❊

وَلَقَدْ أَنْشَدَ «كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ» يَفْتَخِرُ بِهَذَا الْيَوْمِ وَأَصْحَابِهِ، فَقَالَ:

أَبْلِغْ «أُبَيًّا» أَنَّهُ قَالَ رَأْيَهُ
وَحَانَ غَدَاةَ الشِّعْبِ وَالْحِينُ وَاقِعُ

أَبَى اللهُ مَا مَنَّتْكَ نَفْسُكَ إِنَّهُ
بِمِرْصَادِ أَمْرِ النَّاسِ رَاءٍ وَسَامِعُ

وَأَبْلِغْ «أَبَا سُفْيَانَ» أَنْ قَدْ بَدَا لَنَا
بِـ«أَحْمَدَ» نُورٌ مِنْ هُدَى اللهِ سَاطِعُ

فَلَا تَرْغَبَنْ فِي حَشْدِ أَمْرٍ تُرِيدُهُ
وَأَلِّبْ وَجَمِّعْ كُلَّ مَا أَنْتَ جَامِعُ

وَدُونَكَ فَاعْلَمْ أَنَّ نَقْضَ عُهُودِنَا
أَبَاهُ عَلَيْكَ الرَّهْطُ حِينَ تَبَايَعُوا

أَبَــاهُ «الْبَــرَاءُ» وَ«ابْنُ عَمْــرٍو» كِلَاهُمَا
وَ«أَسْــعَدُ» يَأْبَــاهُ عَلَيْــكَ وَ«رَافِــعُ»
وَ«سَــعْدٌ» أَبَــاهُ السَّــاعِدِيُّ وَ«مُنْــذِرُ»
لِأَنْفِــكَ إِنْ حَاوَلْــتَ ذَلِــكَ جَــادِعُ
وَمَــا «ابْــنُ رَبِيــعٍ» إِنْ تَنَاوَلْــتَ عَهْدَهُ
وَإِخْفَــارُهُ مِــنْ دُونِــهِ السُّــمُّ نَاقِــعُ

ثُمَّ عَدَّدَ أَسْمَاءَ جَمِيعِ «النُّقَبَاءِ»، ثُمَّ خَتَمَ قَائِلًا:

أُولَاكَ نُجُــومٌ لَا يَغِيبُــكَ مِنْهُــمُ
عَلَيْــكَ بِنَحْــسٍ فِي دُجَى اللَّيْــلِ طَالِعُ

❊❊❊

وَلَمَّا تَمَّتِ الْبَيْعَةُ، سُمِعَ صَوْتٌ يُجَلْجِلُ فِي الْوَادِي عِنْدَ رَأْسِ «الْعَقَبَةِ» يَقُولُ:

- يَا أَهْــلَ الْجَبَاجِبِ (أَيِ الْمَنَازِلِ) هَلْ لَكُمْ فِي «مُذَمَّمٍ» وَالصِّبَاءِ مَعَهُ قَدِ اجْتَمَعُوا مَعَهُ عَلَى حَرْبِكُمْ؟!

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

- هَذَا إِزَبُّ «الْعَقَبَةِ» (أَيِ الشَّــيْطَانُ)، أَتَسْــمَعُ يَا عَــدُوَّ اللهِ؟! أَمَا وَاللهِ لَأَتَفَرَّغَنَّ لَكَ.

ثُمَّ قَالَ:

- ارْفَضُّوا إِلَى رِحَالِكُمْ.

فَقَامَ «الْعَبَّاسُ بْنُ نَضْلَةَ» فَقَالَ:

- يَا رَسُــولَ اللهِ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنْ شِــئْتَ لَنَمِيلَنَّ عَلَى أَهْلِ «مِنًى» غَدًا بِأَسْيَافِنَا.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

- لَمْ نُؤْمَرْ بِذَلِكَ، وَلَكِنِ ارْجِعُوا إِلَى رِحَالِكُمْ.

يَقُولُ الرَّاوِي «كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ»: فَرَجَعْنَا إِلَى مَضَاجِعِنَا فَنِمْنَا فِيهَا حَتَّى أَصْبَحْنَا، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا غَــدَتْ عَلَيْنَا جُلَّةُ قُرَيْشٍ حَتَّى جَاءُونَا فِي مَنَازِلِنَا، فَقَالُوا:

- يَا مَعْشَــرَ الْخَــزْرَجِ، إِنَّهُ قَــدْ بَلَغَنَا أَنَّكُمْ قَــدْ جِئْتُــمْ إِلَى صَاحِبِنَا هَذَا تَسْــتَخْرِجُونَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا وَتُبَايِعُونَهُ عَــلَى حَرْبِنَا، وَإِنَّهُ وَاللهِ مَا مِنْ حَيٍّ مِنَ الْعَرَبِ أَبْغَضَ إِلَيْنَا مِنْ أَنْ تَنْشُــبَ الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ مِنْكُمْ.

فَقَالَ بَعْضُ رِجَالٍ مِنْ مُشْــرِكِي قَوْمِنَا يَحْلِفُونَ مَا كَانَ مِنْ هَذَا شَيْءٌ، وَمَا عَلِمْنَاهُ، وَكَانُوا صَادِقِينَ؛ أَمَّا نَحْــنُ فَكَانَ بَعْضُنَا يَنْظُرُ إِلَى بَعْضٍ، ثُمَّ قَامُوا وَانْصَرَفُوا.

وَحِينَ نَفَرَ النَّاسُ مِــنْ «مِنًى»، وَبَدَأَ تَوَزُّعُهُــمْ وَعَوْدَتُهُمْ إِلَى دِيَارِهِمْ، أَدْرَكَ الْقُرَشِــيُّونَ بِأَنَّ مُسْــلِمِي «يَثْــرِبَ» قَدْ خَدَعُوهُــمْ، فَلَحِقُوا بِهِمْ، فَأَدْرَكُوا «سَــعْدَ بْنَ عُبَادَةَ» وَ«الْمُنْذِرَ بْنَ عَمْــرٍو»، وَكِلَاهُمَا كَانَ نَقِيبًا،

فَأَمَّا «الْمُنْذِرُ» فَأَعْجَزَ الْقَوْمَ هَرَبًا، وَأَمَّا «سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ» فَوَقَعَ فِي أَيْدِيهِمْ، فَأَخَذُوهُ، فَرَبَطُوا يَدَيْهِ إِلَى عُنُقِهِ، ثُمَّ أَقْبَلُوا بِهِ حَتَّى أَدْخَلُوهُ «مَكَّةَ»، وَهُمْ يَضْرِبُونَهُ، وَيَجْذِبُونَهُ بِجُمَّتِهِ، وَكَانَ ذَا شَعْرٍ كَثِيرٍ.

وَيَحْكِي لَنَا «سَعْدٌ» عَنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَيَقُولُ:

- فَوَاللهِ إِنِّي لَفِي أَيْدِيهِمْ، إِذْ طَلَعَ عَلَيَّ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ فِيهِمْ رَجُلٌ وَضِيءٌ، أَبْيَضُ الْوَجْهِ، شَعْشَاعٌ، حُلْوٌ مِنَ الرِّجَالِ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: إِنْ يَكُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنَ الْقَوْمِ خَيْرٌ فَعِنْدَ هَذَا.

فَلَمَّا دَنَا مِنِّي رَفَعَ يَدَهُ فَلَكَمَنِي لَكْمَةً شَدِيدَةً! فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لَا وَاللهِ مَا عِنْدَهُمْ بَعْدَ هَذَا مِنْ خَيْرٍ. فَوَاللهِ إِنِّي لَفِي أَيْدِيهِمْ يَسْحَبُونَنِي إِذْ أَوَى لِي رَجُلٌ مِمَّنْ مَعَهُمْ قَالَ:

- وَيْحَكَ... أَمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ قُرَيْشٍ جِوَارٌ وَلَا عَهْدٌ؟

قُلْتُ:

- بَلَى... وَاللهِ لَقَدْ كُنْتُ أُجِيرُ لِـ «جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ» تِجَارَةً، وَأَمْنَعُهُمْ مِمَّنْ أَرَادَ ظُلْمَهُمْ بِبِلَادِي، وَلِـ «الْحَارِثِ بْنِ حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةَ».

فَقَالَ:

- وَيْحَكَ... فَاهْتِفْ بِاسْمِ الرَّجُلَيْنِ، وَاذْكُرْ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمَا.

فَفَعَلْتُ، وَخَرَجَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَيْهِمَا، فَوَجَدَهُمَا فِي الْمَسْجِدِ عِنْدَ «الْكَعْبَةِ» فَقَالَ لَهُمَا:

- إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْخَزْرَجِ الْآنَ لَيُضْرَبُ بِـ «الْأَبْطَحِ» يَهْتِفُ بِكُمَا.

قَالَا:

- وَمَنْ هُوَ؟

قَالَ:

- «سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ».

قَالَا:

- صَـدَقَ، وَاللهِ إِنْ كَانَ لَيُجِيرُ لَنَا تُجَّارَنَا، وَيَمْنَعُهُمْ أَنْ يُظْلَمُوا بِبَلَدِهِ.

ثُمَّ جَـاءَا فَخَلَّصَانِي مِنْ أَيْدِي الْقَـوْمِ، وَانْطَلَقْتُ إِلَى «يَثْرِبَ»، وَكَانَ الَّذِي لَكَمَـنِي هُوَ «سُهَـيْلُ بْنُ عَمْـرٍو»، وَالَّذِي أَوْحَـى لِي هُوَ «أَبُو الْبَخْتَرِيِّ بْنُ هِشَامٍ» فِيمَا عَرَفْتُ بَعْدَ ذَلِكَ.

***

وَبَدَأَتْ «يَثْرِبُ» تَسْـتَعِدُّ اسْـتِعْدَادَهَا الْعَظِيمَ لِلْيَـوْمِ الْمَوْعُودِ (يَوْمِ الْهِجْـرَةِ)، حَيْثُ سَـتَنْطَلِقُ دَعْوَةُ الْإِسْـلَامِ مِنْهَـا إِلَى كُلِّ أَرْكَانِ الدُّنْيَا، وَتَخْرُجُ مِنْهَا الرَّايَاتُ وَالْأَلْوِيَةُ وَالْجُيُوشُ غَازِيَةً فِي سَبِيلِ اللهِ.

الْهِجْرَةُ إِلَى الْمَدِينَةِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (التَّوْبَةُ: 40).

***

حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْمَدِينَةُ زُخْرُفَهَا، وَتَلَاقَى «أَوْسُهَا» وَ«خَزْرَجُهَا» عَلَى الْإِسْلَامِ، وَبَدَتِ الْأَرْضُ الْخِصْبَةُ صَالِحَةً لِلزَّرْعِ الْعَظِيمِ، أَذِنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ بِالْهِجْرَةِ إِلَيْهَا.

فَخَرَجُوا مِنْ «مَكَّةَ» زَرَافَاتٍ وَوُحْدَانًا، مُخَلِّفِينَ وَرَاءَهُمُ الْأَهْلَ وَالْوَطَنَ، وَالْمَالَ وَعُرُوضَ التِّجَارَةِ وَالثَّرَوَاتِ، مُسْتَرْخِصِينَ كُلَّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللهِ، غَيْرَ مُبَالِينَ بِعَرَضِ الدُّنْيَا.

وَهُنَا تَتَجَلَّى لِلْعِيَانِ صُوَرٌ مِنَ التَّضْحِيَاتِ وَالْبُطُولَاتِ لَمْ يَعْرِفْ لَهَا التَّارِيخُ مَثِيلًا خِلَالَ حِقَبِهِ وَقُرُونِهِ الْكَثِيرَةِ وَالطَّوِيلَةِ.

وَكَانَ مِنْ شَأْنِ الْقَائِدِ الرَّائِدِ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، أَنْ جَعَلَ أَكْثَرَ أَصْحَابِهِ يُغَادِرُونَ «مَكَّةَ» لِيَطْمَئِنَّ إِلَى مَسِيرَتِهِمْ، وَيَسْتَوْثِقَ مِنْ سَلَامَتِهِمْ، وَوُصُولِهِمْ غَانِمِينَ إِلَى دَارِ الْأَمَانِ.

وَرَاعَ قُرَيْشًا مَا تَرَاهُ مِنَ النُّزُوحِ الْجَمَاعِيِّ، وَكَانَتْ قَدْ عَلِمَتْ بِالْبَيْعَةِ الَّتِي تَمَّتْ بَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَبَيْنَ أَهْلِ «الْمَدِينَةِ». فَتَدَاعَى السَّادَةُ لِاجْتِمَاعٍ طَارِئٍ فِي دَارِ النَّدْوَةِ، يَبْحَثُونَ خِلَالَهُ الْوَضْعَ الْخَطِيرَ الَّذِي يُهَدِّدُ وُجُودَهُمْ وَأَمْنَهُمْ وَسَلَامَهُمْ أَكْثَرَ مِنْ ذِي قَبْلُ.

وَفِي دَارِ النَّدْوَةِ طُرِحَتْ عَلَى الْحَاضِرِينَ حُلُولٌ عَدِيدَةٌ، وَآرَاءٌ كَثِيرَةٌ، كُلُّهَا يَسْتَهْدِفُ التَّخَلُّصَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَخِيرًا اسْتَقَرَّ رَأْيُهُمْ عَلَى أَنْ يَخْتَارُوا شَابًّا قَوِيًّا شُجَاعًا مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ، ثُمَّ يَنْقَضُّوا عَلَى النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ بِضَرْبَةٍ وَاحِدَةٍ؛ كَيْ يَتَفَرَّقَ دَمُهُ بَيْنَ الْقَبَائِلِ وَيَضِيعَ، وَمِنْ ثَمَّ يَصْعُبُ عَلَى «بَنِي هَاشِمٍ» أَنْ يَطْلُبُوا بِهِ...

فِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ كَانَ «أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ لَا يَزَالُ فِي «مَكَّةَ» لَمْ يُغَادِرْهَا إِلَى «الْمَدِينَةِ»، وَكَانَ كُلَّمَا أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ يَسْتَأْذِنُهُ فِي الْخُرُوجِ، يَقُولُ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ:

ـ اصْبِرْ لَعَلَّ اللهَ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ يَجْعَلُ لَكَ رَفِيقًا.

وَفِي الْيَـوْمِ الْمَوْعُودِ... بَعْدَ أَنْ أَذِنَ اللهُ تَعَالَى لِنَبِيِّـهِ بِالْهِجْرَةِ، وَبَعْدَ أَنْ بَلَغَهُ ﷺ ما اعْتَزَمَتْهُ قُرَيْشٌ مِنَ الْفَتْكِ بِهِ وَقَتْلِهِ...

أَرْسَـلَ ﷺ إِلَى «أَبِي بَكْـرٍ» يُبَلِّغُهُ ذَلِـكَ، وَيَطْلُبُ إِلَيْـهِ أَنْ يَتَّخِذَ كَافَّةَ الْإِجْرَاءَاتِ الْمُتَعَلِّقَةَ بِالرِّحْلَةِ التَّارِيخِيَّةِ.

فَرِحَ «أَبُو بَكْرٍ» لِمُرَافَقَةِ النَّبِيِّ ﷺ؛ وَبَدَأَ يُعِدُّ الْعُدَّةَ، فَاسْتَأْجَرَ رَاحِلَتَيْنِ وَجَهَّزَهُمَـا بِالْجِهَازِ اللَّازِمِ، وَكَذَلِكَ اسْـتَأْجَرَ دَلِيلًا يَقُـودُ الرَّاحِلَتَيْنِ، وَيَعْرِفُ الطَّرِيـقَ وَالْمَنَافِذَ إِلَى «الْمَدِينَةِ»، يُدْعَى «عَبْـدَ اللهِ بْنَ أُرَيْقِطٍ»، وَطَلَبَ إِلَى مَوْلًى لَهُ يُدْعَى «عَامِرَ بْنَ فُهَيْرَةَ» أَنْ يَكُونَ مُسْتَعِدًّا مَعَ الرَّاحِلَتَيْنِ وَالدَّلِيلِ حِينَ الطَّلَبِ؛ كَمَا جَعَلَ قِسْـمًا مِنْ مَالِهِ مَعَهُ، وَقِسْمًا آخَرَ يَتْرُكُهُ لِعِيَالِهِ يَسْتَعِينُونَ بِهِ عَلَى الْحَيَاةِ وَالْمَعِيشَةِ، حَتَّى يَلْحَقُوا بِهِ.

وَجَلَسَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ إِلَى ابْنِ عَمِّهِ «عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ، الْفَتَى الشُّـجَاعِ، يُوصِيهِ أَنْ يَرُدَّ الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا، وَيُخْبِرُهُ عَنْ أَصْحَابِهَا وَأَعْدَادِهَا وَأَنْوَاعِهَا...

وَلَمَّـا جَنَّ اللَّيْلُ، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ بِفِتْيَانِهَا الْمُخْتَارِينَ تُحِيطُ بِدَارِ النَّبِيِّ ﷺ؛ كَيْ تَمْنَعَهُ مِـنَ الْخُرُوجِ، فَإِذَا خَرَجَ نَفَّـذَتْ وَعِيدَهَا وَمَا ائْتَمَرَتْ عَلَيْهِ.

فَطَلَـبَ ﷺ إِلَى «عَـلِيٍّ» أَنْ يَتَمَـدَّدَ فِي فِرَاشِـهِ وَأَنْ يَلْتَحِـفَ بِبُرْدِهِ الْحَضْرَمِـيِّ. وَتَوَكَّلَ هُوَ عَلَى اللهِ، ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَ اللهِ تَعَالَى:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (يَس: 9).

ثُـمَّ فَتَحَ الْبَابَ وَخَرَجَ مِنَ الدَّارِ، فَإِذَا بِجَمِيعِ فِتْيَانِ قُرَيْشٍ، الْمُحِيطِينَ بِالدَّارِ، قَدْ غَشِيَهُمُ النُّعَاسُ، وَأَطْبَقَ عَلَيْهِمُ النَّوْمُ، وَمَشَى رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ بَيْنِهِمْ فِي ثِقَةٍ وَاطْمِئْنَانٍ، حَتَّى بَلَغَ دَارَ «أَبِي بَكْرٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ.

ثُمَّ خَرَجَا مَعًا مِنْ بَابٍ خَلْفِيٍّ صَغِيرٍ؛ كَيْ لَا يَشْعُرَ بِهِمَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ؛ مُتَّجِهَيْنِ جَنُوبَ «مَكَّةَ»، لَا إِلَى شَمَالِهَا حَيْثُ الطَّرِيقُ إِلَى «الْمَدِينَةِ»...

وَظَلَّا فِي سَيْرِهِمَا حَتَّى دَخَلَا غَارَ «ثَوْرٍ» مُخْتَبِئَيْنِ فِيهِ، فَإِذَا مَا خَفَّ الطَّلَبُ وَرَاءَهُمَا، انْطَلَقَا عَلَى بَرَكَةِ اللهِ وَتَيْسِيرِهِ إِلَى «الْمَدِينَةِ».

وَكَانَ هَذَا التَّصَرُّفُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَهْدِفُ إِلَى تَضْلِيلِ الْمُشْرِكِينَ.

❊❊❊

كَانَ فِتْيَانُ قُرَيْشٍ يَنْظُرُونَ بَيْنَ الْحِينِ وَالْحِينِ إِلَى دَاخِلِ مَنْزِلِ النَّبِيِّ ﷺ فَيَرَوْنَ شَخْصًا فِي السَّرِيرِ مُمَدَّدًا، فَيَظُنُّونَهُ رَسُولَ اللهِ، فَيَطْمَئِنُّونَ...

ثُـمَّ اقْتَحَمُوا الدَّارَ بَعْدَ أَنْ طَالَ بِهِمُ الِانْتِظَارُ، وَكَمْ كَانَتِ الْمُفَاجَأَةُ مُخَيِّبَةً لِآمَالِهِمْ، إِذْ وَجَدُوا الْفَتَى «عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ» يَتَسَجَّى فِي سَرِيرِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ، وَلَمْ يَجِدُوا أَثَرًا لَهُ ﷺ.

وَجُـنَّ جُنُونُ قُرَيْشٍ، كَيْفَ أَفْلَتَ الْمُصْطَفَى ﷺ مِنْ يَدِهَا وَقَدْ أَحَاطَ بِدَارِهِ فُرْسَانُهَا وَشُجْعَانُهَا إِحَاطَةَ السِّوَارِ بِالْمِعْصَمِ؟!!

فَجَنَّدَتْ كُلَّ طَاقَاتِهَا وَإِمْكَانَاتِهَا لِلْبَحْثِ عَنْهُ، وَأَطْلَقَتْ قُصَّاصَ الْأَثَرِ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ، وَأَضْحَتْ «مَكَّةُ» وَكَأَنَّهَا عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِحَرْبٍ أَوْ قِتَالٍ...

وَهَذَا مَا قَصَدَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الِاخْتِبَاءِ فِي الْغَارِ.

وَوَصَلَ قُصَّاصُ الْأَثَرِ إِلَى بَابِ الْغَارِ فِي أَثْنَاءِ بَحْثِهِمْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَصَاحِبِهِ، بَعْدَ أَنْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ «أَبَا بَكْرٍ» قَدْ رَافَقَ النَّبِيَّ ﷺ فِي خُرُوجِهِ...

فَإِذَا مُفَاجَأَةٌ جَدِيدَةٌ... الْأَثَرُ يَنْتَهِي عِنْدَ بَابِ الْغَارِ، وَلَكِنَّ الْبَابَ عَلَيْهِ نَسِيجُ عَنْكَبُوتٍ، وَشَجَرَةٌ تَسُدُّهُ، فِيهَا عُشُّ لِيَمَامَتَيْنِ بَرِّيَّتَيْنِ تَهْدِلَانِ...

وَدَارَ فُرْسَانُهُمْ حَوْلَ الْغَارِ يَبْحَثُونَ عَنْ مَنْفَذٍ آخَرَ لَهُ، ثُمَّ اعْتَلَتْ خُيُولُهُمْ ظَهْرَهُ، وَسَمِعَ «الصِّدِّيقُ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ وَقْعَ حَوَافِرِ الْخَيْلِ، فَظَهَرَتِ الصُّفْرَةُ فِي مُحَيَّاهُ، فَقَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ:

ـ لَوْ رَفَعَ أَحَدُهُمْ قَدَمَهُ لَرَآنَا.

فَأَجَابَهُ النَّبِيُّ ﷺ آمِنًا مُطْمَئِنًّا وَاثِقًا:

ـ لَا تَحْزَنْ يَا «أَبَا بَكْرٍ»، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا؟!

وَفِي هَذَا الشَّأْنِ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى قَوْلَهُ فِي كِتَابِهِ الْمَجِيدِ:

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التَّوْبَةُ: 40).

وَقَالَ قَائِلُ الْقَوْمِ بَعْدَ أَنْ أَعْيَتْهُمْ حِيلَةُ الْبَحْثِ وَالتَّنْقِيبِ:

ـ إِنَّ هَذَا الْعَنْكَبُوتَ عَلَى بَابِ الْغَارِ أَقْدَمُ مِنْ مِيلَادِ «مُحَمَّدٍ».

ثُمَّ عَادُوا بِخُفَّيْ حُنَيْنٍ، وَلَمْ يَظْفَرُوا بِطَائِلٍ، وَأَبْلَغُوا كُبَرَاءَهُمْ بِمَا تَمَّ لَهُمْ مِنَ التَّفْتِيشِ وَالْبَحْثِ عَلَى غَيْرِ جَدْوَى؛ وَدُونَ الْعُثُورِ عَلَى أَثَرٍ يَهْدِيهِمْ إِلَى مَكَانِ «مُحَمَّدٍ» ﷺ وَصَاحِبِهِ.

فَتَشَاوَرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَرَصَدُوا جَائِزَةً كَبِيرَةً لِمَنْ يَأْتِي بِالْمُهَاجِرَيْنِ حَيَّيْنِ أَوْ مَيِّتَيْنِ.

اسْتَمَرَّ اخْتِفَاءُ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ صَاحِبِهِ فِي الْغَارِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ بِلَيَالِيهَا، حَتَّى تَيْأَسَ قُرَيْشٌ مِنَ الطَّلَبِ وَالْبَحْثِ وَالتَّنْقِيبِ.

فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ كَانَ «عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ» مَوْلَى «أَبِي بَكْرٍ» يَغْدُو عَلَى الْغَارِ بِبَعْضِ الشِّيَاهِ، فَيَحْتَلِبُهَا وَيُقَدِّمُ لَبَنَهَا لِرَسُولِ اللهِ وَصَاحِبِهِ، ثُمَّ يُغَطِّي الْأَثَرَ الَّذِي خَلَّفَتْهُ حَوَافِرُ الشِّيَاهِ وَرَاءَهَا؛ كَيْ لَا يَهْتَدِيَ الْبَاحِثُونَ إِلَى الْغَارِ.

وَكَانَ «عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ» يَتَسَقَّطُ أَخْبَارَ قُرَيْشٍ فِي نَوَادِيهَا وَاجْتِمَاعَاتِهَا، وَيَتَعَرَّفُ إِلَى قَرَارَاتِهَا الْجَدِيدَةِ وَنَوَايَاهَا، ثُمَّ يَنْقُلُ ذَلِكَ يَوْمِيًّا إِلَى الرَّسُولِ ﷺ وَوَالِدِهِ فِي الْغَارِ؛ لِيَكُونَا عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ كُلِّ تَصَرُّفَاتِهَا.

وَأَيْضًا... فَإِنَّ «أَسْمَاءَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ كَانَتْ تَحْمِلُ فِي أَوْقَاتٍ مُعَيَّنَةٍ مِنَ النَّهَارِ الزَّادَ اللَّازِمَ إِلَيْهِمَا، وَفِي مَرَّةٍ بَحَثَتْ عَنْ شَيْءٍ

تَرْبِطُ بِـهِ الْمَزَادَةَ فَلَمْ تَجِـدْ، فَخَلَعَتْ نِطَاقَهَا وَشَـقَّتْهُ نِصْفَيْنِ، وَرَبَطَتْ بِأَحَدِهِمَا الْمَزَادَةَ، وَتَمَنْطَقَتْ بِالْآخَرِ، فَدُعِيَتْ بِـ «ذَاتِ النِّطَاقَيْنِ».

بَعْدَ مُرُورِ الْأَيَّامِ الثَّلَاثَةِ وَافَاهُمَا الدَّلِيلُ وَمَعَهُ الرَّاحِلَتَانِ، وَانْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَمَعَـهُ صَاحِبُهُ، وَدَلِيلُهُمَا «عَبْدُ اللهِ بْنُ أُرَيْقِطٍ» بِاتِّجَاهِ «الْمَدِينَةِ».

وَكَانَ فِي «مَكَّةَ» رَجُلٌ يُدْعَى «سُرَاقَةَ بْنَ مَالِكٍ»، يَعِيشُ حَيَاةَ الصَّعْلَكَةِ، يَغْزُو وَيَسْطُو، وَيَسْلُبُ وَيَنْهَبُ، لَا يَعْرِفُ مُثُلًا وَلَا قِيَمًا...

وَكَانَ «سُـرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ» قَدْ سَـمِعَ بِالْجَائِزَةِ الضَّخْمَةِ الَّتِي رَصَدَتْهَا «قُرَيْشٌ» لِمَنْ يَأْتِي بِـ «مُحَمَّدٍ» وَصَاحِبِهِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُكَلِّفْ نَفْسَـهُ مَشَـقَّةَ الْبَحْـثِ وَالتَّنْقِيبِ؛ حَتَّى كَانَ فِي يَوْمٍ جَالِسًـا بِفِنَـاءِ «الْكَعْبَةِ» مَعَ بَعْضِ الْقُرَشِـيِّينَ، فَسَـمِعَ مِنْ أَحَدِ النَّاسِ الْقَادِمِينَ حَدِيثًا إِلَى «مَكَّةَ» أَنَّهُ الْتَقَى بِرَكْبٍ مُتَّجِهٍ شَمَالًا، عَدَدُهُ ثَلَاثَةُ أَنْفَارٍ، وَلَا يَدْرِي إِنْ كَانَ هَذَا الرَّكْبُ هُوَ رَكْبَ «مُحَمَّدٍ» وَصَاحِبِهِ الْفَارَّيْنِ مِنْ «مَكَّةَ».

عِنْدَئِذٍ قَامَ «سُرَاقَةُ» مِنَ الْمَجْلِسِ يَتَسَلَّلُ، دُونَ أَنْ يُشْعِرَ بِهِ أَحَدًا، فَلَمَّا وَافَى دَارَهُ، طَلَبَ إِلَى غُلَامٍ لَهُ أَنْ يُسْـرِجَ فَرَسَـهُ، وَيُعِدَّ لَهُ زَادَهُ، ثُمَّ سَيْفَهُ وَرُمْحَـهُ، وَامْتَطَى صَهْوَةَ الْفَرَسِ، وَانْطَلَقَ يَسْـتُرُهُ اللَّيْـلُ وَرَاءَ الرَّكْبِ، سَعْيًا فِي كَسْبِ الْجَائِزَةِ الضَّخْمَةِ، وَالشُّهْرَةِ الْكَبِيرَةِ، وَالصِّيتِ الذَّائِعِ.

أَطْلَقَ «سُرَاقَةُ» لِفَرَسِهِ الْعِنَانَ، وَاسْتَحَثَّهَا عَلَى الْجَرْيِ السَّرِيعِ، لِإِدْرَاكِ الرَّكْبِ قَبْلَ أَنْ يَفُوتَهُ، وَيُفْلِتَ مِنْ يَدَيْهِ.

وَبَعْدَ جَرْيٍ مُتَوَاصِلٍ لَمَحَ خَيَـالَ الرَّكْبِ، فَأَرْخَى زِمَامَ الْفَرَسِ، وَهَمَزَ بَطْنَهَا بِرِجْلِهِ، فَطَارَتْ تُسَـابِقُ الرِّيحَ، وَلَكِنَّهَا لَـمْ تَلْبَثْ أَنْ كَبَتْ وَوَقَعَتْ أَرْضًا عَـلَى قَائِمَتَيْهَا الْأَمَامِيَّتَيْنِ! فَتَشَـاءَمَ «سُـرَاقَةُ» مِمَّا حَـدَثَ لَهُ، ثُمَّ اسْـتَنْهَضَهَا مِنْ كَبْوَتِهَا، وَأَطْلَقَ لَهَا الْعَنَانَ، فَلَمْ تَمْضِ أَيْضًا سِـوَى شَوْطٍ وَاحِدٍ ثُمَّ كَبَتْ مَرَّةً أُخْرَى!! لَكِنَّهَا فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ غُرِزَتْ قَوَائِمُهَا فِي الرِّمَالِ وَسَاخَتْ فِي الْأَرْضِ، وَلَمْ تَنْفَعْ كُلُّ مُحَاوَلَاتِ «سُرَاقَةَ» فِي اسْتِنْهَاضِهَا...

وَأَيْضًا... فَإِنَّ «سُرَاقَةَ» قَدْ رَأَى كَأَنَّ شِهَابًا قَدْ لَمَعَ وَبَرَقَ أَمَامَهُ، فَأَعْشَى عَيْنَيْهِ، وَذَلِكَ قَبْلَ كَبْوَةِ الْفَرَسِ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ...

وَتَيَقَّنَ «سُرَاقَةُ» بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَمْنَعُ رَسُولَهُ وَيَحْمِيهِ مِنَ الْأَذَى، فَلَنْ يَضُرَّهُ أَحَدٌ أَبَدًا، فَنَادَى عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِأَعْلَى صَوْتِهِ، وَنَادَاهُ فِي حَسْرَةٍ وَنَدَمٍ أَنْ يَدْعُوَ اللهَ تَعَالَى لَهُ؛ كَيْ تَخْلُصَ قَوَائِمُ فَرَسِهِ مِنَ الرِّمَالِ...

فَدَعَـا لَهُ النَّبِـيُّ ﷺ، وَانْطَلَقَتِ الْفَرَسُ مِنْ عِقَالِهَا الَّذِي كَانَ يَشُـدُّهَا، وَيَرْبِطُهَا، وَيَمْنَعُهَا مِنَ الْحَرَكَةِ.

وَلَمَّا اقْتَرَبَ «سُـرَاقَةُ» مِنْ رَسُـولِ اللهِ ﷺ أَعْلَنَ بَيْنَ يَدَيْهِ تَوْبَتَهُ وَنَدَمَهُ وَأَسَفَهُ، كَمَا عَاهَدَ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يُضَلِّلَ أَيَّ طَالِبٍ أَوْ بَاحِثٍ يَغْدُو فِي أَثَرِهِمْ.

وَوَعَظَـهُ النَّبِيُّ ﷺ وَنَصَحَهُ وَأَرْشَـدَهُ إِلَى الدِّينِ الْحَنِيـفِ، وَخَوَّفَهُ مِنْ غَضَـبِ اللهِ تَعَالَى، وَهُنَـا نَتَوَقَّفُ قَلِيلًا، فَقَدْ أَنْبَأَهُ رَسُـولُ اللهِ ﷺ بِدُخُولِهِ الْإِسْـلَامَ وَجِهَادِهِ فِي سَـبِيلِ اللهِ، وَانْتِصَارِ الْمُسْـلِمِينَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ،

وَفُتُوحَاتِهِمْ فِي بِلَادِ «قَيْصَرَ» وَ«كِسْرَى» وَكَيْفَ أَنَّهُ سَيَلْبَسُ سِوَارَيْ «كِسْرَى» الْمُذَهَّبَيْنِ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ...

وَحَدَثَ ذَلِكَ فِعْلًا بَعْدَ انْتِصَارِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْفُرْسِ، وَاسْتِحْضَارِ كُنُوزِ «كِسْرَى» مِنَ «الْمَدَائِنِ»، وَلَبِسَ «سُرَاقَةُ» سِوَارَيْ «كِسْرَى» الْمُذَهَّبَيْنِ.

وَعَادَ «سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ» إِلَى «مَكَّةَ»، وَفِي الطَّرِيقِ الْتَقَى بِبَعْضِ الْقُرَشِيِّينَ السَّاعِينَ فِي الْبَحْثِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَصَاحِبِهِ، فَضَلَّلَهُمْ بِأَنْ أَرْشَدَهُمْ إِلَى طَرِيقٍ أُخْرَى، غَيْرِ الَّتِي كَانَ يَسِيرُ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ وَ«أَبُو بَكْرٍ»، وَكَذَلِكَ فَعَلَ فِي «مَكَّةَ»، فَمَا مِنْ أَحَدٍ يَنْطَلِقُ لِلْبَحْثِ إِلَّا وَيُضَلِّلُهُ «سُرَاقَةُ» وَيُبْعِدُهُ.

وَاسْتَمَرَّ «سُرَاقَةُ» فِي ذَلِكَ حَتَّى قَالَ «أَبُو جَهْلٍ» يُحَذِّرُ قُرَيْشًا:

«بَنِي مُدْلِجٍ» إِنِّي أَخَافُ سَفِيهَكُمْ
«سُرَاقَةَ» مُسْتَقْوٍ لِنَصْرِ «مُحَمَّدِ»
عَلَيْكُمْ بِهِ أَلَّا يُفَرِّقَ جَمْعَكُمْ
فَيُصْبِحَ شَتَّى بَعْدَ عِزٍّ وَسُؤْدَدِ

فَرَدَّ عَلَيْهِ «سُرَاقَةُ» مُدَافِعًا عَنْ نَفْسِهِ:

أَبَا حَكَمٍ وَاللهِ لَوْ كُنْتَ شَاهِدًا
لِأَمْرِ جَوَادِي إِذْ تَسُوخُ قَوَائِمُهْ

عَجِبْتَ وَلَمْ تَشْكُكْ بِأَنَّ «مُحَمَّدًا»

رَسُولٌ بِبُرْهَانٍ، فَمَنْ ذَا يُقَاوِمُهْ؟!

عَلَيْكَ فَكُفَّ الْقَوْمَ عَنْهُ، فَإِنَّنِي

أَخَالُ لَنَا يَوْمًا سَتَبْدُو مَعَالِمُهْ

بِأَمْرٍ تَوَدُّ النَّصْرَ فِيهِ فَإِنَّهُمْ

وَإِنَّ جَمِيعَ النَّاسِ طُرًّا تُسَالِمُهْ

وَتَابَعَ الرَّكْبُ الْمُبَارَكُ سَيْرَهُ...

وَكَانَ الدَّلِيلُ قَدِ اتَّخَذَ طَرِيقًا سَاحِلِيًّا، زِيَادَةً فِي التَّضْلِيلِ، وَالِابْتِعَادِ عَنِ الْأَمَاكِنِ الَّتِي قَدْ تَكُونُ عُرْضَةً لِلْبَحْثِ وَالتَّفْتِيشِ.

وَفِي يَوْمٍ، وَأَثْنَاءَ السَّيْرِ، مَرُّوا بِخَيْمَةِ امْرَأَةٍ كَانَتْ تُقَدِّمُ الْخِدْمَاتِ لِلْمَارَّةِ وَالْمُسَافِرِينَ، تُدْعَى «أُمَّ مَعْبَدٍ».. كَانَتِ الْمَرْأَةُ جَالِسَةً عِنْدَ بَابِ خَيْمَتِهَا، فَسَلَّمَ عَلَيْهَا الْقَادِمُونَ، وَسَأَلُوهَا عَنْ طَعَامٍ يَشْتَرُونَهُ، فَأَجَابَتْ بِأَنَّهَا لَيْسَ عِنْدَهَا شَيْءٌ تُقَدِّمُهُ لَهُمْ...

فَنَظَرَ ﷺ إِلَى جَانِبِ الْخَيْمَةِ فَرَأَى شَاةً ضَعِيفَةً مُنْزَوِيَةً، فَسَأَلَهَا عَنْهَا، فَقَالَتْ:

- قَدْ خَلَّفَهَا الضَّعْفُ عَنِ الْغَنَمِ.

فَطَلَبَ إِلَيْهَا ﷺ أَنْ يَحْلِبَهَا، فَعَجِبَتْ مِنْ ذَلِكَ، وَقَالَتْ:

- لَيْسَ فِي ضَرْعِهَا قَطْرَةُ لَبَنٍ، وَهِيَ حَائِلٌ (لَيْسَ بِهَا مِنْ حَمْلٍ).

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

- لَا بَأْسَ.

ثُمَّ تَقَدَّمَ مِنْهَا، وَمَسَحَ ضَرْعَهَا، وَسَمَّى اللهَ عَلَيْهِ، ثُمَّ احْتَلَبَهُ، فَدَرَّ كَثِيرًا مِنَ اللَّبَنِ!! فَتَنَاوَلَهُ ﷺ فِي وِعَاءٍ ثُمَّ قَدَّمَهُ لِصَاحِبَيْهِ، وَلِـ«أُمِّ مَعْبَدٍ»، فَأَرَادُوا أَنْ يُؤْثِرُوا رَسُولَ اللهِ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ:

- سَاقِي الْقَوْمِ آخِرُهُمْ.

ثُمَّ حَلَبَ ثَانِيَةً وَشَرِبَ وَحَمِدَ اللهَ تَعَالَى، وَمَنَحُوا «أُمَّ مَعْبَدٍ» بَعْضَ الْمَالِ فَرَفَضَتْ، فَغَادَرُوهَا شَاكِرِينَ.

وَلَمَّا عَادَ زَوْجُهَا بِغُنَيْمَاتِهِ الْقَلِيلَةِ الضَّعِيفَةِ، وَوَجَدَ آثَارَ لَبَنٍ فِي الْإِنَاءِ، سَأَلَهَا عَنْ سَبَبِ وُجُودِهِ، فَأَخْبَرَتْهُ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الزُّوَّارِ الثَّلَاثَةِ، وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الشَّخْصِ الَّذِي احْتَلَبَ الشَّاةَ.

فَقَالَ زَوْجُهَا:

- صِفِيهِ لِي؛ فَوَاللهِ إِنِّي لَأَرَاهُ صَاحِبَ قُرَيْشٍ الَّذِي تَطْلُبُ.

فَقَالَتْ:

- رَأَيْتُ رَجُلًا ظَاهِرَ الْوَضَاءَةِ، حَسَنَ الْخَلْقِ، مَلِيحَ الْوَجْهِ، لَمْ تَعِبْهُ ثُجْلَةٌ (أَيْ ضَخْمٌ)، وَلَمْ تُزْرِ بِهِ صَعْلَةٌ (أَيْ نَحِيلٌ)، قَسِيمٌ وَسِيمٌ، فِي عَيْنَيْهِ دَعَجٌ (شِدَّةُ سَوَادِ الْعَيْنِ وَشِدَّةُ بَيَاضِهَا)، وَفِي أَشْفَارِهِ وَطَفٌ

(كَثْرَةٌ وَطُــولٌ)، وَفِي صَوْتِهِ صَحَلٌ (أَيْ بُحَّة مــن الصوت)، أَحْوَرُ أَكْحَــلُ، أَزَجُّ أَقْرَنُ، فِي عُنُقِهِ سَــطَعٌ (طُولٌ)، وَفِي لِحْيَتِــهِ كَثَاثَةٌ، إِذَا صَمَتَ فَعَلَيْهِ الْوَقَارُ، وَإِذَا تَكَلَّمَ سَمَا وَعَلَاهُ الْبَهَاءُ، حُلْوُ الْمَنْطِقِ...

إِلَى آخِرِ مَا وَصَفَتْ بِهِ النَّبِيَّ الْكَرِيمَ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

فَقَالَ زَوْجُهَا:

- هَذَا وَاللهِ صَاحِــبُ قُرَيْشٍ الَّذِي تَطْلُــبُ، وَلَوْ صَادَفْتُهُ لَالْتَمَسْــتُ أَنْ أَصْحَبَهُ، وَلَأَجْهَدَنَّ إِنْ وَجَدْتُ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا.

وَانْطَلَقَتِ الْأَفْوَاهُ وَالْأَلْسِنَةُ تُرَدِّدُ:

جَــزَى اللهُ رَبُّ النَّــاسِ خَيْــرَ جَزَائِــهِ
رَفِيقَيْــنِ حَــلَّا خَيْمَتَــيْ «أُمِّ مَعْبَــدِ»

هُمَــا نَــزَلَا بِالْبِــرِّ وَارْتَحَــلَا بِــهِ
فَأَفْلَــحَ مَــنْ أَمْسَــى رَفِيــقَ «مُحَمَّدِ»

فَيَــالَ «قُصَــيٍّ» مَــا زَوَى اللهُ عَنْكُــمُ
بِــهِ مِــنْ فَعَــالٍ لَا تُجَــارَى وَسُــؤْدَدِ

سَــلُوا أُخْتَكُــمْ عَــنْ شَــأْنِهَا وَإِنَائِهَا
فَإِنَّكُــمُ إِنْ تَسْــأَلُوا الشَّــاةَ تَشْــهَدِ

دَعَـــاهَا بِشَـــاةٍ حَـــائِلٍ فَتَحَلَّبَـــتْ

لَـــهُ بِصَـــرِيحِ ضَـــرَّةِ الشَّـــاةِ مُـــزْبِدِ

فَغَـــادَرَهُ رَهْنًـــا لَدَيْهَـــا لِحَالِـــبٍ

يُـــدِرُّ لَهَـــا فِي مَصْـــدَرٍ ثُـــمَّ مَـــوْرِدِ

وَتَابَعَ الرَّكْبُ الْمَيْمُونُ سَـــيْرَهُ حَتَّـــى بَلَغَ ضَاحِيَةَ «قُبَـــاءٍ» فِي «الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ»، فَنَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ وَصَاحِبُهُ فِي ضِيَافَةِ «بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْنٍ»، ثُمَّ تَابَعَ السَّيْرَ إِلَى «الْمَدِينَةِ».

وَكَانَ الْمُسْـــلِمُونَ الَّذِينَ سَبَقُوا رَسُـــولَ اللهِ ﷺ بِالْهِجْرَةِ، قَدْ أَتَاهُمْ مَنْ يُخْبِرُهُمْ بِخُرُوجِهِ ﷺ مِنْ «مَكَّةَ»، فَكَانُوا يَرْصُدُونَ مَقْدِمَهُ إِلَيْهِمْ بِالِانْتِظَارِ وَالشَّوْقِ.

فَيَخْرُجُونَ إِلَى ظَاهِرِ «الْمَدِينَةِ» وَيَنْتَظِرُونَ السَّاعَاتِ الطِّوَالَ، حَتَّى يَجِنَّ اللَّيْلُ، ثُمَّ يَعُودُونَ...

فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي وَصَلَ فِيهِ إِلَى «الْمَدِينَةِ»، أَوَوْا إِلَى مَنَازِلِهِمْ وَبُيُوتِهِمْ مُبَكِّرِينَ لِشِدَّةِ الْحَرِّ وَالْقَيْظِ، وَإِذَا بِأَصْوَاتٍ تَعْلُو وَتَشْتَدُّ:

ـ هَذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ وَصَلَ.

وَفِي طَرْفَةِ عَيْنٍ كَانَتْ أَسْوَاقُ «الْمَدِينَةِ» وَطُرُقَاتُهَا تَضِجُّ بِالنَّاسِ، يَلْتَفُّونَ حَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ ـ نَاقَتِهِ الْقَصْوَاءِ ـ وَضِيءَ الْوَجْهِ بَاسِمَ الثَّغْرِ...

وَتَعَالَى نَشِيدُ الْمُنْشِدِينَ:

طَـلَـعَ الْـبَـدْرُ عَـلَـيْـنَـا مِـنْ ثَنِيَّـاتِ الْـوَدَاعْ
وَجَـبَ الشُّكْـرُ عَـلَـيْنَا مَـا دَعَـا لِلّٰهِ دَاعْ
أَيُّـهَـا الْمَبْعُـوثُ فِـينَا جِـئْتَ بِالْأَمْـرِ الْمُطَـاعْ

وَتَجَاوَبَ صَدَى النَّشِيدِ الْعَذْبِ فِي سَمَاءِ «الْمَدِينَةِ»، وَرَدَّدَتْهُ كُلُّ الْأَلْسِنَةِ، وَأَرَادَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَحْظَى بِشَرَفِ نُزُولِ النَّبِيِّ ﷺ فِي ضِيَافَتِهِ، وَرَاحُوا يَتَجَاذَبُونَ مِقْوَدَ «الْقَصْوَاءِ»، فَقَالَ ﷺ:

ـ دَعُوهَا.. فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ.

ثُمَّ بَرَكَتِ النَّاقَةُ فِي أَرْضٍ فَضَـاءٍ، يَمْلِكُهَا غُلَامَانِ يَتِيمَانِ فِي «الْمَدِينَةِ»، هُمَا «سَهْلٌ وَسُهَيْلٌ ابْنَا عَمْرٍو».

هُنَاكَ... بُنِيَ الْمَسْجِدُ النَّبَوِيُّ الشَّرِيفُ، وَبُنِيَتْ حَوْلَهُ حُجُرَاتُ أَزْوَاجِهِ ﷺ.

وَمَضَى ﷺ إِلَى دَارِ «أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ» فَنَزَلَ فِي ضِيَافَتِهِ، وَلَمْ يَرْضَ أَنْ يَأْخُذَ الْقِسْمَ الْأَعْلَى مِنَ الدَّارِ مَنْزِلًا لَهُ، وَفَضَّلَ الْقِسْمَ الْأَسْفَلَ؛ كَيْ يَكُونَ أَسْهَلَ لَهُ مِنْ نَاحِيَةِ اتِّصَالِهِ بِالنَّاسِ، أَوْ زِيَارَةِ النَّاسِ لَهُ.

وَخِلَالَ إِقَامَتِهِ ﷺ فِي دَارِ «أَبِي أَيُّوبَ» عَمِلَ النَّبِيُّ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ عَلَى تَشْيِيدِ الْمَسْجِدِ، مِنْ جُذُوعِ النَّخْلِ وَسَعَفِهِ وَبَعْضِ الْحِجَارَةِ وَالطِّينِ، وَبَنَى مَسْكَنًا لَهُ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَيْهِ.

وَبَدَأَتْ مَرْحَلَةٌ جَدِيدَةٌ فِي حَيَاةِ الدَّعْوَةِ، وَحَيَاةِ الْمُسْـلِمِينَ فِي «الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ».

الْمَدِينَةُ الْمُنَوَّرَةُ

قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ (التَّوْبَةُ: 100).

وقَالَ تَعَالَى:

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحَشْرُ: 9).

سَبَقَ لَنَا الْقَوْلُ بِأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ بِـ«الْمَدِينَةِ» فِي ضَاحِيَةِ «قُبَاءٍ»، وَهِيَ بُقْعَةٌ طَيِّبَةُ الْهَوَاءِ، كَثِيرَةُ الْأَشْجَارِ وَالزَّرْعِ، عَذْبَةُ الْمِيَاهِ.

أَقَامَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ ـ عَلَى أَشْهَرِ الْأَقْوَالِ وَالرِّوَايَاتِ ـ وَابْتَنَى هُنَاكَ أَوَّلَ مَسْجِدٍ فِي الْإِسْلَامِ، وَصَلَّى فِيهِ بِالْمُسْلِمِينَ جَمَاعَةً.

وَلِمَسْجِدِ «قُبَاءَ» فَضْلٌ عَظِيمٌ؛ فَقَدْ رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِهَذَا الصَّدَدِ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ مِنْهَا: «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِ «قُبَاءَ» كَعُمْرَةٍ».

وَسَبَقَ لَنَا الْقَوْلُ أَيْضًا أَنَّهُ ﷺ نَزَلَ فِي «الْمَدِينَةِ» فِي ضِيَافَةِ «أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ» «خَالِدِ بْنِ زَيْدٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ، وَاشْتَرَى الْأَرْضَ الَّتِي بَرَكَتْ فِيهَا نَاقَتُهُ، وَالَّتِي كَانَتْ مِرْبَدًا، مِنْ صَاحِبَيْهَا الْيَتِيمَيْنِ «سَهْلٍ وَسُهَيْلٍ» ابْنَيْ «عَمْرٍو»، وَبَنَى فِيهَا مَسْجِدَهُ ﷺ.

وَاسْتَمَرَّ فِي ضِيَافَةِ «أَبِي أَيُّوبَ» سَبْعَةَ أَشْهُرٍ، حَتَّى تَمَّ بِنَاءُ الْمَسْجِدِ، وَالْمَسَاكِنِ مِنْ حَوْلِهِ.

وَكَانَ ﷺ يَعْمَلُ بِيَدَيْهِ فِي نَقْلِ الْحِجَارَةِ وَالطِّينِ، وَيُرَى الْعَرَقُ وَالْجُهْدُ فِي وَجْهِهِ الشَّرِيفِ، فَكَانَ الصَّحَابَةُ يَتَحَفَّزُونَ وَيَتَحَمَّسُونَ لِلْعَمَلِ، وَيَقُولُ أَحَدُهُمْ:

لَئِنْ قَعَدْنَا وَالنَّبِيُّ يَعْمَلُ ... فَذَلِكَ مِنَّا الْعَمَلُ الْمُضَلَّلُ

فَتَكَاثَرَتِ الْأَيْدِي، وَتَجَمْهَرَتِ السَّوَاعِدُ، وَأُنْجِزَ الْبِنَاءُ.

❊❊❊

فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ تَمَّتْ أُمُورٌ كَثِيرَةٌ:

أَسْلَمَ «سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ وَلِإِسْلَامِهِ قِصَّةٌ طَرِيفَةٌ؛ فَقَدْ كَانَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ غَادَرَ أَرْضَ «فَارِسَ» بَحْثًا عَنِ الْحَقِيقَةِ، وَسَعْيًا وَرَاءَ الْعَقِيدَةِ السَّلِيمَةِ، وَتَنَقَّلَ فِي أَدْيِرَةِ النَّصَارَى فِي الْعِرَاقِ وَالشَّامِ، دُونَ أَنْ يَهْتَدِيَ، حَتَّى وَقَعَ فِي سَبْيٍ وَبَيْعٍ لِأَحَدِ يَهُودِ «الْمَدِينَةِ».

وَسَمِعَ بِأَنَّ نَبِيًّا سَيَظْهَرُ فِي أَرْضِ الْعَرَبِ، عَلَى لِسَانِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مِمَّنِ الْتَقَى بِهِمْ وَحَادَثَهُمْ.

وَسَمِعَ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ «الْمَدِينَةِ» عَنْ «مُحَمَّدٍ» ﷺ، فَلَمَّا وَطِئَتْ قَدَمَا رَسُولِ اللهِ أَرْضَ «الْمَدِينَةِ»، أَسْرَعَ «سَلْمَانُ» يَحْمِلُ بَعْضَ التَّمْرِ، ثُمَّ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يُقَدِّمُهُ لَهُ، وَقَالَ:

ـ هَذَا مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ.

فَلَمْ يَأْكُلْ مِنْهُ النَّبِيُّ ﷺ وَدَفَعَهُ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ «سَلْمَانُ» فِي نَفْسِهِ:

ـ هَذِهِ أُولَى الْعَلَامَاتِ؛ لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا يَأْكُلُونَ مِنْ أَمْوَالِ الصَّدَقَاتِ.

ثُمَّ جَاءَهُ فِي الْيَوْمِ التَّالِي يَحْمِلُ تَمْرًا أَيْضًا، وَقَالَ:

ـ هَذِهِ هَدِيَّةٌ.

فَتَنَاوَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْهُ وَأَكَلَ؛ فَقَالَ «سَلْمَانُ» عَلَى نَفْسِهِ:

ـ وَهَذِهِ عَلَامَةٌ ثَانِيَةٌ.

ثُمَّ جَاءَهُ فِي يَوْمٍ ثَالِثٍ، وَجَلَسَ فِي وَضْعِ مَنْ يُحَاوِلُ أَنْ يَرَى ظَهْرَ النَّبِيِّ ﷺ،

وَعَرَفَ النَّبِيُّ قَصْدَهُ، فَكَشَفَ لَهُ عَنْ خَاتَمِ النُّبُوَّةِ فِي ظَهْرِهِ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ «سَلْمَانُ» مُعَانِقًا وَمُقَبِّلًا، ثُمَّ أَسْلَمَ.

وَلَقَدْ رَأَى مِنْ حُسْنِ وَسُمُوِّ أَخْلَاقِ الْمُصْطَفَى ﷺ وَسِيرَتِهِ فِي أَصْحَابِهِ مَا جَعَلَهُ يُوقِنُ بِأَنَّ الْإِسْلَامَ هُوَ الدِّينُ عِنْدَ اللهِ، وَأَنَّهُ الْحَقُّ وَالْعَدْلُ وَالْخَيْرُ وَهَذَا مَا حَدَّثَنَا بِهِ عَنْ نَفْسِهِ.

❊❊❊

وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يَتَنَادَوْنَ لِلصَّلَاةِ كُلَّمَا حَلَّ وَقْتُهَا وَأَوَانُهَا، وَلَمْ يَكُنِ الْأَذَانُ قَدْ شُرِعَ بَعْدُ، وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ اسْتَغْرَقَ فِي النَّوْمِ مَنْ كَانَ مَسْئُولًا عَنْ إِعْلَامِهِمْ، وَفَاتَهُمْ مَوْعِدُ الْفَجْرِ، فَجَلَسُوا حَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَنَاقَشُونَ وَيَتَبَاحَثُونَ فِي الْأَمْرِ، مُحَاوِلِينَ إِيجَادَ طَرِيقَةٍ يَعُمُّ بِهَا الْإِعْلَانُ وَالْإِعْلَامُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ:

ـ نَتَّخِذُ بُوقًا يُنْفَخُ فِيهِ، كُلَّمَا حَلَّ مَوْعِدُ الصَّلَاةِ.

فَأَبَى رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْبُوقَ شِعَارُ الْيَهُودِ. ثُمَّ قَالَ آخَرُونَ:

ـ نَتَّخِذُ النَّاقُوسَ.

فَأَبَى رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَلِكَ أَيْضًا؛ لِأَنَّهُ شِعَارُ النَّصَارَى.

وَبَيْنَمَا هُمْ فِي مَجْلِسِهِمْ يَتَحَدَّثُونَ، دَخَلَ عَلَيْهِمْ صَحَابِيٌّ يُدْعَى «عَبْدَ اللهِ بْنَ زَيْدٍ»، وَقَالَ:

ـ يَا رَسُولَ اللهِ، لَقَدْ جَاءَنِي طَائِفٌ فِي الْمَنَامِ، وَعَلَّمَنِي صِيغَةً نُؤَذِّنُ بِهَا،

وَنُعْلِمُ النَّاسَ بِحُلُولِ مَوْعِدِ الصَّلَاةِ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

- وَمَا هِيَ؟

فَتَلَا عَلَيْهِمْ «عَبْدُ اللهِ» صِيغَةَ الْأَذَانِ الَّتِي أَنْبَأَهُ بِهَا الطَّائِفُ.

وَبَيْنَمَا هُمْ يَسْتَمِعُونَ، دَخَلَ عَلَيْهِمْ «عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ وَقَالَ:

- يَا رَسُولَ اللهِ... لَقَدْ جَاءَنِي طَائِفٌ فِي الْمَنَامِ، وَأَعْلَمَنِي بِصِيغَةِ الْأَذَانِ الَّتِي أَسْمَعُهَا الْآنَ...

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِـ «عَبْدِ اللهِ بْنِ زَيْدٍ»:

- يَا «عَبْدَ اللهِ» عَلِّمْهَا «بِلَالًا»؛ فَإِنَّهُ أَنْدَى مِنْكَ صَوْتًا.

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ، مُنْذُ الْأَيَّامِ الْأُولَى لِلْمُسْلِمِينَ فِي «الْمَدِينَةِ»، أَصْبَحَ «بِلَالٌ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ مُؤَذِّنَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ مُؤَذِّنَ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُؤَذِّنْ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَبَدًا.

❊❊❊

وَأَيْضًا... كَانَ جَوُّ «الْمَدِينَةِ» يَخْتَلِفُ عَنْ جَوِّ «مَكَّةَ»...

فَشَعَرَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ الْمُهَاجِرِينَ بِالْغُرْبَةِ وَالْوَحْشَةِ، وَدَبَّ الشَّوْقُ فِي نُفُوسِهِمْ إِلَى الْوَطَنِ وَالْأَهْلِ، إِلَى مَرْتَعِ الصِّبَا وَمَلْعَبِ الشَّبَابِ، إِلَى الْأَقْرَانِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَصْحَابِ...

فَكَانُوا يَخْرُجُونَ إِلَى ظَاهِرِ «الْمَدِينَةِ»، وَيَتَطَلَّعُونَ نَحْوَ الْأُفُقِ الْبَعِيدِ، نَاحِيَةَ «مَكَّةَ»، وَتَتَحَدَّرُ الدُّمُوعُ مِنْ عُيُونِهِمْ وَمَآقِيهِمْ...

وَكَانَ أَكْثَرَهُمْ جُلُوسًا وَتَحَرُّقًا وَشَوْقًا «بِلَالُ بْنُ رَبَاحٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ حَتَّى إِنَّهُ تَعَرَّضَ لِأَذَى الشَّمْسِ، وَوَقَعَ فَرِيسَةَ الْحُمَّى، وَعَانَى مِنْ شِدَّةِ الْمَرَضِ.

وَلَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَوَجَّهُ بِالدُّعَاءِ إِلَى اللهِ تَعَالَى؛ كَيْ يُلْقِيَ فِي قُلُوبِ الْمُهَاجِرِينَ حُبَّ «الْمَدِينَةِ»، وَأَنْ يُخَفِّفَ عَنْهُمْ بَلَاءَ حَرِّهَا وَقَسْوَةَ قَيْظِهَا.

وَاسْتَجَابَ الْبَارِي ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ لِنِدَاءِ وَدُعَاءِ نَبِيِّهِ ﷺ، فَحَبَّبَ إِلَى الْمُهَاجِرِينَ «الْمَدِينَةَ»، وَخَفَّفَ مَا بِهِمْ مِنْ لَوْعَةِ الْفِرَاقِ وَمَرَارَةِ الشَّوْقِ إِلَى بَلَدِهِمْ وَوَطَنِهِمْ.

❊❊❊

ثُمَّ إِنَّهُ ﷺ اسْتَدْعَى إِلَيْهِ «أَبَا رَافِعٍ» مَوْلَاهُ وَكَذَلِكَ «زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ»، وَأَعْطَاهُمَا خَمْسَمِئَةِ دِرْهَمٍ، وَطَلَبَ إِلَيْهِمَا أَنْ يَأْتِيَا «مَكَّةَ» وَيُحْضِرَا مَعَهُمَا مِنْهَا ابْنَتَيْهِ ﷺ: «أُمَّ كُلْثُومٍ» وَ«فَاطِمَةَ»، أَمَّا «رُقَيَّةُ» فَكَانَتْ مَعَ زَوْجِهَا «عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ» فِي «الْحَبَشَةِ» مُهَاجِرَيْنِ، وَأَمَّا «زَيْنَبُ» فَقَدْ كَانَتْ مَعَ زَوْجِهَا «أَبِي الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ» فِي «مَكَّةَ».

وَيُحْضِرَا أَيْضًا «أُمَّ أَيْمَنَ» حَاضِنَتَهُ وَزَوْجَةَ «زَيْدٍ» مَوْلَاهُ، وَكَذَلِكَ زَوْجَتَهُ ﷺ «سَوْدَةَ بِنْتَ زَمْعَةَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ، وَكَانَ قَدْ تَزَوَّجَهَا

بِـــ «مَكَّةَ» بَعْدَ وَفَاةِ «خَدِيجَةَ» بِمُدَّةٍ طَوِيلَـــةٍ؛ فَقَدْ حَدَثَ أَنْ جَاءَتْهُ إِحْدَى نِسَـــاءِ الْمُسْـــلِمِينَ وَحَدَّثَتْهُ بِأَمْرِ زَوَاجِهِ، وَعَدَمِ اسْتِحْسَانِ بَقَائِهِ دُونَ امْرَأَةٍ تَرْعَى شُئُونَ الْبَيْتِ وَالدَّارِ، وَخُصُوصًا الْبَنَاتِ...

فَأَيَّدَ رَأْيَهَا، وَسَـــأَلَهَا عَمَّنْ تَرَاهَا مُنَاسِـــبَةً لَهُ مِنَ النِّسَـــاءِ، فَذَكَرَتْ لَهُ «سَوْدَةَ بِنْتَ زَمْعَةَ».

وَكَانَتْ «سَـــوْدَةُ» مِنَ السَّـــابِقَاتِ إِلَى الْإِسْـــلَامِ مَعَ زَوْجِهَا «السَّكْرَانِ بْنِ عَمْرٍو»، وَهَاجَرَتْ مَعَهُ إِلَى «الْحَبَشَـــةِ»، وَهُنَاكَ مَاتَ عَنْهَا، فَتَأَيَّمَتْ، وَكَانَتْ مُسِنَّةً لَا يُرْجَى مِنْهَا الْوَلَدُ. فَوَافَقَ عَلَى الزَّوَاجِ مِنْهَا، بَعْدَ أَنْ قَضَتْ عِدَّتَهَا، وَدَخَلَ بِهَا فِي «مَكَّةَ».

وَلَقَدْ كَافَحَ «أَبُو رَافِعٍ» وَ«زَيْدٌ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ فِي رِحْلَتِهِمَا، وَلَقِيَا عَنَتًا وَمَشَقَّةً وَعَذَابًا، فِي الطَّرِيقِ وَفِي «مَكَّةَ»، ثُمَّ اسْتَخْلَصَا آلَ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعَادُوا بِهِمْ إِلَى «الْمَدِينَةِ»، فَاجْتَمَعَ الشَّـــمْلُ وَفَرِحَ الْأَبُ بِابْنَتَيْهِ، وَآوَى إِلَيْهِ زَوْجَتُهُ «سَوْدَةَ بِنْتَ زَمْعَةَ».

❊❊❊

وَيَبْـــدُو أَنَّهُ ﷺ فِي غَمْرَةِ الْأَحْدَاثِ، وَزَحْمَةِ الْعَمَلِ، وَكَثْرَةِ الْمَشَـــاغِلِ، وَتَعَدُّدِ الْمَسْـــؤولِيَّةِ، نَسِيَ مَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ «أَبِي بَكْرٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ مِنْ مُصَاهَرَةٍ، نَسِيَ خِطْبَةَ «عَائِشَةَ» وَعَقْدَهُ عَلَيْهَا فِي «مَكَّةَ».

وَتَفْصِيلُ الْأَمْرِ...

فِي ذَاتِ لَيْلَةٍ، وَهُوَ فِي «مَكَّةَ» جَاءَهُ «جِبْرِيلُ» ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ فِي الرُّؤْيَا، حَامِلًا سَرَقَةً مِنْ حَرِيرٍ عَلَيْهَا صُورَةُ فَتَاةٍ، هِيَ «عَائِشَةُ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ، وَقَالَ لَهُ:

ـ هَذِهِ زَوْجَتُكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

ثُمَّ تَكَرَّرَتِ الرُّؤْيَا.

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ حَدَّثَ «أَبَا بَكْرٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ فِي شَأْنِ الزَّوَاجِ مِنْ «عَائِشَةَ»، فَقَالَ لَهُ «أَبُو بَكْرٍ»:

ـ إِنَّهَا صَغِيرَةٌ يَا رَسُولَ اللهِ، ثُمَّ هِيَ مَخْطُوبَةٌ لِـ «جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ»، وَلَكِنِّي سَأُرْسِلُهَا لَكَ لِتَرَاهَا، وَسَأَجِدُ لِأَمْرِ «جُبَيْرٍ» حَلًّا.

وَجَاءَتْ «عَائِشَةُ»، وَكَانَتْ فَتَاةً صَغِيرَةً لَمْ تَتَجَاوَزِ الْعَاشِرَةَ مِنْ عُمْرِهَا، تَحْمِلُ طَبَقًا فِيهِ تَمْرٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقَالَتْ لَهُ كَمَا عَلَّمَهَا أَبُوهَا:

ـ هَذَا كُلُّ مَا عِنْدَنَا يَا رَسُولَ اللهِ.

فَتَنَاوَلَهُ الرَّسُولُ ﷺ وَقَالَ:

ـ عَلَى بَرَكَةِ اللهِ.

ثُمَّ خَطَبَهَا مِنْ أَبِيهَا، عَلَى أَمَلِ الدُّخُولِ بِهَا فِي وَقْتٍ لَاحِقٍ؛ وَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ كَانَتْ أَحْدَاثٌ وَأَحْدَاثٌ؛ شَغَلَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ ذِكْرَى خُطُوبَتِهِ لِـ «عَائِشَةَ».

فَجَاءَهُ «الصِّدِّيقُ» يَوْمًا عَلَى اسْتِحْيَاءٍ، وَقَالَ:

- أَلَا تُرِيدُ أَنْ تَبْنِيَ بِأَهْلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟!

فَتَذَكَّرَ النَّبِيُّ ﷺ مَا كَانَ مِنْهُ فِي «مَكَّةَ»، وَخِطْبَتِهِ لِـ «عَائِشَةَ»، فَابْتَسَمَ فِي وَجْهِ «أَبِي بَكْرٍ» وَقَالَ:

- بَلَى يَا «أَبَا بَكْرٍ»، وَعَلَى بَرَكَةِ اللهِ.

وَتَمَّ الزَّوَاجُ، وَانْتَقَلَتِ الْفَتَاةُ «عَائِشَةُ» بِنْتُ «أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ» إِلَى مَنْزِلِ الزَّوْجِيَّةِ، وَكَانَتْ مَا تَزَالُ صَغِيرَةً، أَوْ يَغْلِبُ عَلَيْهَا طَابَعُ عَقْلِيَّةِ الطُّفُولَةِ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ ذَكِيَّةً، وَاعِيَةً، حُلْوَةَ الْحَدِيثِ، شَدِيدَةَ الْإِيمَانِ، عَمِيقَةَ الْيَقِينِ.

فَتَعَلَّقَ بِهَا قَلْبُ الْمُصْطَفَى ﷺ، وَأَحَبَّهَا حُبًّا شَدِيدًا، وَأُعْجِبَ بِلُطْفِ مَعْشَرِهَا، وَرِقَّةِ طَبْعِهَا وَحَسَاسِيَّتِهَا، وَغَيْرَتِهَا.

❊❊❊

وَأَيْضًا...

كَانَ هُنَاكَ أَمْرٌ حَيَوِيٌّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُجْتَمَعِ الْجَدِيدِ فِي «الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ» لَا بُدَّ مِنْ مُعَالَجَتِهِ وَوَضْعِهِ فِي الْأَوْلَوِيَّاتِ، بَلْ هُوَ أَسَاسٌ لِكُلِّ بِنَاءٍ أَوْ تَرْكِيبٍ حَدِيثٍ.

إِذْ كَانَ سُكَّانُ «الْمَدِينَةِ» قَبْلَ الْإِسْلَامِ، وَقَبْلَ الْبَيْعَةِ عَلَى ثَلَاثِ شُعَبٍ: «الْخَزْرَجُ» وَهُمْ أَكْثَرُ عَدَدًا، وَ«الْأَوْسُ» وَهُمْ أَقَلُّ نَفِيرًا، وَكَانَ الطَّرَفَانِ عَلَى وَثَنِيَّةٍ جَامِحَةٍ، وَجَاهِلِيَّةٍ شَدِيدَةٍ؛ أَمَّا الشُّعْبَةُ الثَّالِثَةُ فَهُمُ الْيَهُودُ، وَكَانُوا

بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَهْلِ «الْمَدِينَةِ» أَعْظَمَ نُفُوذًا وَأَقْوَى تَأْثِيرًا، بِيَدِهِمُ التِّجَارَةُ وَالصِّنَاعَةُ وَالزِّرَاعَةُ، أَيْ قِوَامُ الْحَيَاةِ الِاقْتِصَادِيَّةِ لِأَيِّ مُجْتَمَعٍ.

وَكَانَ بَيْنَ «الْأَوْسِ» وَ«الْخَزْرَجِ» صِرَاعٌ وَتَنَافُسٌ، وَحُرُوبٌ تَجْرِي فِيهَا الدِّمَاءُ أَنْهَارًا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ، يُذْكِي أُوَارَهَا وَيُوقِدُ لَهِيبَهَا الْيَهُودُ؛ لِأَنَّهُمُ الْمُسْتَفِيدُونَ الْوَحِيدُونَ مِنْ هَذَا الْخِلَافِ.

وَلَقَدْ كَانَ «الْأَوْسُ» وَ«الْخَزْرَجُ» يَنْظُرُونَ إِلَى الْيَهُودِ نَظْرَةَ احْتِرَامٍ وَإِجْلَالٍ؛ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ، وَعِنْدَهُمْ مِنْ عِلْمِ الْأَوَّلِينَ وَأَخْبَارِهِمُ الشَّيْءُ الْكَثِيرُ.

وَنَزَلَ الْمُهَاجِرُونَ مِنْ أَهْلِ «مَكَّةَ» فِي سَاحَةِ «الْمَدِينَةِ» طَرَفًا رَابِعًا، أَوْ شُعْبَةً اجْتِمَاعِيَّةً جَدِيدَةً، فَكَيْفَ يُوَفَّقُ بَيْنَ مَصَالِحِ الْجَمِيعِ؟ وَكَيْفَ يَنْشَأُ الْمُجْتَمَعُ الْجَدِيدُ؟ وَكَيْفَ يَسُودُ الْإِسْلَامُ وَيُهَيْمِنُ؟

لِهَذَا اعْتَمَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْقَائِدُ الرَّائِدُ، وَالْمُعَلِّمُ الْأَرِيبُ، وَالذَّكِيُّ اللَّبِيبُ، اعْتَمَدَ مَبْدَأَ الْأُخُوَّةِ فِي اللهِ...

فَآخَى بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ «مَكَّةَ»، وَبَيْنَ الْأَنْصَارِ مِنْ أَهْلِ «الْمَدِينَةِ»، وَقَضَى عَلَى كُلِّ حَسَاسِيَّةٍ قَبَلِيَّةٍ بَيْنَ «الْأَوْسِ» وَ«الْخَزْرَجِ»، وَكَانَ ﷺ دَائِمَ التَّنْبِيهِ إِلَى ذَلِكَ، يُرَاعِيهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ وَفِي كُلِّ حَدَثٍ طَارِئٍ.

وَبَدَأَ بِنَفْسِهِ لِيَكُونَ الْقُدْوَةَ لِغَيْرِهِ مِنْ أَصْحَابِهِ وَإِخْوَانِهِ، وَسَمَّى كُلَّ أَخَوَيْنِ فِي اللهِ، فَتَنَافَسَ الْأَنْصَارُ فِي حُبِّ إِخْوَانِهِمُ الْمُهَاجِرِينَ تَنَافُسًا لَمْ تَشْهَدْهُ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ، وَلَا شَعْبٌ مِنَ الشُّعُوبِ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ.

كَانَ أَحَدُهُمْ يَتَنَازَلُ لِأَخِيهِ عَنْ نِصْفِ مَالِهِ، وَعَنْ نِصْفِ دَارِهِ، وَيُطَلِّقُ إِحْدَى زَوْجَتَيْهِ لِيَتَزَوَّجَهَا أَخُوهُ فِي الْإِسْلَامِ فِي رِضًا وَقَبُولٍ وَطَوَاعِيَةٍ؛ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ تَعَالَى؛ وَتَوَثَّقَتْ أَوَاصِرُ الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ تَوَثُّقًا بَالِغًا وَمَتِينًا وَقَوِيًّا.

وَبَقِيَ الْيَهُودُ...

أَمَّا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَدْ كَانَ عَالِمًا بِهِمْ، وَبِأَحْوَالِهِمْ، وَعَلَّمَهُ رَبُّهُ الْكَثِيرَ عَنْ تَارِيخِهِمْ، وَأَحْدَاثِهِمْ وَوَقَائِعِهِمْ؛ كَمَا كَانَ ﷺ عَارِفًا بِنَفْسِيَّتِهِمْ، وَمَا جُبِلُوا عَلَيْهِ مِنَ الْخِدَاعِ وَالْمَكْرِ وَالدَّسِيسَةِ وَالْجُبْنِ.

فَلَمْ يَشَأْ أَنْ يُبَادِئَهُمْ بِالْعَدَاوَةِ، وَاعْتَبَرَهُمْ جُزْءًا مِنَ الْمُجْتَمَعِ الْجَدِيدِ، وَلَكِنْ دُونَ سُلْطَانٍ أَوْ نُفُوذٍ؛ فَالسُّلْطَانُ هُوَ لِكِتَابِ اللهِ وَشَرْعِ اللهِ، وَلِلْإِسْلَامِ وَحْدَهُ؛ فَإِنْ هُمْ عَاشُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ فِي تَرَاحُمٍ وَتَوَادٍّ، لَمْ يُعِينُوا عَلَيْهِمْ عَدُوًّا، وَلَمْ يُمَالِئُوا عَلَيْهِمْ غَازِيًا أَوْ مُغِيرًا فَشَأْنُهُمْ فِي الْحَقِّ وَالْوَاجِبِ شَأْنُ كُلِّ مُوَاطِنٍ، أَمَّا إِذَا غَدَرُوا وَفَجَرُوا وَخَادَعُوا، اعْتُبِرُوا حِينَئِذٍ مُحَارِبِينَ، تَقَعُ عَلَيْهِمْ طَائِلَةُ وَمَسْؤُولِيَّةُ مَا اقْتَرَفُوا مِنَ الْإِثْمِ، وَمَا جَنَوْا مِنَ الذَّنْبِ.

وَبِنَاءً عَلَى مَا تَقَدَّمَ، عَاهَدَهُمْ ﷺ وَحَالَفَهُمْ، وَعَقَدَ مَعَهُمْ مِيثَاقًا مَكْتُوبًا، وَقَّعَهُ بِخَاتَمِهِ ﷺ وَوَقَّعُوهُ هُمْ أَيْضًا، وَقَّعَهُ زُعَمَاؤُهُمْ وَرُؤَسَاؤُهُمْ، وَتَعَهَّدُوا بِتَنْفِيذِ بُنُودِهِ وَمَوَادِّهِ؛ وَأَخَذُوا أَنْفُسَهُمْ بِذَلِكَ.

❊❊❊

وَبِهَذَا حَسَمَ ﷺ أَمْرَ الْيَهُودِ وَنُفُوذَهُمْ مِنَ «الْمَدِينَةِ»، وَرَفَعَ عَنْ رِقَابِ «الْأَوْسِ» وَ«الْخَزْرَجِ» سَيْفًا مِنَ التَّهْدِيدِ كَانَ مُسَلَّطًا دَائِمًا عَلَيْهِمْ.

وَلَكِنْ إِلَى أَيِّ مَدًى الْتَزَمَ الْيَهُودُ بِتَنْفِيذِ هَذَا الْمِيثَاقِ؟

لَقَدْ كَانُوا طَوَائِفَ ثَلَاثًا: «بَنِي قُرَيْظَةَ» وَ«بَنِي النَّضِيرِ» وَ«بَنِي قَيْنُقَاعَ»، يَسْكُنُونَ فِي مَنَاطِقَ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ «الْمَدِينَةِ» فِي الضَّوَاحِي، وَيُقِيمُونَ حَوْلَ مَنَازِلِهِمْ حُصُونًا وَأَسْوَارًا مُرْتَفِعَةً مَنِيعَةً.

وَهَالَهُمْ عَلَى مَدَى بَعْضِ السِّنِينَ أَنْ يَفْقِدُوا سُلْطَانَهُمْ وَنُفُوذَهُمُ الْقَدِيمَ، عَلَى «الْأَوْسِ» وَ«الْخَزْرَجِ»، فَكَانَ لِكُلِّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ يَوْمٌ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، حَاوَلُوا فِيهِ أَنْ يَسْتَعِيدُوا مَا فَقَدُوا وَضَيَّعُوا، فَغَدَرُوا وَخَادَعُوا، فَكَانَ جَزَاؤُهُمْ عِقَابًا أَلِيمًا وَعِلَاجًا صَارِمًا حَكِيمًا؛ وَلَسَوْفَ نَعْرِضُ لِكُلِّ يَوْمٍ فِي حِينِهِ ـ بِإِذْنِ اللهِ ـ.

❊❊❊

وَبَعْدَ فَتْرَةٍ مِنِ اسْتِقْرَارِ الْمُسْلِمِينَ الْمُهَاجِرِينَ بِـ«الْمَدِينَةِ»، تَرَامَتْ أَنْبَاءٌ إِلَى إِخْوَانِهِمْ بِـ«الْحَبَشَةِ» عَنِ الْأَوْضَاعِ الْجَدِيدَةِ، فَرَأَى بَعْضُهُمْ أَنْ

يَرْحَلَ مُلْتَحِقًا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَبِالْمُسْلِمِينَ؛ لِيُشَارِكَ فِي إِقَامَةِ الْمُجْتَمَعِ الْجَدِيدِ، وَلِيَنْعَمَ بِالْحَيَاةِ الْمُسْتَقِرَّةِ بَعِيدًا عَنِ الْقَلَقِ، وَيُسْهِمَ فِي مَيْدَانِ الْجِهَادِ لِرَفْعِ رَايَةِ الدِّينِ، وَيُعْلِيَ فِي الْخَافِقَيْنِ كَلِمَةَ الْحَقِّ وَالْيَقِينِ.

فَوَفَدَ «عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ مَعَ زَوْجَتِهِ «رُقَيَّةَ» بِنْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى «الْمَدِينَةِ»، وَجَاءَ مَعَهُ غَيْرُهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَآثَرَ آخَرُونَ الْبَقَاءَ؛ لِارْتِبَاطَاتٍ سَابِقَةٍ، وَلِمَصَالِحَ مُتَعَدِّدَةٍ، أَوْ لِيَسْتَوْثِقُوا مِنْ صِحَّةِ الْأَنْبَاءِ.

وَيَبْدُو أَنَّ جَوَّ «الْحَبَشَةِ» وَمُنَاخَهَا لَمْ يُلَائِمَا صِحَّةَ «رُقَيَّةَ»، فَلَمَّا بَلَغَتِ «الْمَدِينَةَ» كَانَتْ مُرْهَقَةً مُتْعَبَةً، فَلَازَمَتْ فِرَاشَ الْمَرَضِ. وَالْتَفَّ حَوْلَهَا إِخْوَتُهَا: «أُمُّ كُلْثُومٍ» وَ«فَاطِمَةُ» تَرْعَيَانِهَا، وَتَقُومَانِ عَلَى شُئُونِهَا، وَيُعَوِّضْنَهَا حَنَانَ الْأُمِّ الَّتِي فَقَدَتْهَا مُنْذُ أَمَدٍ.

❊❊❊

وَلَقَدْ كَانَ فِي «مَكَّةَ» بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ مِمَّنْ تَأَخَّرُوا فِي الْهِجْرَةِ إِلَى «الْمَدِينَةِ» لِأَسْبَابٍ مُخْتَلِفَةٍ، فَلَقِيَ هَؤُلَاءِ مِنْ عَذَابِ الْمُشْرِكِينَ وَاسْتِبْدَادِهِمْ مَا لَوْ نَزَلَ بِالْجِبَالِ لَهَدَّهَا هَدًّا.

وَخُصُوصًا عِنْدَمَا أَرَادُوا اللُّحُوقَ بِإِخْوَانِهِمْ فِي «يَثْرِبَ»؛ وَمِنْ هَؤُلَاءِ: «صُهَيْبُ بْنُ سِنَانٍ الرُّومِيُّ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ فَقَدْ كَانَ تَاجِرًا نَاجِحًا مُوَفَّقًا، جَمَعَ مِنْ عَمَلِهِ فِي التِّجَارَةِ ثَرْوَةً كَبِيرَةً وَمَالًا كَثِيرًا.

وَلَمَّا هَاجَرَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ «مَكَّةَ» إِلَى «الْمَدِينَةِ» وَتَبِعَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ، كَانَ «صُهَيْبٌ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ فِي وَضْعٍ مَالِيٍّ لَا يُمَكِّنُهُ مِنْ مُغَادَرَةِ «مَكَّةَ»؛ إِذْ عَلَيْهِ تَعَهُّدَاتٌ لِلتُّجَّارِ، وَارْتِبَاطَاتٌ مَعَ النَّاسِ، وَالْأَمَانَةُ تَقْتَضِي أَنْ يُوَفِّيَ الْخَلْقَ حُقُوقَهُمْ.

فَلَمَّا جَهَّزَ نَفْسَهُ لِلرَّحِيلِ، وَأَنْهَى كُلَّ التَّعَهُّدَاتِ، وَوَفَّى بِكُلِّ الْحُقُوقِ وَالِالْتِزَامَاتِ، خَرَجَ مُعْتَمِدًا عَلَى اللهِ مُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ. وَلَمْ يَكَدْ يَبْلُغُ أَطْرَافَ «مَكَّةَ»، حَتَّى اعْتَرَضَهُ نَفَرٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَأَرَادُوا رَدَّهُ إِلَى «مَكَّةَ»، وَحَاوَلُوا جَرَّهُ مَعَهُمْ، إِذِ اعْتَبَرُوهُ فَارًّا بِأَمْوَالِهِمْ، وَكَانَ مِمَّا قَالُوهُ لَهُ مَا مَعْنَاهُ:

ـ لَقَدْ جِئْتَنَا فَقِيرًا، عَبْدًا مَمْلُوكًا، لَا تَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ، وَهَا أَنْتَ الْآنَ فِي بُحْبُوحَةٍ مِنَ الْعَيْشِ، وَالْمَالِ الْوَفِيرِ، وَإِنَّمَا هِيَ أَمْوَالُنَا، وَاللهِ لَنْ نَتْرُكَكَ تُغَادِرُنَا أَبَدًا.

فَفَكَّرَ «صُهَيْبٌ» مَاذَا يَفْعَلُ؟

إِنَّ شَوْقَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ وَإِلَى إِخْوَانِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَعْظَمُ بِكَثِيرٍ مِنْ أَنْ يُقَوَّمَ بِمَالٍ أَوْ مَتَاعٍ.

فَقَالَ لِلْمُعْتَرِضِينَ فِي ثِقَةٍ وَاعْتِزَازٍ:

ـ مَا رَأْيُكُمْ لَوْ تَرَكْتُ لَكُمُ الْمَالَ.. هَلْ تُخَلُّونَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَغْبَتِي؟

فَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ وَقَالُوا:

- نَعَمْ.

عِنْدَئِذٍ تَرَكَ لَهُمْ «صُهَيْبٌ» كُلَّ أَمْوَالِهِ، وَغَادَرَهُمْ غَيْرَ آسِفٍ وَلَا حَزِينٍ، مُتَوَجِّهًا إِلَى «الْمَدِينَةِ».

وَهُنَاكَ اسْتَقْبَلَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِلًا بَعْدَ أَنْ عَرَفَ بِمَا حَدَثَ لَهُ مَعَ مُشْرِكِي «مَكَّةَ»:

- رَبِحَ الْبَيْعُ يَا «أَبَا يَحْيَى»... رَبِحَ الْبَيْعُ.

❊❊❊

وَهَلْ تُنْسَى قِصَّةُ «أُمِّ سَلَمَةَ» - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - حِينَ حِيلَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ زَوْجِهَا، فَتُرِكَ يَذْهَبُ إِلَى «الْمَدِينَةِ»، وَأُعِيدَتْ هِيَ إِلَى «مَكَّةَ»، وَانْتُزِعَ ابْنُهَا «سَلَمَةُ» مِنْ حِجْرِهَا انْتِزَاعًا، فَانْخَلَعَ كَتِفُهُ! ثُمَّ قَضَتْ سَنَةً كَامِلَةً تَبْكِي وَتَنْتَحِبُ، ثُمَّ رَقَّ لَهَا قَلْبُ أَحَدِ النَّاسِ، فَسُرِّحَتْ، وَحَمَلَتِ ابْنَهَا الْمَرِيضَ الْعَلِيلَ، وَارْتَحَلَتْ بِهِ وَحْدَهَا فِي الْبَيْدَاءِ إِلَى أَنْ بَلَغَتِ «الْمَدِينَةَ الْمُنَوَّرَةَ».

❊❊❊

أَصْبَحَتِ «الْمَدِينَةُ» قَاعِدَةً أَمِينَةً، وَحِصْنًا حَصِينًا، وَمُنْطَلَقًا لِتَقْوِيمِ الْمُنْحَرِفِينَ، وَإِرْسَاءِ كَلِمَةِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ فِي أَرْضِ الْعَرَبِ. وَبَدَأَتْ مَرْحَلَةُ «الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ».

الْجِهَادُ مِنْ بَدْرٍ إِلَى أُحُدٍ

قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨ ﴾ (الأَنْفَالُ: 5 - 8).

وَبَدَأَ الْجِهَادُ...

وَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُرْسِلُ السَّرَايَا، فِي أَعْدَادٍ قَلِيلَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، تَضْرِبُ ضَرَبَاتٍ خَاطِفَةً، أَوْ تَسْتَطْلِعُ أَحْوَالَ قُرَيْشٍ وَتَحَرُّكَاتِهَا وَتَتَسَقَّطُ أَخْبَارَهَا، أَوْ تَتَحَرَّشُ بِهَا؛ ثُمَّ تَعُودُ تِلْكَ السَّرَايَا إِلَى «الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ»، مَقَرِّهَا وَمُسْتَوْدَعِهَا؛ مُظَفَّرَةً مُؤَزَّرَةً.

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى ذَلِكَ الْحِينِ، مُنْتَصَفَ الْعَامِ الثَّانِي لِلْهِجْرَةِ، مَا يَزَالُ يُصَلِّي نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَلَمْ يُؤْمَرْ بِتَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ نَحْوَ «الْكَعْبَةِ»، بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ.

وَكَانَ ذَلِكَ مَدْعَاةَ تَقَوُّلٍ مِنَ الْيَهُودِ، وَإِشَاعَاتٍ يُطْلِقُونَهَا، فَيُثِيرُونَ حَفِيظَةَ الْمُسْلِمِينَ، وَمَشَاعِرَ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ، فَكَانَ ﷺ يَخْرُجُ فِي بَعْضِ اللَّيَالِي إِلَى ضَوَاحِي «الْمَدِينَةِ» وَيُحَدِّقُ فِي السَّمَاءِ، فَيَنْظُرُ نَحْوَهَا بِلَهْفَةٍ وَشَوْقٍ، وَكَأَنَّهُ يَسْتَهْدِيهَا الْخُرُوجَ مِنْ مِحْنَةِ النَّفْسِ.

وَفِي لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ، مِنَ الْعَامِ الثَّانِي لِلْهِجْرَةِ، أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى نَبِيِّهِ بِمَا أَثْلَجَ فُؤَادَهُ، وَأَرَاحَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَخْرَسَ أَلْسِنَةَ الْيَهُودِ الْحَاقِدِينَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ (الْبَقَرَةُ: 144).

وَحِينَ أَهَلَّ هِلَالُ رَمَضَانَ مِنْ ذَلِكَ الْعَامِ، عَلِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَنَّ قَافِلَةً لِقُرَيْشٍ مُحَمَّلَةً بِكَثِيرٍ مِنْ عُرُوضِ التِّجَارَةِ وَالْبَضَائِعِ يَقُودُهَا «أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ» هِيَ فِي طَرِيقِ الْعَوْدَةِ مِنَ «الشَّامِ» إِلَى «مَكَّةَ»، فَنَدَبَ الْمُسْلِمِينَ لِاعْتِرَاضِهَا وَمُلَاقَاتِهَا قَائِلًا لَهُمْ:

- لَعَلَّ اللهَ تَعَالَى يُنْفِلُكُمُوهَا (يَجْعَلُهَا غَنِيمَةً لَكُمْ).

وَخَرَجَ ﷺ مِنَ «الْمَدِينَةِ» عَلَى رَأْسِ ثَلَاثِمِئَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ نَفَرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، مَعَهُمْ فَرَسَانِ وَوَاحِدٌ وَسَبْعُونَ بَعِيرًا، كَانُوا يَتَنَاوَبُونَ الرُّكُوبَ عَلَيْهَا.

وَوَصَلَ إِلَى عِلْمِ «أَبِي سُفْيَانَ» أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَدْ خَرَجُوا مِنَ «الْمَدِينَةِ» لِاعْتِرَاضِهِ وَالِاسْتِيلَاءِ عَلَى مَا مَعَهُ مِنَ الْأَمْوَالِ، وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ حِينَئِذٍ مِنَ الْحَرَسِ مَا يَكْفِي لِلْقِتَالِ، فَاحْتَاطَ لِلْأَمْرِ، وَابْتَعَدَ عَنِ الطَّرِيقِ الْمَأْلُوفِ، ثُمَّ أَرْسَلَ رَسُولًا مِنْ عِنْدِهِ يُدْعَى: «ضَمْضَمَ بْنَ عَمْرٍو الْغِفَارِيَّ» إِلَى «مَكَّةَ» لِيُخْبِرَ قُرَيْشًا بِالْخَبَرِ، فَتَتَّخِذَ أُهْبَتَهَا لِنَجْدَتِهِ وَإِغَاثَتِهِ.

وَصَلَ «ضَمْضَمٌ» إِلَى «مَكَّةَ» فَحَوَّلَ رَحْلَهُ وَجَدَعَ أَنْفَ نَاقَتِهِ ـ عَلَامَةَ السُّوءِ ـ ثُمَّ رَاحَ يُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ فِي النَّاسِ:

ـ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ... اللَّطِيمَةَ، اللَّطِيمَةَ.

فَاجْتَمَعُوا عَلَيْهِ، وَعَرَفُوا مِنْهُ الْخَبَرَ، ثُمَّ قَامُوا إِلَى سِلَاحِهِمْ وَعُدَّةِ حَرْبِهِمْ، وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ حَمَاسًا وَانْدِفَاعًا «أَبُو جَهْلٍ» يَسْتَنْهِضُ هِمَمَهُمْ وَيَسْتَحِثُّ الْقَاعِدِينَ مِنْهُمْ عَلَى الْقِتَالِ، حَتَّى اكْتَمَلَ عَدَدُهُمْ أَلْفًا، وَاكْتَمَلَتْ عُدَّتُهُمْ، وَخَرَجُوا مِنْ «مَكَّةَ» فِي حَشْدٍ عَظِيمٍ.

وَصَلَ الْمُسْلِمُونَ فِي سَيْرِهِمْ إِلَى قَرِيبٍ مِنْ «بَدْرٍ»، وَهِيَ قَرْيَةٌ تَقَعُ عَلَى بُعْدِ مِئَةٍ وَخَمْسِينَ كِيلُومِتْرًا مِنَ «الْمَدِينَةِ» بِاتِّجَاهِ السَّاحِلِ الْجَنُوبِيِّ،

وَهُنَـاكَ عَلِمُوا بِأَنَّ عِيرَ «أَبِي سُـفْيَانَ» قَدْ أَفْلَتَتْ مِنْهُمْ، وَبِأَنَّ قُرَيْشًـا قَدْ خَرَجَتْ لِحِمَايَةِ أَمْوَالِهَا وَالدِّفَاعِ عَنْ تِجَارَتِهَا...

فَمَا الْعَمَلُ؟

وَفَكَّرَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ فِي الْأَمْرِ، إِنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ بِالْمُسْلِمِينَ مِنَ «الْمَدِينَةِ»، لِقِتَالٍ أَوْ حَرْبٍ، وَهَا هُمُ الْآنَ فِي مُوَاجَهَةِ مَوْقِفٍ لَمْ يَتَّخِذُوا لَهُ أُهْبَتَهُ الْكَافِيَةَ وَاسْتِعْدَادَهُ التَّامَّ.

وَأَرَادَ ﷺ ـ كَمَا هِيَ عَادَتُـهُ ـ أَنْ لَا يَنْفَرِدَ فِي تَقْرِيرِ أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ. فَقَالَ لِإِخْوَانِهِ:

ـ أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ.

فَقَامَ «أَبُو بَكْرٍ» وَ«عُمَرُ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ فَقَالَا وَأَحْسَنَا الْقَوْلَ، وَأَيَّدَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي مُلَاقَاةِ قُرَيْشٍ.

ثُمَّ قَامَ «الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ وَقَالَ:

ـ وَاللهِ لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ «بَنُو إِسْـرَائِيلَ» لِـ«مُوسَـى»: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ، وَلَكِنَّـا نَقُولُ لَكَ؛ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ.

فَأَشْرَقَ وَجْهُ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَالَ:

ـ أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ.

فَقَالَ «سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ» ـ زَعِيمُ الْأَنْصَارِ ـ:

- لَكَأَنَّكَ تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟!

فَقَالَ ﷺ:

- نَعَمْ.

فَقَالَ «سَعْدٌ»:

- لَقَدْ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ، وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عُهُودَنَا وَمَوَاثِيقَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَامْضِ يَا رَسُولَ اللهِ لِمَا أَرَدْتَ، فَنَحْنُ مَعَكَ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوِ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوَّنَا غَدًا، إِنَّا لَصُبُرٌ فِي الْحَرْبِ، صُدُقٌ عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَلَعَلَّ اللهَ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ، فَسِرْ عَلَى بَرَكَةِ اللهِ.

فَسُرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ:

- سِيرُوا وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّ اللهَ قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَاللهِ لَكَأَنِّي الْآنَ أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ.

وَقِيلَ لِـ «أَبِي جَهْلٍ»:

- يَا «أَبَا الْحَكَمِ». لَقَدْ نَجَتْ أَمْوَالُنَا، وَلَمْ يَسْتَوْلِ عَلَيْهَا «مُحَمَّدٌ» وَأَصْحَابُهُ، فَنَرَى أَنْ نَعُودَ إِلَى «مَكَّةَ»؟

فَقَالَ:

- لَا وَاللهِ.. حَتَّى نَرِدَ مَاءَ بَدْرٍ فَنُقِيمَ عَلَيْهَا، نَنْحَرُ الْجُزُرَ، وَنَسْقِي الْخَمْرَ،

وَتَعْزِفُ عَلَيْنَا الْقِيَانُ (الْمُغَنِّيَاتُ)، وَمَا يَزَالُ الْعَرَبُ يَسْمَعُونَ بِخُرُوجِنَا فَيَهَابُونَنَا.

وَوَصَلَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى «بَدْرٍ»، وَنَزَلُوا بَعِيدًا عَنِ الْمَاءِ، فَقَالَ «الْحُبَابُ ابْنُ الْمُنْذِرِ» ـ أَحَدُ الْأَنْصَارِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم، لِرَسُولِ اللهِ ﷺ:

ـ أَهَذَا مَنْزِلٌ أَنْزَلَكَهُ اللهُ فَلَا تَحِيدُ عَنْهُ، أَمْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَشُورَةُ؟

فَقَالَ ﷺ:

ـ بَلِ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَشُورَةُ.

فَقَالَ «الْحُبَابُ»:

ـ إِذَنْ نَنْزِلُ قَرِيبًا مِنَ الْمَاءِ، وَنُقِيمُ عَلَيْهِ حَوْضًا، فَنَشْرَبُ وَلَا يَشْرَبُونَ.

وَنَهَضَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى قَرِيبٍ مِنَ الْمَاءِ، وَهُنَاكَ أَقَامُوا حَوْضًا عَلَيْهِ، وَلَمَّا وَصَلَتْ قُرَيْشٌ بِقَضِّهَا وَقَضِيضِهَا، فُوجِئَتْ بِالتَّدْبِيرِ الَّذِي حَرَمَهَا مِنَ الْمَاءِ، وَكَانَ الْوَقْتُ صَيْفًا شَدِيدَ الْحَرَارَةِ.

وَبَدَأَتِ الْمُبَارَزَةُ أَوَّلًا.

فَخَرَجَ مِنْ صُفُوفِ الْقُرَشِيِّينَ ثَلَاثَةٌ مِنْ فُرْسَانِهِمْ هُمْ: «عُتْبَةُ وَشَيْبَةُ» ابْنَا «رَبِيعَةَ» وَ«الْوَلِيدُ بْنُ عُتْبَةَ»، وَطَلَبُوا الْبِرَازَ، فَنَزَلَ إِلَى الْمَيْدَانِ ثَلَاثَةٌ مِنْ فِتْيَانِ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ لَهُمُ الْمُشْرِكُونَ:

ـ لَيْسَ بِنَا إِلَيْكُمْ حَاجَةٌ، إِنَّمَا نُرِيدُ أَكْفَاءَنَا مِنْ قَوْمِنَا.

فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَمَّهُ «حَمْزَةَ» وَابْنَيْ عَمِّهِ «عَلِيًّا» وَ«عُبَيْدَةَ» لِمُبَارَزَةِ الْمُشْرِكِينَ.

وَمَا هِيَ إِلَّا جَوْلَاتٌ مَعْدُودَاتٌ حَتَّى كَانَ الْمُشْرِكُونَ الثَّلَاثَةُ صَرْعَى فِي الْأَرْضِ؛ وَبُهِتَ الْآخَرُونَ مِمَّنْ هُمْ وَرَاءَهُمْ.

ثُمَّ إِنَّ وَاحِدًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ يُدْعَى «الْأَسْوَدَ بْنَ عَبْدِ الْأَسَدِ» قَدِ اسْتَبَدَّ بِهِ الْعَطَشُ، فَأَقْسَمَ أَنْ يَشْرَبَ مِنَ الْحَوْضِ أَوْ يَهْدِمَهُ، فَلَمَّا تَقَدَّمَ بَادَرَهُ «حَمْزَةُ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ فَأَصَابَهُ بِضَرْبَةٍ مِنْ سَيْفِهِ فِي رِجْلِهِ، فَعَادَ إِلَى صُفُوفِ الْمُشْرِكِينَ، مَذْمُومًا مَدْحُورًا.

ثُمَّ انْتَظَمَتِ الصُّفُوفُ لِلْقِتَالِ، وَاسْتَعْرَضَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ وَثَبَّتَهُمْ، وَحَرَّضَهُمْ عَلَى الْقِتَالِ، وَشَدَّ مِنْ أَزْرِهِمْ، ثُمَّ أَتَاهُ «سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ فَقَالَ:

ـ يَا نَبِيَّ اللهِ أَلَا نَبْنِي لَكَ عَرِيشًا (خَيْمَةً) تَكُونُ فِيهِ، وَنُعِدُّ عِنْدَكَ رَكَائِبَكَ ثُمَّ نَلْقَى عَدُوَّنَا، فَإِنْ أَعَزَّنَا اللهُ وَأَظْهَرَنَا عَلَى عَدُوِّنَا كَانَ ذَلِكَ مَا أَحْبَبْنَا، وَإِنْ كَانَتِ الْأُخْرَى جَلَسْتَ عَلَى رَكَائِبِكَ، فَلَحِقْتَ بِمَنْ وَرَاءَنَا مِنْ قَوْمِنَا، فَقَدْ تَخَلَّفَ عَنْكَ أَقْوَامٌ مَا نَحْنُ بِأَشَدَّ حُبًّا لَكَ مِنْهُمْ، وَلَوْ ظَنُّوا أَنَّكَ تَلْقَى حَرْبًا مَا تَخَلَّفُوا عَنْكَ، يَمْنَعُكَ اللهُ بِهِمْ، يُنَاصِحُونَكَ وَيُجَاهِدُونَ مَعَكَ.

فَأَثْنَى عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَيْرًا، وَدَعَا لَهُ بِخَيْرٍ، ثُمَّ بُنِيَ لَهُ عَرِيشٌ كَانَ فِيهِ.

ثُمَّ... وَقَفَ النَّبِيُّ ﷺ مُتَوَجِّهًا إِلَى رَبِّهِ، دَاعِيًا يَقُولُ:

- «اللَّهُمَّ هَذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ أَتَتْ بِخَيْلِهَا وَخُيَلَائِهَا، تُرِيدُ أَنْ تُكَذِّبَ رَسُولَكَ، اللَّهُمَّ فَنَصْرَكَ الَّذِي وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ (يَعْنِي الْمُسْلِمِينَ) فَلَنْ تُعْبَدَ فِي الْأَرْضِ».

وَمَا زَالَ يَدْعُو رَبَّهُ، وَ«أَبُو بَكْرٍ» خَلْفَهُ يُسَوِّي لَهُ رِدَاءَهُ عَلَى كَتِفَيْهِ وَيَقُولُ:

- بَعْضَ مُنَاشَدَتِكَ رَبَّكَ يَا رَسُولَ اللهِ.

حَتَّى خَفَقَ خَفْقَةً مِنْ نُعَاسٍ، فَرَأَى مَصَارِعَ الْمُشْرِكِينَ، وَهَزِيمَتَهُمْ فَنَزَلَ يُحَرِّضُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ، وَيُبَشِّرُهُمْ بِالنَّصْرِ.

وَالْتَحَمَ الطَّرَفَانِ...

وَاشْتَدَّ الْقَتْلُ وَالْقِتَالُ، وَأَرْسَلَ اللهُ تَعَالَى جُنْدًا مِنَ السَّمَاءِ مُسَوَّمِينَ يُثَبِّتُونَ الَّذِينَ آمَنُوا، وَيُحَارِبُونَ إِلَى جَانِبِهِمْ.

كَانَ عَدَدُ الْمُسْلِمِينَ قَلِيلًا، لَا يَزِيدُونَ كَثِيرًا عَنِ الثَّلَاثِمِئَةِ، أَمَّا الْمُشْرِكُونَ فَكَانُوا أَلْفًا أَوْ أَقَلَّ قَلِيلًا؛ مُتَفَوِّقِينَ فِي الْعُدَّةِ وَالسِّلَاحِ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَلْبَثُوا أَنْ هُزِمُوا هَزِيمَةً مُنْكَرَةً، وَسَقَطَ فِي مَيْدَانِ الْمَعْرَكَةِ مِنْهُمُ الرُّؤُوسُ وَالزُّعَمَاءُ، مِنْهُمْ «أَبُو جَهْلٍ» وَ«أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ» وَغَيْرُهُمْ...

وَوَقَــعَ عَدَدٌ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فِي الْأَسْــرِ، وَفَرَّ الْبَاقُونَ، وَطَــارَتِ الْأَنْبَاءُ إِلَى «الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ» بِانْتِصَارِ الْمُسْلِمِينَ فِي أَوَّلِ قِتَالٍ مَعَ قُرَيْشٍ.

وَسَــجَّلَ التَّارِيخُ فِي أَنْصَعِ صَفَحَاتِــهِ تَحَوُّلًا كَبِيــرًا وَعَظِيمًا فِي حَيَاةِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

وَعَادَ الْمُسْــلِمُونَ الظَّافِرُونَ إِلَى «الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ» يَتَقَدَّمُهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَاسْتُقْبِلُوا مِنْ إِخْوَانِهِمُ اسْتِقْبَالًا حَافِلًا رَائِعًا.

وَاعْتَمَلَتْ فِي نُفُوسِ الْيَهُودِ مِــنْ أَهْلِ «الْمَدِينَةِ» عَوَامِلُ الْغَيْظِ وَالْحِقْدِ وَالْحَسَــدِ؛ فَقَدْ كَانُوا يَتَمَنَّوْنَ انْتِصَارَ قُرَيْشٍ، وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَــاءُ، وَيُؤَيِّدُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى عَدُوِّهِمْ فَيُصْبِحُونَ ظَاهِرِينَ.

❊❊❊

وَفُرِضَ الْحِجَابُ عَلَى نِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ.

وَحَدَثَ أَنْ جَاءَتِ امْرَأَةٌ مِنْ مُسْلِمِي ضَوَاحِي «الْمَدِينَةِ» تَبِيعُ حُلِيًّا لَهَا فِي سُــوقِ «بَنِي قَيْنُقَاعَ» ـ يَهُودِ الْعَوَالِي، إِحْــدَى ضَوَاحِي «الْمَدِينَةِ» ـ ثُمَّ دَخَلَتْ دُكَّانَ صَائِغٍ تَشْــتَرِي حُلِيًّا، فَرَاوَدَهَا بَعْضُ الْيَهُودِ الَّذِينَ اجْتَمَعُوا حَوْلَهَا كَيْ تَرْفَعَ حِجَابَهَا، اسْتِهْزَاءً بِهَا وَسُخْرِيَةً مِنْهَا، فَأَبَتْ وَاسْتَمْسَكَتْ، ثُمَّ شَدُّوهُ عَنْهَا، فَظَهَرَتْ عَوْرَتُهَا فَاسْتَصْرَخَتْ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْيَهُودِيِّ الَّذِي آذَاهَا فَقَتَلَهُ...

عِنْدَئِذٍ شَـــدَّ الْيَهُودُ عَلَى الْمُسْـــلِمِ فَقَتَلُوهُ، فَنَادَى أَهْلُهُ بِالثَّأْرِ، وَتَحَصَّنَ الْيَهُودُ فِي حُصُونِهِمْ، وَخَرَجَ إِلَيْهِمْ رَسُـــولُ اللهِ ﷺ فِي جُنْدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَحَاصَرَهُمْ.

فَقَالَ يَهُودُ «بَنِي قَيْنُقَاعَ» فِي غُرُورٍ وَكِبْرِيَاءٍ:

ـ يَا «مُحَمَّدُ» لَا تَظُـــنَّ أَنَّكَ بِفَوْزِكَ عَلَى قُرَيْشٍ فِي بَـــدْرٍ، قَدْ أَصْبَحَ الْأَمْرُ الْمُطْلَقَ لَكَ، فَإِنَّكَ قَدْ لَقِيتَ هُنَاكَ أُنَاسًا لَا عِلْمَ لَهُمْ بِالْحَرْبِ، أَمَّا نَحْنُ فَإِنَّنَا أَهْلُ الْحُرُوبِ وَالْحَلْقَةِ (السِّلَاحِ).

فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ، بَلْ حَاصَرَهُمْ طَوَالَ خَمْسَـــةَ عَشَرَ يَوْمًا، حَتَّى أَضْنَاهُمْ وَأَجْهَدَهُمْ، وَلَمْ يَخْرُجُوا مِـــنْ حُصُونِهِمْ لِقِتَالِ الْمُسْـــلِمِينَ جُبْنًا وَخَوْفًا وَذُعْرًا.

ثُمَّ جَاءَهُ كَبِيرُهُمْ «عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ» لِيُفَاوِضَهُ فِي شَأْنِهِمْ، وَحَاوَلَ جَهْدَهُ فِي ذَلِكَ، فَلَمْ يَرْضَ النَّبِيُّ ﷺ، إِلَّا أَنْ يَنْزِلُوا عَلَى حُكْمِهِ.

وَهَكَذَا كَانَ...

❊❊❊

وَتَزَوَّجَ رَسُـــولُ اللهِ ﷺ مِـــنْ «حَفْصَةَ» ـ أُمِّ الْمُؤْمِنِيـــنَ ـ بِنْتِ «عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ وَتَزَوَّجَ «عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ» مِنْ «أُمِّ كُلْثُومٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ، بِنْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وَبَيَـــانُ ذَلِكَ، أَنَّ «رُقَيَّةَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَـــا ـ تَوَفَّاهَا اللهُ، كَمَا أَنَّ «حَفْصَةَ» تَأَيَّمَتْ، فَعَرَضَ «عُمَرُ» عَلَى «عُثْمَـــانَ» أَنْ يُزَوِّجَهُ مِنْ «حَفْصَةَ»، فَلَمْ يَرْضَ

«عُثْمَانُ»، وَجَاءَ «عُمَرُ» إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَفِي وَجْهِهِ غَضَبٌ ظَاهِرٌ، فَسَأَلَهُ عَمَّا بِهِ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَعَ «عُثْمَانَ» فَقَالَ ﷺ:

- يُزَوِّجُ اللهُ «عُثْمَانَ» خَيْرًا مِنِ ابْنَتِكَ، وَيُزَوِّجُ ابْنَتَكَ خَيْرًا مِنْ «عُثْمَانَ».

وَحَضَرَ «عُثْمَانُ» إِلَى بَيْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ دَامِعَ الْعَيْنِ، فَسَأَلَهُ ﷺ عَمَّا بِهِ، فَحَدَّثَهُ «عُثْمَانُ» عَنْ لَوْعَتِهِ عَلَى فَقْدِ «رُقَيَّةَ»، وَأَنَّهُ لَا يَجِدُ خَيْرًا مِنْهَا، فَزَوَّجَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ «أُمِّ كُلْثُومٍ» وَقَالَ:

- لَوْ كُنَّ عَشْرًا لَزَوَّجْتُكَهُنَّ.

فَأَشْرَقَ وَجْهُهُ وَارْتَاحَ فُؤَادُهُ وَاطْمَأَنَّ قَلْبُهُ، وَعَادَ رَاضِيًا مَرْضِيًّا.

وَخَطَبَ ﷺ «حَفْصَةَ» مِنْ «عُمَرَ» وَتَزَوَّجَهَا، وَجَعَلَ لَهَا حُجْرَةً فِي مَسَاكِنِ أَزْوَاجِهِ، فَسُرَّ «عُمَرُ» مِنْ مُصَاهَرَةِ النَّبِيِّ ﷺ لَهُ، وَأَدْرَكَ مَغْزَى قَوْلِ النَّبِيِّ:

- يُزَوِّجُ اللهُ «حَفْصَةَ» خَيْرًا مِنْ «عُثْمَانَ»، وَيُزَوِّجُ «عُثْمَانَ» خَيْرًا مِنْ «حَفْصَةَ».

***

لَمْ تَنْسَ «قُرَيْشٌ» هَزِيمَتَهَا فِي «بَدْرٍ»، وَلَمْ تَسْكُتْ عَلَى فَجِيعَتِهَا فِي زُعَمَائِهَا وَسَادَتِهَا، فَكَانَتْ «هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ» زَوْجَةُ «أَبِي سُفْيَانَ» تُذْكِي فِي نَفْسِ زَوْجِهَا نِيرَانَ الْحِقْدِ وَالثَّأْرِ؛ لِأَنَّ فَجِيعَتَهَا وَمُصِيبَتَهَا أَكْبَرُ الْمَصَائِبِ، فَقَدْ مَاتَ وَالِدُهَا «عُتْبَةُ» وَأَخُوهَا «شَيْبَةُ» عَلَى أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ.

وَأَيْضًا فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْقُرَشِيِّينَ مِمَّنْ فَقَدَ عَزِيزًا يَوْمَ «بَدْرٍ» يَنْتَظِرُ بِفَارِغِ الصَّبْرِ يَوْمًا يَثْأَرُ فِيهِ.

وَدَارَ الْعَامُ دَوْرَتَهُ، وَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ بِقِيَادَةِ «أَبِي سُفْيَانَ»، وَمَعَهُمُ الذَّرَارِيُّ، وَالنِّسَاءُ يَضْرِبْنَ بِالدُّفُوفِ، وَيُنَادِينَ قَائِلِينَ:

وَيْهًا بَنِي عَبْدِ الدَّارِ وَيْهًا حُمَاةَ الْأَدْبَارِ
ضَرْبًا بِكُلِّ بَتَّارِ

وَيَقُلْنَ أَيْضًا:

إِنْ تُقْبِلُوا نُعَانِقْ وَنَفْرِشِ النَّمَارِقْ
أَوْ تُدْبِرُوا نُفَارِقْ فِرَاقَ غَيْرِ وَامِقْ

وَقَصَدُوا إِلَى «الْمَدِينَةِ»، يُرِيدُونَ أَنْ يَثْأَرُوا لِيَوْمِ «بَدْرٍ»، وَيَفْتَحُوا حِصْنَ الْمُسْلِمِينَ الْحَصِينَ، وَيَهْزِمُوهُمْ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ.

عَرَفَ الْمُسْلِمُونَ بِخُرُوجِ قُرَيْشٍ مِنْ «مَكَّةَ»، وَارْتَأَى النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَتَحَصَّنَ بِأَصْحَابِهِ دَاخِلَ «الْمَدِينَةِ»، وَيُضَيِّعَ الْفُرْصَةَ عَلَى قُرَيْشٍ، وَلَكِنَّ بَعْضَ الشَّبَابِ الْمُتَحَمِّسِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبَوْا إِلَّا أَنْ يُوَاجِهُوا قُرَيْشًا فِي ظَاهِرِ «الْمَدِينَةِ»، مَدْفُوعِينَ بِشُحْنَةٍ مِنَ الْحَمَاسِ وَالنَّصْرِ الَّذِي أَتَاهُمْ يَوْمَ «بَدْرٍ»، وَلَمْ يُصْغُوا لِنَصِيحَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَقَامَ ﷺ مِنْ بَيْنِهِمْ، وَسِيمَاءُ الْغَضَبِ فِي وَجْهِهِ، فَلَبِسَ دِرْعَهُ، وَتَقَلَّدَ سَيْفَهُ، وَأَعَدَّ عُدَّتَهُ، وَخَرَجَ إِلَى الْجُمُوعِ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ الَّذِينَ أَكْرَهُوهُ

عَلَى الْخُرُوجِ، مُعْتَذِرِينَ:

- نَنْزِلُ عِنْدَ رَأْيِكَ يَا رَسُولَ اللهِ، وَنَعْتَذِرُ عَمَّا بَدَرَ مِنَّا.

فَقَالَ ﷺ:

- لَيْسَ لِنَبِيٍّ لَبِسَ لَأْمَتَهُ (دِرْعَهُ) لِلْحَرْبِ أَنْ يَخْلَعَهَا.

كَانَتْ قُرَيْشٌ فِي عَدَدٍ جَمٍّ غَفِيرٍ، يَزِيدُ عَلَى ثَلَاثَةِ آلَافِ مُقَاتِلٍ، وَالْمُسْلِمُونَ فِي أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ.

وَعِنْدَ «أُحُدٍ» الْتَقَى الْجَمْعَانِ.

وَكَانَ ﷺ قَدْ رَسَمَ خُطَّةَ الْقِتَالِ؛ فَجَعَلَ عَلَى رَبْوَةٍ مُرْتَفِعَةٍ مَجْمُوعَةً مِنَ الرِّجَالِ رُمَاةِ السِّهَامِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ لَا يَتْرُكُوا أَمَاكِنَهُمْ مَهْمَا تَكُنِ النَّتِيجَةُ، سَوَاءٌ كَانَتْ نَصْرًا أَمْ هَزِيمَةً، فَهُمْ فِي مَوْقِعِ مَنْ يَحْمِي ظُهُورَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمُفَاجَأَةِ.

ثُمَّ تَوَاجَهَ الْفَرِيقَانِ، فَبَرَزَ مِنْ صُفُوفِ الْمُشْرِكِينَ رَجُلٌ يُدْعَى «أَبَا عَامِرٍ الْفَاسِقَ» يُنَادِي لِلْمُبَارَزَةِ وَالْقِتَالِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ الْأَنْصَارُ، وَكَرُّوا... ثُمَّ الْتَحَمَ الْمُتَقَاتِلُونَ مِنَ الطَّرَفَيْنِ، وَقَالَ ﷺ وَقَدْ رَفَعَ سَيْفَهُ بِيَدِهِ:

- مَنْ يَأْخُذُ هَذَا السَّيْفَ بِحَقِّهِ؟

فَقَامَ إِلَيْهِ نَفَرٌ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَرَدَّهُمْ جَمِيعًا وَهُوَ يُكَرِّرُ النِّدَاءَ.

حَتَّى جَاءَهُ «أَبُو دُجَانَةَ» فَارِسُ الْأَنْصَارِ، وَقَالَ:

- وَمَا حَقُّهُ يَا رَسُولَ اللهِ؟

قَالَ:

- أَنْ تَضْرِبَ بِهِ فِي الْعَدُوِّ حَتَّى يَنْثَنِيَ.

فَقَالَ «أَبُو دُجَانَةَ»:

- أَنَا لَهُ يَا رَسُولَ اللهِ.

فَدَفَعَهُ إِلَيْهِ، وَخَاضَ «أَبُو دُجَانَةَ» الْمَعْرَكَةَ وَهُوَ يُرَدِّدُ:

أَنَا الَّـذِي عَـاهَـدَنِي خَـلِيـلِي وَنَحْـنُ بِالسَّفْـحِ لَـدَى النَّخِيلِ

أَنْ لَا أَقُـومَ الدَّهْـرَ فِي الْكُـيُولِ أَضْـرِبْ بِسَيْـفِ اللهِ وَالرَّسُولِ

وَحَمِيَ وَطِيسُ الْقِتَالِ (اشْتَدَّ)، وَأَبْلَى «حَمْزَةُ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أَحْسَنَ الْبَلَاءِ، وَكَذَلِـكَ «الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ» وَ«مُصْعَبُ بْـنُ عُمَيْرٍ»... وَغَيْرُهُمْ وَغَيْرُهُمْ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

ثُمَّ أُصِيبَتْ قُرَيْشٌ بِالْهَزِيمَةِ، وَفَرَّ فُرْسَانُهَا مِنَ الْمَيْدَانِ، وَتَرَكَتْ وَرَاءَهَا الْمَغَانِمَ وَالْأَسْلَابَ...

وَلَمَّا رَأَى رُمَاةُ السِّـهَامِ ذَلِكَ، تَرَكُوا مَكَانَهُمُ الَّذِي أَمَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ لَا يُغَادِرُوهُ وَيَحْمُوا ظُهُورَ الْمُسْـلِمِينَ، وَنَزَلُوا إِلَى أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ يَجْمَعُونَ الْمَتَاعَ وَالْغَنِيمَةَ.

وَهُنَا تَبَدَّلَ مِيزَانُ الْمَعْرَكَةِ، وَتَغَيَّرَ الْمَوْقِفُ؛ إِذْ أَطْبَقَتْ كَوْكَبَةٌ مِنْ فُرْسَانِ قُرَيْشٍ بِقِيَادَةِ «خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ» ـ وَكَانَ مُشْرِكًا ـ عَلَى مُؤَخِّرَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَبَلْبَلَتْ صُفُوفَهُمْ، وَارْتَدَّ الْمُشْرِكُونَ الْهَارِبُونَ إِلَى الْمَيْدَانِ، وَفَرَّ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ، وَسَقَطَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ شُهَدَاءَ.

وَلَجَأَ النَّبِيُّ ﷺ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى الْجَبَلِ، يَحْمُونَ بِهِ ظُهُورَهُمْ، وَثَبَتُوا فِي مَوَاقِعِهِمْ مُدَافِعِينَ غَيْرَ هَيَّابِينَ.

وَسَرَتْ إِشَاعَةُ مَقْتَلِ النَّبِيِّ ﷺ فِي صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ، فَازْدَادُوا هَرَبًا وَخَوْفًا وَهَلَعًا.

ثُمَّ سَقَطَ «حَمْزَةُ» أَسَدُ اللهِ وَرَسُولِهِ صَرِيعًا، مُضَرَّجًا بِدَمِهِ، رَمَاهُ «وَحْشِيُّ بْنُ حَرْبٍ» بِرُمْحٍ اخْتَرَقَ جَسَدَهُ، وَ«وَحْشِيٌّ» هَذَا هُوَ الَّذِي وَعَدَتْهُ «هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ» أَنْ تُطْلِقَ سَرَاحَهُ مِنَ الرِّقِّ، وَأَنْ تُكَافِئَهُ مُكَافَأَةً عَظِيمَةً، إِنْ هُوَ ثَأَرَ لَهَا مِنْ «حَمْزَةَ» قَاتِلِ أَبِيهَا وَأَخِيهَا يَوْمَ «بَدْرٍ».

ثُمَّ أَقْبَلَتْ «هِنْدُ» إِلَى جَسَدِ «حَمْزَةَ» الْمُسَجَّى، فَبَقَرَتْ بَطْنَهُ، وَحَاوَلَتْ أَنْ تَأْكُلَ كَبِدَهُ فَلَمْ تَسْتَسِغْهَا، فَلَفَظَتْهَا، ثُمَّ مَثَّلَتْ بِالْجُثَّةِ الطَّاهِرَةِ!

وَكَانَ الْمَيْدَانُ قَدِ امْتَلَأَ بِجُثَثِ الْقَتْلَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ، عِنْدَئِذٍ انْصَرَفَتْ قُرَيْشٌ عَنِ السَّاحَةِ، وَ«هِنْدُ» تُرَدِّدُ:

نَحْنُ جَزَيْنَاكُمْ بِيَوْمِ بَدْرِ
وَالْحَرْبُ بَعْدَ الْحَرْبِ ذَاتُ سُعْرِ

مَـا كَانَ لِي عَـنْ «عُتْبَـةَ» مِـنْ صَبْـرِ
وَلَا أَخِـــي وَعَـــمِّـــهِ وَبَـكْـــرِ
شَفَـــيْتُ نَفْسِـــي وَقَضَـــيْتُ نَـذْرِي
شَـفَيْتَ وَحْشِـيَّ غَلِيـلَ صَـدْرِي
فَشُـكْرُ «وَحْشِـيٍّ» عَـلَيَّ عُمْـرِي
حَتَّـى تَـرِمَّ أَعْظُـمِي فِي قَـبْرِي

وَوَقَفَ ﷺ دَامِعَ الْعَيْنِ، حَزِينَ النَّفْسِ، كَسِـيرَ الْقَلْبِ، وَهُوَ يَرَى جَسَدَ عَمِّهِ الَّذِي مُثِّلَ بِـهِ، وَكَذَلِكَ جُثَثَ أَصْحَابِهِ السَّـبْعِينَ الَّذِينَ غَصَّتْ بِهِمْ سَاحَةُ الْمَعْرَكَةِ.

ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِمْ، وَأَمَرَ بِدَفْنِهِمْ فِي ثِيَابِهِمْ.

وَلَقَدْ أَرَادَ ﷺ أَنْ يُعْطِيَ الثِّقَةَ مِنْ نَفْسِـهِ بِرَبِّـهِ لِإِخْوَانِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ ثَبَتُـوا مَعَهُ؛ فَانْطَلَقَ فِي جَمْعٍ مِنْهُمْ وَرَاءَ قُرَيْـشٍ يَتَعَقَّبُهَا، حَتَّى بَلَغَ مَوْضِعًا يُسَمَّى «حَمْرَاءَ الْأَسَدِ».

ثُمَّ رَجَعَ إِلَى «الْمَدِينَةِ» الَّتِي كَانَتْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْحَزِينِ وَاجِفَةً وَاجِمَةً، مُظْلِمَةَ الْبُيُوتِ، غَزِيرَةَ الدُّمُوعِ، تَتَعَالَى التَّنَهُّدَاتُ وَالْحَسَرَاتُ مِنْ كُلِّ رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِهَا.

وَلَكِنْ... كَانَتْ «أُحُدٌ» دَرْسًا بَلِيغًا لِلْمُسْلِمِينَ، فَلَا يُكْرِهُونَ نَبِيَّهُمْ عَلَى مَوْقِفٍ، وَلَا يُخَالِفُونَهُ فِي أَمْرٍ.

الْخَنْدَقُ وَإِجْلَاءُ الْيَهُودِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٢﴾ ﴾ (الْحَشْرُ: 1 ، 2).

***

وَبَدَأَتْ جَوْلَـةٌ جَدِيدَةٌ مَعَ يَهُودِ «بَنِـي النَّضِيـرِ» فِي «الْمَدِينَةِ»، جَوْلَةٌ حَاسِمَةٌ كَانُوا هُمُ الْجُنَاةُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِيهَا؛ بِسَبَبِ نَفْسِيَّتِهِمُ الْخَبِيثَةِ الْمَاكِرَةِ الْمَجْبُولَةِ عَلَى الْغَدْرِ وَالْخِدَاعِ.

وَتَفْصِيلُ ذَلِكَ، أَنَّ أَحَدَ الصَّحَابَةِ وَهُوَ «عَمْرو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَتَلَ اثْنَيْنِ مِنْ «بَنِي عَامِرٍ» خَطَأً، وَلَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَاهَدَهُمْ؛ فَاضْطُرَّ ﷺ إِلَى دَفْعِ دِيَتِهِمَا لِأَهْلِهِمَا.

وَلَمَّا كَانَ «بَنُو عَامِرٍ» مُتَحَالِفِينَ مَعَ «بَنِي النَّضِيرِ»، فَقَدْ أَرَادَ ﷺ أَنْ يَأْتِيَ دُورَ «بَنِي النَّضِيرِ»؛ كَيْ يَطْلُبَ إِلَيْهِمُ الْمُسَاهَمَةَ فِي الدِّيَةِ، وَتَسْلِيمَهَا لِأَهْلِ الْقَتِيلَيْنِ.

فَذَهَبَ إِلَيْهِمْ فِي وَفْدٍ مِنْ كِبَارِ الصَّحَابَةِ ـ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ ـ فَاسْتَقْبَلَهُ «بَنُو نَضِيرٍ» وَرَحَّبُوا بِهِ، وَلَمَّا عَرَضَ عَلَيْهِمْ مَا جَاءَ مِنْ أَجْلِهِ، قَالُوا:

ـ عَلَى الرَّحْبِ وَالسَّعَةِ يَا «أَبَا الْقَاسِمِ».

ثُمَّ دَخَلُوا إِلَى أَحَدِ بُيُوتِهِمْ لِيَتَشَاوَرُوا، وَتَرَكُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ مَعَ أَصْحَابِهِ جَالِسِينَ فِي الْخَارِجِ، مُسْنِدِينَ ظُهُورَهُمْ إِلَى جِدَارِ الدَّارِ.

وَقَالَ الْيَهُودُ لِبَعْضِهِمْ:

ـ وَيْحَكُمْ.. لَنْ تَجِدُوا فُرْصَةً أَعْظَمَ مِنْ هَذِهِ الْفُرْصَةِ، إِنَّ «مُحَمَّدًا» فِي قِلَّةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَلَئِنْ غَدَرْنَا بِهِ الْآنَ وَتَخَلَّصْنَا مِنْهُ، فَهِيَ الْغَنِيمَةُ الْكُبْرَى!

ثُمَّ اتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يَقُومَ أَحَدُهُمْ إِلَى سَطْحِ الدَّارِ، ثُمَّ يُلْقِيَ مِنْ أَعْلَاهُ حَجَرًا ضَخْمًا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَيَقْتُلَهُ.

وَبَيْنَمَا هُمْ فِي تَشَاوُرِهِمْ وَائْتِمَارِهِمْ، اسْتَأْذَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ أَصْحَابِهِ وَقَامَ، فَظَنُّوا أَنَّهُ يُرِيدُ قَضَاءَ حَاجَةٍ... فَلَمْ يَهْتَمُّوا لِلْأَمْرِ وَلَمْ يُبَالُوا.

ثُمَّ خَرَجَ الْيَهُودُ مِنْ دَاخِلِ الدَّارِ، وَسَأَلُوا:

ـ أَيْنَ «أَبُو الْقَاسِمِ»؟

فَقَالَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ:

ـ ذَهَبَ لِقَضَاءِ حَاجَتِهِ.

فَلَمَّا طَالَ غِيَابُهُ ﷺ وَلَمْ يَعُدْ، أُسْقِطَ فِي يَدِ الْيَهُودِ الْمُتَآمِرِينَ، وَاسْتَأْذَنَ الصَّحَابَةُ فِي اللُّحُوقِ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ؛ لِأَنَّهُمْ شَغَلَهُمْ أَمْرُ غِيَابِهِ.

وَقَصَدَ الصَّحَابَةُ تَوًّا إِلَى الْمَسْجِدِ، وَهُنَاكَ الْتَقَوْا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَسَأَلُوهُ عَنْ سَبَبِ مُغَادَرَتِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ، فَأَنْبَأَهُمْ بِمَا كَانَ مِنِ ائْتِمَارِ الْيَهُودِ وَنِيَّتِهِمْ فِي قَتْلِهِ، وَأَنَّ اللهَ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ أَنْبَأَهُ بِذَلِكَ، فَقَامَ مُسْرِعًا؛ فَحَمِدَ الصَّحَابَةُ اللهَ عَلَى النَّجَاةِ، وَاسْتَعَدُّوا لِمُعَاقَبَةِ الْيَهُودِ عَلَى غَدْرِهِمْ وَسُوءِ نَوَايَاهُمْ.

ثُمَّ تَجَهَّزَ ﷺ فِي أَصْحَابِهِ وَالْمُسْلِمِينَ، لِلْخُرُوجِ إِلَى دِيَارِ «بَنِي النَّضِيرِ»...، وَلَكِنْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ قَبْلَ ذَلِكَ يُنْذِرُهُمْ أَنْ يَجْلُوا عَنْ جِوَارِهِ وَجِوَارِ الْمُسْلِمِينَ؛ لِأَنَّهُمْ نَقَضُوا الْعَهْدَ بِالتَّآمُرِ عَلَيْهِ لِقَتْلِهِ، وَكَانَ رَسُولُهُ إِلَيْهِمُ الصَّحَابِيَّ الْبَطَلَ «مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ، فَأَبَوْا وَرَفَضُوا وَقَالُوا:

ـ لَنْ نَبْرَحَ أَرْضَنَا وَلَا دِيَارَنَا؛ وَلْيَفْعَلْ «مُحَمَّدٌ» مَا يَشَاءُ!

وَأَرْسَلَ بَعْضُ قَادَةِ الْيَهُودِ وَالْمُشْرِكِينَ إِلَى «بَنِي النَّضِيرِ»، وَإِلَى زَعِيمِهِمْ «حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ» يُثَبِّتُونَهُمْ عَلَى مَوْقِفِهِمْ، وَيَدْعُونَهُمْ إِلَى التَّصَلُّبِ وَالتَّشَدُّدِ، وَيَعِدُونَهُمْ بِالْمُنَاصَرَةِ وَالتَّأْيِيدِ.

فَلَمَّا رَدَّ «بَنُو النَّضِيرِ» عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ هَذَا الرَّدَّ، وَرَفَضُوا الِانْصِيَاعَ لِمَطْلَبِهِ، كَانَ لَا بُدَّ مِنْ تَأْدِيبِهِمْ وَإِجْلَائِهِمْ بِالْقُوَّةِ.

فَخَرَجَ ﷺ بِأَصْحَابِهِ وَقَدْ تَهَيَّئُوا لِلْقِتَالِ، فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَى دِيَارِ «بَنِي النَّضِيرِ» حَاصَرُوهُمْ، وَشَدَّدُوا عَلَيْهِمُ الْحِصَارَ، طِيلَةَ أَيَّامٍ وَلَيَالٍ...

وَالْيَهُودُ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ يَنْتَظِرُونَ الْعَوْنَ وَالْمُسَاعَدَةَ مِمَّنْ وَعَدُوهُمْ بِهَا، وَلَكِنْ لَمْ تَصِلْهُمْ أَيَّةُ نَجْدَةٍ، وَلَمْ يُبَادِرْ أَحَدٌ إِلَى رَدِّ الْمُسْلِمِينَ عَنْهُمْ...

ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَمَرَ بِإِحْرَاقِ نَخِيلِهِمْ وَزُرُوعِهِمْ؛ كَيْ يُجْبِرَهُمْ عَلَى الْمُوَاجَهَةِ أَوِ النُّزُولِ عَلَى رَغْبَتِهِ وَإِرَادَتِهِ...

فَدَبَّ الذُّعْرُ فِي قُلُوبِهِمْ، وَأَصَابَهُمُ الْهَلَعُ الشَّدِيدُ، وَتَخَاذَلُوا عَنِ الِاسْتِمْرَارِ فِي الْعِنَادِ، وَبَدَءُوا يُفَاوِضُونَ النَّبِيَّ ﷺ فِي شُرُوطِ الصُّلْحِ.

وَلَمْ يَقْبَلِ النَّبِيُّ ﷺ مِنْهُمْ طَلَبًا إِلَّا أَنْ يُغَادِرُوا «الْمَدِينَةَ»، وَلَا يَحْمِلُوا مَعَهُمْ إِلَّا الْمَتَاعَ الْقَلِيلَ؛ مِمَّا حَوَتْ مَنَازِلُهُمْ وَدُورُهُمْ.

وَبَدَأَتْ عَمَلِيَّةُ الْجَلَاءِ عَنِ «الْمَدِينَةِ»، فَكَانَ الْيَهُودُ مِنْ «بَنِي النَّضِيرِ» يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ، ثُمَّ يَحْمِلُونَ بَعْضَ أَجْزَائِهَا، مِمَّا يُمْكِنُ حَمْلُهُ عَلَى ظُهُورِ الْجِمَالِ...

وَرَحَلُوا مِنْ ثَمَّ إِلَى «خَيْبَرَ»، وَعَلَى رَأْسِهِمْ «سَلَّامُ بْنُ أَبِي الْحُقَيْقِ»، وَ«حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ»، وَكَانَ هَذَا آخِرَ عَهْدِهِمْ بِـ«الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ».

ثُمَّ إِنَّ هَؤُلَاءِ الزُّعَمَاءَ مِنَ الْيَهُودِ، وَغَيْرِهِمْ، قَصَدُوا إِلَى «مَكَّةَ»، وَاجْتَمَعُوا إِلَى «أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ» وَحَرَّضُوهُ عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَاهَدُوهُ بِأَنْ يَتَحَالَفُوا مَعَهُ، وَوَعَدُوهُ أَنْ يَجْعَلُوا «بَنِي قُرَيْظَةَ» الْيَهُودَ الْبَاقِينَ فِي «الْمَدِينَةِ»، يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ مَعَ «مُحَمَّدٍ» وَالْمُسْلِمِينَ...

فَقَالَ «أَبُو سُفْيَانَ» لَهُمْ:

- أَنْتُمْ أَهْلُ كِتَابٍ، فَهَلْ تَرَوْنَ دِينَنَا خَيْرًا أَمْ دِينَ «مُحَمَّدٍ»؟

فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ:

- بَلْ دِينُكُمْ خَيْرٌ مِنْ دِينِهِ، وَآلِهَتُكُمْ خَيْرٌ مِنْ إِلَهِهِ!!

فَسُرَّ «أَبُو سُفْيَانَ» مِنْ إِجَابَتِهِمْ، وَوَعَدَهُمْ عَلَى تَحْقِيقِ مَطْلَبِهِمْ فِي غَزْوِ «الْمَدِينَةِ»، وَقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ.

وَبَعْدَ أَنْ خَرَجُوا مِنْ «مَكَّةَ» قَصَدُوا «غَطَفَانَ» وَ«أَشْجَعَ» وَ«هَوَازِنَ»، وَحَرَّضُوا هَذِهِ الْقَبَائِلَ عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَذَكَرُوا لَهُمُ اتِّفَاقَهُمْ مَعَ «أَبِي سُفْيَانَ»... وَتَمَّ الِاتِّفَاقُ بَيْنَ «قُرَيْشٍ» وَالْقَبَائِلِ عَلَى غَزْوِ «الْمَدِينَةِ» وَمُحَارَبَةِ الْمُسْلِمِينَ، فَسُمُّوا بِالْأَحْزَابِ.

وَخَرَجُوا فِي جَمْعٍ حَاشِدٍ وَعَسْكَرٍ عَدِيدٍ، لَمْ تَعْرِفْهُ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ مِنْ قَبْلُ، فَبَلَغَ تَعْدَادُهُمْ عَشَرَةَ آلَافِ مُقَاتِلٍ.

وَحِينَ وَصَلَ نَبَأُ «الْأَحْزَابِ» إِلَى «الْمَدِينَةِ» اجْتَمَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَصْحَابِهِ وَتَشَاوَرَ مَعَهُمْ، وَكَانُوا قَدْ تَعَلَّمُوا مِنْ «أُحُدٍ» دَرْسًا لَنْ يَنْسَوْهُ أَبَدًا، وَهُوَ عَدَمُ الْخُرُوجِ مِنَ «الْمَدِينَةِ» إِلَّا مُهَاجِمِينَ، أَمَّا إِذَا هُوجِمُوا، فَيَتَحَصَّنُونَ فِي دَاخِلِهَا مُدَافِعِينَ، وَذَلِكَ أَحْسَنُ وَأَجْدَى.

وَبَرَزَ مِنْ بَيْنِ الصَّحَابَةِ ـ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ ـ «سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ» فَقَالَ: ـ كَانَ أَهْلُ «فَارِسَ» إِذَا هَاجَمَهُمُ الْعَدُوُّ خَنْدَقُوا حَوْلَ مُدُنِهِمْ.

فَاسْتَحْسَنَ النَّبِيُّ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ فِكْرَةَ «سَلْمَانَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ وَشَمَّرُوا عَنْ سَوَاعِدِ الْجِدِّ، وَقَامُوا إِلَى الْعَمَلِ فِي حَفْرِ الْخَنْدَقِ بِنَشَاطٍ وَهِمَّةٍ، وَعَمِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَهُمْ كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ... حَتَّى أَتَمُّوهُ وَأَنْجَزُوهُ.

وَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ النِّسَاءَ وَالذَّرَارِيَّ فِي حُصُونِ «الْمَدِينَةِ»، وَتَرَكَ مَعَهُمْ مَنْ يَحْرُسُهُمْ، وَخَرَجَ بِالْمُسْلِمِينَ إِلَى نَاحِيَةِ الْخَنْدَقِ، وَعَسْكَرُوا هُنَاكَ، وَكَانُوا ثَلَاثَةَ آلَافِ مُقَاتِلٍ؛ وَكَانَ ذَلِكَ فِي شَهْرِ شَوَّالٍ سَنَةَ خَمْسٍ لِلْهِجْرَةِ.

وَصَلَتْ جُمُوعُ الْأَحْزَابِ الْغَفِيرَةُ إِلَى «الْمَدِينَةِ» فَفُوجِئُوا بِالْخَنْدَقِ يَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، فَعَسْكَرُوا فِي الْعُدْوَةِ الثَّانِيَةِ، وَانْتَظَرُوا مَاذَا يَفْعَلُونَ...

وَلَقَدْ حَاوَلَ بَعْضُهُمْ أَنْ يَعْبُرَ الْخَنْدَقَ، فَوَقَعَ فِيهِ وَدُقَّ عُنُقُهُ، ثُمَّ إِنَّ فَارِسًا مِنْهُمْ يُدْعَى «عَمْرَو بْنَ وُدٍّ الْعَامِرِيَّ» غَمَزَ فَرَسَهُ، فَاجْتَازَتْ بِهِ

فُسْحَةَ الْخَنْدَقِ، فَبَرَزَ لَهُ «عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ، فَتَصَاوَلَا كَثِيرًا فِي الْمَيْدَانِ، ثُمَّ إِنَّ «عَلِيًّا» تَمَكَّنَ مِنْ عَدُوِّهِ فَقَتَلَهُ؛ وَكَانَ ذَلِكَ نَذِيرَ شُؤْمٍ عَلَى الْأَحْزَابِ، وَمَنْ لَفَّ لَفَّهُمْ.

وَكَانَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ عُيُونٌ وَأَرْصَادٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، يَعْتَمِدُ عَلَيْهِمْ فِي مُرَاقَبَةِ تَحَرُّكَاتِ الْعَدُوِّ، أَيْنَمَا كَانَ.

وَفِي ذَاتِ لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِي غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ، جَاءَهُ مَنْ يُخْبِرُهُ بِأَنَّ يَهُودَ «بَنِي قُرَيْظَةَ» قَدْ نَقَضُوا عَهْدَهُمْ مَعَهُ، وَحَالَفُوا الْأَحْزَابَ، وَأَنَّهُمْ سَوْفَ يَكُونُونَ رِدْءًا لَهُمْ وَعَوْنًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ!!

فَارْتَاعَ ﷺ وَطَلَبَ إِلَى نَاقِلِ الْخَبَرِ أَنْ يَكْتُمَهُ وَلَا يُذِيعَهُ؛ لِئَلَّا تَضْعُفَ مَعْنَوِيَّاتُ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ نَادَى عَلَى ابْنِ عَمَّتِهِ «الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ» وَطَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَ «الْمَدِينَةَ» وَيَتَعَرَّفَ إِلَى صِحَّةِ مَا نُقِلَ عَنْ يَهُودِ «بَنِي قُرَيْظَةَ» مِنْ نَقْضِ الْعَهْدِ.

فَذَهَبَ «الزُّبَيْرُ» وَفَعَلَ مَا أَمَرَهُ بِهِ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ، ثُمَّ عَادَ إِلَيْهِ بِصِحَّةِ الْخَبَرِ...

وَهُنَا أَدْرَكَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ وَالْمُسْلِمِينَ قَدْ أَصْبَحُوا بَيْنَ عَدُوَّيْنِ، مِنَ الْأَمَامِ وَمِنَ الْخَلْفِ.. الْأَحْزَابِ وَالْيَهُودِ، فَاسْتَلْهَمَ رَبَّهُ الرُّشْدَ وَالْعَوْنَ.

وَكَانَ الْفَصْلُ فَصْلَ شِتَاءٍ، وَبَرْدُ «الْمَدِينَةِ» قَاسٍ وَشَدِيدٌ، وَالْمُسْلِمُونَ فِي مَوْقِعِهِمْ وَمُقَامِهِمْ يَتَعَرَّضُونَ لِشِدَّةِ الطَّبِيعَةِ وَالْخَوْفِ مِنَ الْعَدُوِّ.

فَكَانَتْ تِلْكَ الْأَيَّامُ أَيَّامَ شِدَّةٍ وَمَرَارَةٍ وَجُوعٍ وَخَوْفٍ، فَزُلْزِلَ الْمُسْلِمُونَ زِلْزَالًا شَدِيدًا، وَخَافُوا خَوْفًا عَظِيمًا لَمْ يَعْرِفُوهُ أَبَدًا، حَتَّى قَالَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ:

- مَتَى نَصْرُ اللهِ؟!

وَفِي إِحْدَى خِيَامِ الْعَدُوِّ كَانَ رَجُلٌ يُنَاجِي نَفْسَهُ، اسْمُهُ «نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ»، فَتَقُولُ لَهُ نَفْسُهُ:

- إِلَى مَتَى أَنْتَ عَلَى كُفْرِكَ وَشِرْكِكَ؟ قُمْ فَآمِنْ... وَاعْمَلِ الْخَيْرَ، وَاطْلُبِ الْجَنَّةَ.

فَانْسَلَّ عَلَى مَهَلٍ، وَاجْتَازَ مُخَيَّمَ الْأَحْزَابِ، حَتَّى أَتَى مُعَسْكَرَ الْمُسْلِمِينَ، وَاسْتَأْذَنَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَذِنَ لَهُ، فَدَخَلَ وَأَعْلَنَ الشَّهَادَتَيْنِ، وَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ، وَطَلَبَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنْ يُكَلِّفَهُ بِشَيْءٍ يُدَلِّلُ بِهِ عَلَى صِدْقِهِ وَإِخْلَاصِهِ؛ فَقَالَ لَهُ ﷺ:

- إِنَّمَا أَنْتَ فَذٌّ (فَرْدٌ)، فَادْفَعْ عَنَّا مَا اسْتَطَعْتَ، الْحَرْبُ خُدْعَةٌ.

فَقَامَ «نُعَيْمٌ» مِنْ فَوْرِهِ وَبَدَأَ الْعَمَلَ.

ذَهَبَ أَوَّلًا إِلَى يَهُودِ «بَنِي قُرَيْظَةَ»، فَطَرَقَ بَابَ زَعِيمِهِمْ وَدَخَلَ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ:

- هَلْ أَنَا بِمُتَّهَمٍ عِنْدَكُمْ؟

فَقَالَ:

- كَلَّا.. مَعَاذَ اللهِ... أَنْتَ يَا «نُعَيْمُ» نَدِيمُنَا وَصَدِيقُنَا الصَّدُوقُ.

فَقَالَ «نُعَيْمٌ»:

- إِنِّي لَفِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِكُمْ؟

فَقَالَ:

- كَيْفَ؟

قَالَ «نُعَيْمٌ»:

- مَاذَا لَوِ انْصَرَفَتْ عَنْكُمْ قُرَيْشٌ وَحُلَفَاؤُهَا؟ كَيْفَ يَكُونُ مَوْقِفُكُمْ مِنْ «مُحَمَّدٍ» وَأَصْحَابِهِ؟

قَالَ:

- وَمَاذَا نَفْعَلُ؟

قَالَ «نُعَيْمٌ»:

- تَأْخُذُونَ مِنْ أَبْنَاءِ الْأَحْزَابِ عَشَرَةَ رَهَائِنَ، تَجْعَلُونَهُمْ عِنْدَكُمْ حَتَّى يَتِمَّ الْأَمْرُ.

فَقَالَ:

- صَدَقْتَ، وَبَارَكَ اللهُ فِيكَ.

ثُمَّ خَرَجَ «نُعَيْمٌ» تَوًّا إِلَى مُعَسْكَرِ الْأَحْزَابِ، وَكَانَ الْهَزِيعُ الْأَخِيرُ مِنَ اللَّيْلِ قَدْ حَلَّ، فَجَاءَ إِلَى خَيْمَةِ «أَبِي سُفْيَانَ»، وَطَلَبَ اللِّقَاءَ بِهِ فَوْرًا لِأَمْرٍ مُهِمٍّ وَعَاجِلٍ!!

وَحِينَ ضَمَّهُمَا الْمَجْلِسُ، قَالَ «نُعَيْمٌ»:

- هَلْ أَنَا بِمُتَّهَمٍ عِنْدَكَ يَا «أَبَا سُفْيَانَ»؟

قَالَ «أَبُو سُفْيَانَ»:

- كَلَّا... وَهَاتِ مَا عِنْدَكَ مِنَ الْأَمْرِ الْعَاجِلِ.

قَالَ «نُعَيْمٌ»:

- لَقَدْ جِئْتُ الْآنَ تَوًّا مِنْ دِيَارِ «بَنِي قُرَيْظَةَ»، وَأَنْتَ تَعْرِفُ مُنَادَمَتِي وَصُحْبَتِي لَهُمْ، وَلَقَدْ عَلِمْتُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ قَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا كَانَ مِنْ نَقْضِهِمْ عَهْدَهُمْ مَعَ «مُحَمَّدٍ»، وَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ يَسْتَغْفِرُونَهُ، وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّهُمْ سَوْفَ يَطْلُبُونَ مِنْكُمْ عَشْرَ رَهَائِنَ يُسَلِّمُونَهَا إِلَيْهِ؛ لِيَذْبَحَهَا تَدْلِيلًا عَلَى إِخْلَاصِهِمْ؛ وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَتَأَكَّدَ مِنْ صِحَّةِ قَوْلِي، فَاطْلُبْ إِلَيْهِمْ أَنْ يَسْتَعِدُّوا لِلْقِتَالِ غَدًا... (وَكَانَ الْحَدِيثُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ لَيْلَةَ السَّبْتِ، وَالْيَهُودُ لَا يُقَاتِلُونَ فِي السَّبْتِ).

فَاهْتَزَّ «أَبُو سُفْيَانَ» لِلنَّبَإِ، وَبَادَرَ إِلَى إِيقَاظِ زُعَمَاءِ الْأَحْزَابِ لِلتَّشَاوُرِ، ثُمَّ رَأَوْا أَنْ يُرْسِلُوا إِلَى الْيَهُودِ يَطْلُبُونَ إِلَيْهِمْ أَنْ يَسْتَعِدُّوا لِلْقِتَالِ فِي الْيَوْمِ التَّالِي، وَمَا سَيَكُونُ الرَّدُّ...

وَكَمَا أَوْحَى «نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ» لِلْيَهُودِ فَعَلُوا، فَطَلَبُوا إِلَى رَسُولِ الْأَحْزَابِ، أَنْ يُرْسِلُوا إِلَيْهِمْ عَشْرَ رَهَائِنَ يَكُونُونَ عِنْدَهُمْ ضَمَانًا لِاسْتِمْرَارِ الْأَحْزَابِ فِي حِصَارِ الْمُسْلِمِينَ وَقِتَالِهِمْ، كَمَا قَالُوا لَهُ: إِنَّهُمْ لَا يُقَاتِلُونَ فِي السَّبْتِ...

عِنْدَئِذٍ أَيْقَنَ «أَبُو سُفْيَانَ» بِصِدْقِ «نُعَيْمٍ»، وَأَنْ لَا فَائِدَةَ مِنَ الْبَقَاءِ فِي تِلْكَ الدِّيَارِ، فَقَرَّرَ الرَّحِيلَ، وَوَقَفَ يُعْلِنُ عَلَى الْأَحْزَابِ عَزْمَهُ عَلَى الْمَسِيرِ إِلَى «مَكَّةَ»...

وَتَخَاذَلَتِ الْأَحْزَابُ، وَتَقَطَّعَ مَا بَيْنَهُمْ مِنْ أَوَاصِرِ التَّعَاوُنِ وَالتَّرَابُطِ...

وَهَبَّتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، اقْتَلَعَتِ الْخِيَامَ، وَأَكْفَأَتِ (قَلَبَتْ) الْقُدُورَ، وَأَطْفَأَتِ النِّيرَانَ، وَوَلَّى جَمْعُ الْمُشْرِكِينَ الدُّبُرَ.

وَمَعَ الصَّبَاحِ اسْتَيْقَظَ الْمُسْلِمُونَ، وَلَمْ يَكُونُوا لِيَنَامُوا أَبَدًا... فَرَأَوْا مُعَسْكَرَ الْمُشْرِكِينَ أَرْضًا بَلْقَعًا يَنْفِرُ النَّاسُ مِنْهَا، وَيَرْتَحِلُونَ عَنْهَا، وَلَمْ يَحِنْ وَقْتُ الظُّهْرِ حَتَّى كَانَ الْمُعَسْكَرُ بِأَكْمَلِهِ أَرْضًا قَفْرًا!!

وَتَنَفَّسَ الْمُسْلِمُونَ الصُّعَدَاءَ، وَشَكَرُوا اللهَ ـ تعالى ـ عَلَى فَضْلِهِ، ثُمَّ نَادَى مُنَادِي الرَّسُولِ ﷺ بِالْعَوْدَةِ إِلَى «الْمَدِينَةِ».

وَقُرِعَ بَابُ الْمُصْطَفَى ﷺ، فَإِذَا بِـ«جِبْرِيلَ» الْأَمِينِ عَلَى هَيْئَةِ «دِحْيَةَ الْكَلْبِيِّ» ـ أَحَدِ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ ـ يَطْلُبُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَخْرُجَ

بِالْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ فِي الْخَنْدَقِ لِتَأْدِيبِ «بَنِي قُرَيْظَةَ»، وَأَنَّهُ ـ أَيْ «جِبْرِيلَ» ـ سَيَسْبِقُهُ إِلَيْهِمْ فِي جَيْشٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ.

فَابْتَعَثَ ﷺ مُؤَذِّنَهُ فِي أَحْيَاءِ «الْمَدِينَةِ» يَقُولُ:

ـ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلَا يُصَلِّيَنَّ الْعَصْرَ إِلَّا فِي «بَنِي قُرَيْظَةَ».

فَلَمَّا وَصَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى حُصُونِ «بَنِي قُرَيْظَةَ»، تَلَقَّاهُ «عَلِيٌّ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ، وَأَرَادَ أَنْ يُؤَخِّرَهُ قَلِيلًا؛ حَتَّى لَا يَسْمَعَ مَا يُؤْذِيهِ مِنْ كَلَامِ «الْيَهُودِ»، فَقَالَ لَهُ ﷺ:

ـ دَعْنِي آتِهِمْ، فَإِنَّهُمْ إِنْ رَأَوْنِي سَكَتُوا وَخَرِسُوا.

ثُمَّ تَقَدَّمَ ﷺ وَنَادَاهُمْ قَائِلًا:

ـ أَجِيبُوا يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، يَا إِخْوَةَ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ، قَدْ نَزَلَ بِكُمْ خِزْيُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

ثُمَّ حَاصَرَهُمْ حِصَارًا شَدِيدًا، حَتَّى أُجْهِدُوا وَشَعَرُوا بِالضَّنْكِ، فَطَلَبُوا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنْ يُرْسِلَ إِلَيْهِمْ «أَبَا لُبَابَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُنْذِرِ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ لِيُفَاوِضُوهُ وَيَسْتَشِيرُوهُ، فَأَرْسَلَهُ إِلَيْهِمْ، فَقَالُوا لَهُ:

ـ مَاذَا تَرَى يَا «أَبَا لُبَابَةَ»؟

فَقَالَ:

- النُّزُولَ عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَإِلَّا (وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى عُنُقِهِ يَعْنِي الذَّبْحَ).

ثُمَّ اسْتَدْرَكَ أَنَّهُ قَدْ قَدَّمَ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ، فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِمْ نَادِمًا عَلَى مَا فَعَلَ، وَذَهَبَ تَوًّا إِلَى الْمَسْجِدِ، وَرَبَطَ نَفْسَهُ بِإِحْدَى سَوَارِيهِ، وَحَلَفَ أَنْ لَا يَفُكَّ قَيْدَهُ حَتَّى يُبْرِئَهُ اللهُ تَعَالَى وَيَرْضَى عَنْهُ الرَّسُولُ.

وَاسْتَمَرَّ الْحِصَارُ عَلَى «بَنِي قُرَيْظَةَ»، فَأَرْسَلُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَطْلُبُونَ حَكَمًا بَيْنَهُمْ فِي الِاسْتِسْلَامِ، وَقَدْ رَفَضُوا أَنْ يُذْعِنُوا لِرَأْيِ زَعِيمِهِمْ «كَعْبِ بْنِ أَسَدٍ» فِي مُتَابَعَةِ النَّبِيِّ ﷺ، أَوِ الْقِتَالِ.

فَاخْتَارَ ﷺ «سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ»، فَوَافَقُوا عَلَيْهِ، وَكَانَ «سَعْدٌ» - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - مَرِيضًا بِسَبَبِ جُرْحٍ أَصَابَهُ يَوْمَ «الْخَنْدَقِ»، فَحُمِلَ عَلَى سَرِيرٍ حَتَّى جِيءَ بِهِ إِلَى مُعَسْكَرِ الْمُسْلِمِينَ، وَحِينَ طُلِبَ إِلَيْهِ أَنْ يَنْطِقَ بِمَا يَرَاهُ مِنْ رَأْيٍ فِي الْيَهُودِ، قَالَ:

- تُقْتَلُ الْمُقَاتِلَةُ، وَتُسْبَى الذُّرِّيَّةُ وَالنِّسَاءُ، وَتُقَسَّمُ الْأَمْوَالُ.

فَحَزِنَ الْيَهُودُ، وَظَنُّوا أَنَّ «سَعْدًا» سَوْفَ يَكُونُ إِلَى جَانِبِهِمْ مِنْ دُونِ اللهِ، فَخَابَ تَقْدِيرُهُمْ، وَلَمْ يَجِدُوا بُدًّا مِنَ الْخُضُوعِ وَالِاسْتِسْلَامِ...

وَهَذَا كَانَ آخِرَ عَهْدِ الْيَهُودِ بِـ«الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ»، فَقَدْ نَظَّفَهَا اللهُ تَعَالَى مِنْ رِجْسِهِمْ وَخُبْثِهِمْ وَمَكْرِهِمْ؛ وَجَعَلَهَا نَقِيَّةً نَظِيفَةً نَيِّرَةً بِنُورِ الْمُصْطَفَى ﷺ.

وَنَعُودُ إِلَى «أَبِي لُبَابَةَ» الَّذِي رَبَطَ نَفْسَهُ بِسَارِيَةِ الْمَسْجِدِ، وَامْتَنَعَ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْكَلَامِ؛ تَكْفِيرًا لِمَا اعْتَقَدَهُ ذَنْبًا وَخَطِيئَةً فِي حَقِّ الرَّسُولِ وَالْمُسْلِمِينَ...

ظَلَّ «أَبُو لُبَابَةَ» بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً عَلَى هَذِهِ الْحَالِ، حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى قَوْلَهُ:

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (التَّوْبَةُ: 102).

وَحَمَلَتْ إِلَيْهِ الْبُشْرَى «أُمُّ سَلَمَةَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ بُشْرَى التَّوْبَةِ وَالْبَرَاءَةِ، ثُمَّ أَرَادَ النَّاسُ أَنْ يَحُلُّوهُ مِنْ قَيْدِهِ، فَأَبَى، حَتَّى جَاءَه رَسُولُ اللهُ ﷺ وَحَلَّهُ.

بَيْنَ الْحُدَيْبِيَةِ وَخَيْبَرَ

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«يَا وَيْحَ قُرَيْشٍ قَدْ أَكَلَتْهُمُ الْحَرْبُ!!!

فَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ الْعَرَبِ، فَإِنْ هُمْ أَصَابُونِي كَانَ ذَلِكَ الَّذِي أَرَادُوا.

وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللهُ عَلَيْهِمْ، دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَافِرِينَ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوَّةٌ.

فَمَا تَظُنُّ قُرَيْشٌ؟!

فَوَاللهِ لَا أَزَالُ أُجَاهِدُ عَلَى هَذَا الَّذِي بَعَثَنِي اللهُ بِهِ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ أَوْ تَنْفَرِدَ هَذِهِ السَّالِفَةُ».

❊❊❊

«أُمُّ حَبِيبَــةَ» ـ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ ـ (رَمْلَةُ بِنْتُ أَبِي سُــفْيَانَ) ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ اسْمٌ كَرِيمٌ، لَهُ مَوْقِفٌ عَظِيمٌ، سَوْفَ يَأْتِي ذِكْرُهُ فِي حِينِهِ.

كَانَ زَوَاجُ النَّبِــيِّ ﷺ بِهَــا بَعْدَ «الْخَنْدَقِ» وَ«بَنِي قُرَيْظَــةَ»، وَهُوَ جَدِيرٌ بِالذِّكْرِ.

كَانَتْ مُتَزَوِّجَةً مِنْ «عُبَيْدِ اللهِ بْنِ جَحْشٍ»، وَكَانَ مِمَّنْ أَسْلَمُوا مُبَكِّرِينَ، ثُمَّ هَاجَرَ بِهَا إِلَى «الْحَبَشَةِ»، وَهُنَاكَ ارْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ وَأَكَبَّ عَلَى الشَّرَابِ، يَعُبُّ مِنَ الْخَمْــرِ، حَتَّى مَاتَ! وَكَانَــتْ «أُمُّ حَبِيبَةَ» قَــدْ فَارَقَتْهُ مِنْ حِينِ ارْتِدَادِهِ، وَلَقَدْ حَاوَلَتْ كَثِيرًا أَنْ تَهْدِيَهُ سَوَاءَ السَّبِيلِ، فَكَانَ يَسْخَرُ مِنْهَا وَمِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَيَهْزَأُ مِنْ دِينِهِمْ.

تَأَيَّمَتْ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ وَهِيَ فِي بِلَادِ الْغُرْبَةِ، بَعِيدًا عَنِ الْأَهْلِ وَالْوَطَنِ، وَبَعِيدًا عَنِ الْأَحْبَابِ وَالْأَصْحَابِ؛ وَلَقَدْ قَدَّرَ الْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ مَعَهَا مَوْقِفَهَا وَشَخْصِيَّتَهَا وَعُمْقَ إِيمَانِهَا، فَأَكْرَمُوهَا وَأَحَاطُوهَا بِالرِّعَايَةِ وَالْعِنَايَةِ، وَكَانُوا لَهَا نِعْمَ الْإِخْوَةُ وَنِعْمَ الْأَهْلُ.

وَبَلَغَ رَسُــولَ اللهِ ﷺ فِي «الْمَدِينَةِ» مَا كَانَ مِنْ شَأْنِ «أُمِّ حَبِيبَةَ» وَصَلَابَةِ دِينِهَا، فَأَرَادَ أَنْ يُكْرِمَهَا، وَتِلْكَ عَادَةٌ مَشْــهُورَةٌ عِنْدَ الْعَرَبِ، فَأَرْسَلَ رَسُولًا مِنْ عِنْدِهِ هُوَ «عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ» إِلَى «أَصْحَمَةَ النَّجَاشِــيِّ» يُوَكِّلُهُ فِي خِطْبَةِ «أُمِّ حَبِيبَةَ» لَهُ ﷺ.

وَبَيْنَمَا كَانَتْ «أُمُّ حَبِيبَةَ» جَالِسَةً فِي مُقَامِهَا، جَاءَتْهَا خَادِمَةٌ مِنْ عِنْدِ «النَّجَاشِيِّ» تَسْتَدْعِيهَا، فَلَمَّا سَأَلَتْهَا عَنِ السَّبَبِ، أَخْبَرَتْهَا أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْعَرَبِ، جَاءَ مِنْ عِنْدِ «مُحَمَّدٍ» خَاطِبًا إِيَّاهَا لِلنَّبِيِّ، وَقَدْ تَوَلَّى أَمْرَ ذَلِكَ «النَّجَاشِيُّ» ـ الْمَلِكُ ـ، فَفَرِحَتْ «أُمُّ حَبِيبَةَ» ثُمَّ خَلَعَتْ مِنْ رَقَبَتِهَا قِلَادَتَهَا، وَمِنْ سَاعِدَيْهَا أَسَاوِرَهَا، وَمَنَحَتْهَا لِلْخَادِمَةِ؛ مُكَافَأَةً لَهَا عَلَى بُشْرَاهَا.

ثُمَّ أَتَتْ إِلَى مَجْلِسِ الْمَلِكِ «النَّجَاشِيِّ»، وَتَمَّتْ مَرَاسِمُ الزَّوَاجِ، فَكَانَ «أَصْحَمَةُ» وَكِيلًا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَ«خَالِدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ» وَكِيلًا لِـ«أُمِّ حَبِيبَةَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ.

وَدَفَعَ «النَّجَاشِيُّ» الْمَهْرَ، وَأَقَامَ وَلِيمَةً دَعَا إِلَيْهَا الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ تَجَهَّزَتْ «أُمُّ حَبِيبَةَ» وَخَرَجَتْ مَعَ «عَمْرِو بْنِ أُمَيَّةَ» حَتَّى وَافَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي «الْمَدِينَةِ»؛ فَأَعْرَسَ بِهَا، وَكَانَتْ نِعْمَ الزَّوْجَةُ الصَّالِحَةُ الْمُؤْمِنَةُ.

❊❊❊

فِي أَوَاخِرِ ذَلِكَ الْعَامِ، رَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ رُؤْيَا، رَأَى نَفْسَهُ مُحْرِمًا دَاخِلَ بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ، مُلَبِّيًا بِعُمْرَةٍ.

فَدَعَا الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ «الْمَدِينَةِ» لِأَدَاءِ الْعُمْرَةِ، كَمَا دَعَا مَنْ تَبِعَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ يُحِيطُونَ بِهَا، أَوْ قَرِيبِينَ مِنْهَا لِيُوَافُوهُ فِي رِحْلَتِهِ الْمُقَدَّسَةِ، لِأَدَاءِ مَنْسَكٍ دِينِيٍّ عَظِيمٍ.

لَكِنَّ عَـدَدَ الَّذِينَ اسْـتَجَابُوا كَانَ قَلِيـلًا، فَخَرَجَ ﷺ فِي سَـبْعِمِئَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَسَاقَ أَمَامَهُ الْهَدْيَ؛ سَبْعِينَ بَدَنَةً، عَنْ كُلِّ عَشْرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بَدَنَةٌ وَاحِدَةٌ.

وَكَانَ خُرُوجُهُ ﷺ فِي أَوَاخِرِ شَهْرِ ذِي الْقَعْدَةِ عَامَ سِتٍّ لِلْهِجْرَةِ.

سَـمِعَتْ قُرَيْشٌ بِنَبَإِ انْطِلَاقِ الْمُسْـلِمِينَ مِنَ «الْمَدِينَةِ» وَعَلَى رَأْسِـهِمْ رَسُـولُ اللهِ ﷺ، فَثَارَتْ وَهَاجَتْ وَمَاجَتْ، وَأَرْغَتْ وَأَزْبَدَتْ، وَاسْتَعَدَّتْ لِلِّقَاءِ، ظَنًّا مِنْهَا أَنَّهُ ﷺ قَدْ جَاءَ يُهَاجِمُهَا فِي عُقْرِ دَارِهَا.

وَأَرْسَـلَ النَّبِيُّ ﷺ مَنْ يُخْبِرُ قُرَيْشًا أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ لِحَرْبٍ أَوْ قِتَالٍ، وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ إِحْرَامُهُ مَعَ أَصْحَابِهِ، وَهَذِهِ الْبُدْنُ الَّتِي يَسُـوقُهَا أَمَامَهُ، وَإِنَّمَا جَاءَ مُعَظِّمًا لِلْبَيْتِ، مُقَدِّسًا لِلْكَعْبَةِ.

لَكِنَّ قُرَيْشًا لَمْ تَسْتَسِغْ ذَلِكَ، وَلَمْ تَتَقَبَّلْهُ، وَقَالَتْ:

- لَنْ يَدْخُلَهَا (أَيْ مَكَّةَ) عَلَيْنَا عَنْوَةً (قَهْرًا).

وَعَادَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يُخْبِرُهُ مَا أَبْلَغَتْهُ قُرَيْشٌ، وَيَقُولُ:

- إِنَّهُمْ (أَيِ الْقُرَشِـيِّينَ) قَدْ خَرَجُوا مِنْ «مَكَّةَ» وَمَعَهُـمُ الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ (الإِبِلُ مَعَهَا أَوْلَادُهَا)، وَقَدْ لَبِسُـوا جُلُودَ النُّمُورِ اسْتِعْدَادًا لِلْقِتَالِ، وَإِنَّ فُرْسَـانَهُمْ بِقِيَادَةِ «خَالِدِ ابْنِ الْوَلِيدِ» ـ وَكَانَ لَا يَزَالُ مُشْرِكًا ـ قَدْ خَرَجُوا لِصَدِّهِ وَاعْتِرَاضِهِ؛ كَطَلِيعَةٍ عَسْكَرِيَّةٍ لِقُوَّاتِهِمْ.

فَقَالَ ﷺ:

- يَــا وَيْحَ قُرَيْشٍ.. قَدْ أَكَلَتْهُمُ الْحَرْبُ، فَمَــاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ الْعَرَبِ، فَإِنْ هُمْ أَصَابُونِي كَانَ ذَلِكَ الَّذِي أَرَادُوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْــلَامِ وَافِرِينَ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوَّةٌ. فَمَا تَظُنُّ قُرَيْشٌ؟!! فَوَاللهِ لَا أَزَالُ أُجَاهِدُ عَــلَى هَذَا الَّذِي بَعَثَنِي اللهُ بِهِ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ، أَوْ تَنْفَرِدَ هَذِهِ السَّالِفَةُ.

ثُمَّ قَالَ ﷺ لِأَصْحَابِهِ:

- هَلْ مِنْ رَجُلٍ يَدُلُّنَا عَلَى غَيْرِ هَذَا الطَّرِيقِ؟

فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ قَبِيلَةِ «أَسْلَمَ»:

- أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ.

ثُمَّ سَــارُوا جَمِيعًا فِي طَرِيقٍ وَعْــرٍ كَثِيرِ الصُّخُــورِ وَالْحِجَارَةِ، صَعْبِ الْمَسَالِكِ، قَلِيلِ الظِّلِّ، فَأُجْهِدُوا فِيهِ حَتَّى قَارَبُوا الْهَلَاكَ.

وَكَانَ الْغَــرَضُ مِنْ ذَلِكَ هُوَ تَضْلِيلَ فُرْسَــانِ قُرَيْشٍ بِقِيَــادَةِ «خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ»، وَإِبْعَادَهُمْ عَنْ مُرَافَقَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَمُلَازَمَتِهِمْ.

فَلَمَّا رَأَى «خَالِدٌ» مَا صَنَعَ الْمُسْــلِمُونَ، ظَنَّ أَنَّهُــمْ إِنَّمَا يُرِيدُونَ مُبَاغَتَةَ قُرَيْشٍ فِي «مَكَّةَ» فَبَادَرَ مَعَ فُرْسَانِهِ إِلَيْهَا لِيُنَبِّهَ النَّاسَ قَبْلَ فَوَاتِ الْأَوَانِ.

أَمَّا الْمُسْلِمُونَ فَقَدِ اسْتَمَرُّوا فِي سَــيْرِهِمْ، حَتَّى وَصَلُوا إِلَى سَهْلٍ رَحْبٍ عِنْدَ مَمَرِّ الْحُدَيْبِيَةِ فِي الطَّرِيقِ إِلَى «مَكَّةَ».

فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِالنُّزُولِ هُنَاكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ:

ـ لَيْسَ هَذَا الْمَكَانُ بِذِي مَاءٍ يَا رَسُولَ اللهِ!

فَأَعْطَى ﷺ قَائِدَ الْبُدْنِ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَغْرِزَهُ فِي أَحَدِ الْآبَارِ هُنَاكَ، وَكَانَ اسْمُ الرَّجُلِ «نَاجِيَةَ»، وَفَارَ الْمَاءُ وَفَاضَ، وَفَرِحَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ، فَشَرِبُوا وَتَوَضَّئُوا، وَكَوَّرُوا عَلَيْهِ.

وَكَانَتْ نَاقَةُ النَّبِيِّ ﷺ ـ الْقَصْوَاءُ ـ قَدْ بَرَكَتْ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ، وَلَمْ تَتَحَرَّكْ، فَقَالَ النَّاسُ:

ـ خَلَأَتِ الْقَصْوَاءُ.

فَقَالَ لَهُمْ ﷺ:

ـ مَا خَلَأَتْ (بَرَكَتْ)، وَمَا هُوَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ عَنْ «مَكَّةَ» وَاللهِ لَا تَدْعُونِي قُرَيْشٌ الْيَوْمَ إِلَى خُطَّةٍ يَسْأَلُونِي فِيهَا صِلَةَ الرَّحِمِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا.

ثُمَّ تَوَافَدَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ جُلَّةٌ مِنَ الرِّجَالِ، أَصْحَابِ الْكَلِمَةِ وَالنُّفُوذِ، يَتَوَسَّطُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ، أَمْثَالِ: «بِشْرِ بْنِ سُفْيَانَ»، وَ«بُدَيْلِ بْنِ وَرْقَاءَ»، وَ«مِكْرَزِ بْنِ حَفْصٍ»، وَ«الْحُلَيْسِ بْنِ عَلْقَمَةَ». فَكَانَ ﷺ يَقُولُ لَهُمْ:

ـ مَا جِئْتُ مُقَاتِلًا وَلَا مُحَارِبًا، وَلَكِنْ مُعَظِّمًا لِلْبَيْتِ مُقَدِّسًا لِحُرْمَتِهِ، فَلِمَاذَا تَقِفُ قُرَيْشٌ حَائِلًا بَيْنَنَا وَبَيْنَ ذَلِكَ؟!

وَرَدَّ هَؤُلَاءِ عَلَيْهِ بِأَنَّ قُرَيْشًا قَدْ أَقْسَمَتْ أَنْ لَا يَدْخُلَ عَلَيْهِمْ بِأَصْحَابِهِ «مَكَّةَ» عَنْوَةً؛ وَأَنَّهَا سَتَقِفُ فِي وَجْهِهِ لِتَمْنَعَهُ.

ثُمَّ جَاءَه «عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ» فَقَالَ:

- يَا «مُحَمَّدُ» جَمَعْتَ أَوْشَابَ النَّاسِ، ثُمَّ جِئْتَ بِهِمْ إِلَى بَيْضَتِكَ لِتَفُضَّهَا بِهِمْ!! إِنَّهَا قُرَيْشٌ قَدْ خَرَجَتْ مَعَهَا الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ، قَدْ لَبِسُوا جُلُودَ النُّمُورِ، يُعَاهِدُونَ اللهَ أَنْ لَا تَدْخُلَهَا عَلَيْهِمْ عَنْوَةً أَبَدًا، وَايْمُ اللهِ لَكَأَنِّي بِهَؤُلَاءِ قَدِ انْكَشَفُوا عَنْكَ.

فَقَالَ «أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ وَكَانَ وَاقِفًا قُرْبَ النَّبِيِّ ﷺ:

- كَذَبْتَ، أَنَحْنُ نَنْكَشِفُ عَنْهُ؟

فَقَالَ «عُرْوَةُ»:

- مَنْ هَذَا يَا «مُحَمَّدُ»؟ (لِأَنَّ «أَبَا بَكْرٍ» كَانَ يَلْبَسُ دِرْعَهُ وَخُوذَتَهُ، فَلَا يُرَى مِنْهُ شَيْءٌ).

قَالَ ﷺ:

- هَذَا «ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ».

قَالَ «عُرْوَةُ»:

- أَمَا وَاللهِ لَوْلَا يَدٌ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي، لَرَدَدْتُ عَلَيْكَ شَتِيمَتَكَ، وَلَكِنَّ هَذِهِ بِهَذِهِ.

ثُمَّ جَعَلَ «عُرْوَةُ» يَتَنَاوَلُ لِحْيَةَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُكَلِّمُهُ، تَحَبُّبًا وَتَوَدُّدًا، فَإِذَا بِيَدٍ تَقْرَعُهُ وَتَمْنَعُهُ، وَيَقُولُ صَاحِبُهَا:

ـ اكْفُفْ يَدَكَ عَنْ لِحْيَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَبْلَ أَنْ لَا تَصِلَ إِلَيْكَ!

فَقَالَ «عُرْوَةُ»:

ـ مَنْ هَذَا ـ أَيْضًا ـ يَا «مُحَمَّدُ»؟

فَتَبَسَّمَ ﷺ وَقَالَ:

ـ هَذَا ابْنُ أَخِيكَ «الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ».

فَغَضِبَ «عُرْوَةُ» وَاشْتَدَّ فِي كَلَامِهِ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ دُونَ أَنْ يُحَصِّلَ نَتِيجَةً، أَوْ يَصِلَ إِلَى هَدَفٍ.

ثُمَّ أَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ «عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ» إِلَى «مَكَّةَ»؛ لِيُبَاحِثَ قُرَيْشًا، فَقَالُوا لَهُ:

ـ إِذَا أَرَدْتَ الطَّوَافَ، بِالْبَيْتِ، فَافْعَلْ!

فَقَالَ «عُثْمَانُ»:

ـ مَا كُنْتُ لِأَطُوفَ قَبْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

ثُمَّ إِنَّ قُرَيْشًا لَمْ يَرُدُّوا عَلَى «عُثْمَانَ» بِالْإِيجَابِ، بَلِ احْتَبَسُوهُ عِنْدَهُمْ.

فَجَاءَ الْخَبَرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ بِأَنَّ قُرَيْشًا قَتَلَتْ «عُثْمَانَ»؛ فَغَضِبَ ﷺ، وَتَبَايَعَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ عَلَى الثَّأْرِ لِـ «عُثْمَانَ»، وَدُخُولِ «مَكَّةَ» عَنْوَةً، وَعَدَمِ مُبَارَحَةِ الْمَكَانِ حَتَّى يَفْصِلَ اللهُ تَعَالَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ.

وَسُمِّيَتِ الْبَيْعَةُ «بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ».

فَلَمَّا عَلِمَتْ قُرَيْشٌ بِعَزْمِ النَّبِيِّ ﷺ، أَطْلَقَتْ «عُثْمَانَ»، وَأَرْسَلَتْ فِي

إِثْرِهِ «سُـهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو» لِلْمُفَاوَضَةِ وَالْمُصَالَحَةِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَفْقَ شُرُوطٍ أَمْلَتْهَا عَلَيْهِ.

مِنْهَا أَنْ يَرْجِعَ النَّبِيُّ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ عَامَهُمْ هَذَا، وَيَأْتُونَ فِي عَامٍ قَابِلٍ لَيْسَ مَعَهُمْ مِنْ سِلَاحٍ إِلَّا سِلَاحَ الْمُسَافِرِ، السُّيُوفَ فِي أَغْمَادِهَا، فَتُخْلِي لَهُمْ قُرَيْشٌ «مَكَّةَ» ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَقَطْ، وَأَنَّ مَنْ أَرَادَ مِنَ الْقَبَائِلِ الدُّخُولَ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ فَلَهُ مَا أَرَادَ، وَمَنْ أَرَادَ الدُّخُولَ فِي عَهْدِ «مُحَمَّدٍ» فَهَذَا شَأْنُهُ، وَأَنَّ مَنْ أَتَى فَارًّا مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى «مُحَمَّدٍ» فَعَلَيْهِ أَنْ يُعِيدَهُ إِلَيْهَا، وَمَنْ جَاءَ مِنْ عِنْدِ «مُحَمَّدٍ» فَارًّا إِلَى قُرَيْشٍ فَلَا تُعِيدُهُ... إِلَى آخِرِ مَا تَضَمَّنَتْهُ وَثِيقَةُ الصُّلْحِ مِنْ بُنُودٍ وَمَوَادَّ.

كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَسْمَعُونَ حَدِيثَ الْمُفَاوَضَةِ بَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَبَيْنَ «سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو»، فَاغْتَاظَ سَيِّدُنَا «عُمَرُ» مِنْ هَذِهِ الشُّرُوطِ الَّتِي تُمْلِيهَا قُرَيْشٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَجَاءَ إِلَى «أَبِي بَكْرٍ» وَقَالَ:

- يَا «أَبَا بَكْرٍ»، أَوَلَسْنَا بِالْمُسْلِمِينَ؟!

قَالَ:

- بَلَى.

قَالَ:

- أَوَلَيْسُوا بِالْكَافِرِينَ؟!

قَالَ:

- بَلَى.

فَقَالَ:

ـ عَلَامَ إِذَنْ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا؟!

فَقَامَ «أَبُو بَكْرٍ» إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يُكَلِّمُهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي أَغْضَبَ كَثِيرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ ﷺ:

ـ إِنَّنِي عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَلَنْ يُضَيِّعَنِي.

وَحِينَ طَلَبَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ «عَلِيٍّ» أَنْ يَكْتُبَ الْعَهْدَ وَأَنْ يَبْدَأَهُ بِـ «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، رَفَضَ «سُهَيْلٌ» وَقَالَ:

ـ إِنَّنِي لَا أَعْرِفُ ذَلِكَ وَلَا أُقِرُّهُ، اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ.

فَوَافَقَ النَّبِيُّ، وَكَتَبَ «عَلِيٌّ»:

وَحِينَ أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُمْلِيَ عَلَى «عَلِيٍّ» قَوْلَهُ:

ـ هَذَا مَا عَاهَدَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ...

اعْتَرَضَ أَيْضًا «سُهَيْلٌ» وَقَالَ:

ـ لَوْ شَهِدْتُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ لَمَا قَاتَلْتُكَ؛ اكْتُبِ اسْمَكَ وَاسْمَ أَبِيكَ.

فَقَالَ ﷺ لِـ «عَلِيٍّ»:

ـ اكْتُبْ هَذَا مَا عَاهَدَ عَلَيْهِ «مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ»... إلخ.

وَتَمَّ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَقُرَيْشٍ، وَعَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَصْحَابِهِ إِلَى «الْمَدِينَةِ»، بِانْتِظَارِ دَوْرَةِ الْعَامِ لِيَعُودَ بِهِمْ إِلَى «مَكَّةَ» لِقَضَاءِ الْعُمْرَةِ.

أَقَامَ رَسُــولُ اللهِ ﷺ فِي «الْمَدِينَةِ» حَتَّى أَوَّلِ الْمُحَــرَّمِ، ثُمَّ خَرَجَ بِجَمْعٍ غَفِيرٍ وَجَيْشٍ كَبِيرٍ إِلَى «خَيْبَرَ» لِفَتْحِهَا؛ وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ «خَيْبَرَ» قَدْ أَصْبَحَتْ بَعْدَ خُرُوجِ يَهُودِ «الْمَدِينَةِ»، وَجَلَائِهِمْ عَنْ «طَيْبَةَ» مَسْــرَحًا لِنَشَــاطٍ مُعَادٍ لِلْمُسْلِمِينَ، فَقَدْ ضَمَّتْ «خَيْبَرُ» «سَلَّامَ بْنَ أَبِي الْحُقَيْقِ» وَ«كِنَانَةَ بْنَ الرَّبِيعِ ابْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ» وَغَيْرَهُمْ مِنْ زُعَمَاءِ الْيَهُودِ.

وَهُمُ الَّذِينَ سَــعَوْا لَدَى قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ وَالْأَحْزَابِ، لِمُقَاتَلَةِ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ، وَلَمْ يَسْتَكِينُوا بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ تَحْرِيكِ الْفِتَنِ وَالدَّسَائِسِ، رَغْمَ التَّأْدِيبِ الَّذِي نَزَلَ بِـ«بَنِي قُرَيْظَةَ» إِخْوَانِهِمْ.

لِهَذَا خَرَجَ ﷺ إِلَى خَيْبَرَ.

فَوَصَلَهَا مَعَ الْجُنْدِ مَسَــاءً بَعْدَ مَسِيرَةِ أَيَّامٍ، وَكَانَ مِنْ عَادَتِهِ أَنْ لَا يُفَاجِئَ أَيَّ قَــوْمٍ لَيْلًا، فَلَمَّا أَصْبَحَ الصَّبَاحُ، وَخَرَجَ الْيَهُــودُ الْمُزَارِعُونَ بِأَدَوَاتِهِمْ؛ مَسَــاحِيهِمْ وَمَكَاتِلِهِمْ إِلَى أَرَاضِيهِمْ، فُوجِئُوا بِالْمُسْلِمِينَ يَنْزِلُونَ قَرِيبًا مِنْ حُصُونِهِــمْ، بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَنَازِلِ قَبِيلَةِ غَطَفَــانَ؛ حَتَّى لَا تُنْجِدَهُمْ، فَصَاحُوا هَارِبِينَ:

ـ «مُحَمَّدٌ» وَالْخَمِيسُ (الْجَيْشُ).

وَاحْتَمَوْا بِحُصُونِهِمُ الْكَثِيرَةِ الْمُتَعَدِّدَةِ، وَقَبَعُوا وَرَاءَ الْجُدْرَانِ الْعَالِيَةِ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ جَهَّزَ قُوَّاتِهِ وَأَعَدَّ جُنْدَهُ، وَبَدَأَ الْقِتَالَ بِالْهُجُومِ عَلَى الْحُصُونِ، عَلَى أَمَلِ فَتْحِ ثُغْرَةٍ فِيهَا، وَالنُّفُوذِ إِلَى دَاخِلِهَا، وَبَدَأَ بِحِصْنِ «النَّطَاةِ».

وَكَانَ صَاحِبُ الرَّايَةِ فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ «أَبَا بَكْرٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ فَقَاتَلَ طَوَالَ النَّهَارِ، وَوَقَعَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ صَرْعَى وَشُهَدَاءَ، ثُمَّ عَادُوا فِي آخِرِ النَّهَارِ مُجْهَدِينَ دُونَ أَنْ يَظْفَرُوا بِطَائِلٍ.

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي أُعْطِيَتِ الرَّايَةُ إِلَى «عُمَرَ»، وَسُلِّمَتْ لَهُ الْقِيَادَةُ، فَقَامَ بِالْهُجُومِ عَلَى الْحِصْنِ، وَأَجْهَدَ نَفْسَهُ وَإِخْوَانَهُ، وَقَاتَلُوا قِتَالًا مَرِيرًا، حَتَّى ابْتَلَّتْ ثِيَابُهُمْ بِالْعَرَقِ، وَكَثُرَتْ فِيهِمُ الْجِرَاحُ، وَأُصِيبَ عَدَدٌ غَيْرُ قَلِيلٍ مِنْهُمْ بِسِهَامِ الْعَدُوِّ، ثُمَّ عَادُوا مَعَ الْغُرُوبِ وَلَمْ يُحَقِّقُوا أَدْنَى نَصْرٍ يُذْكَرُ.

ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:

ـ سَأُعْطِي الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ.

وَتَطَلَّعَ أَكْثَرُ الصَّحَابَةِ لِأَنْ يَكُونَ كُلٌّ مِنْهُمْ ذَلِكَ الرَّجُلَ، فَلَمَّا كَانَ الصَّبَاحُ سَأَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ «عَلِيٍّ»، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهُ أَرْمَدُ.

فَطَلَبَهُ، فَلَمَّا حَضَرَ مَسَحَ عَلَى عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ، ثُمَّ أَعْطَاهُ سَيْفَهُ ذَا الْفَقَارِ، ثُمَّ الرَّايَةَ، وَوَلَّاهُ قِيَادَةَ الْهُجُومِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ.

أَمَّا الْيَهُودُ فَإِنَّهُمْ تَشَجَّعُوا عَلَى الْخُرُوجِ مِنَ الْحِصْنِ لِمُلَاقَاةِ الْمُسْلِمِينَ، بَعْدَ يَوْمَيْنِ مِنَ الْقِتَالِ سَبَرُوا فِيهِ غَوْرَهُمْ، وَلَقَدْ بَرَزَ فَارِسُهُمْ «مَرْحَبٌ» إِلَى مَيْدَانِ الْمَعْرَكَةِ يَرْتَجِزُ الشِّعْرَ وَيَفْتَخِرُ، فَتَصَدَّى لَهُ «عَلِيٌّ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ وَدَارَتْ بَيْنَ الِاثْنَيْنِ مُبَارَزَةٌ فَرِيدَةٌ مِنْ نَوْعِهَا فِي قِتَالِ الْأَبْطَالِ، اسْتَمَرَّتْ فَتْرَةً طَوِيلَةً، أَثْبَتَ الطَّرَفَانِ فِيهَا كَفَاءَةً وَقُدْرَةً.

ثُمَّ إِنَّ «عَلِيًّا» انْقَضَّ عَلَى خَصْمِهِ بِضَرْبَةٍ شَدِيدَةٍ مُحْكَمَةٍ، فَنَزَلَ السَّيْفُ مِنَ الْخُوذَةِ إِلَى الرَّأْسِ، إِلَى الْفَكَّيْنِ، ثُمَّ عَضَّ فِي الْأَسْنَانِ، فَتَهَاوَى «مَرْحَبٌ»، ثُمَّ سَقَطَ أَرْضًا.

وَأَغْلَقَ الْيَهُودُ بَابَ حِصْنِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَاحْتَمَوْا دَاخِلَهُ، وَأَخَذُوا يَرْشُقُونَ الْمُسْلِمِينَ بِالسِّهَامِ وَالنِّبَالِ، فَتَسَاقَطَتْ كَالْمَطَرِ الْغَزِيرِ!!

ثُمَّ انْقَضَى الْيَوْمُ أَيْضًا... وَلَكِنْ مَعَ تَحْقِيقِ بَعْضِ النَّجَاحِ.

فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ كَانَ مَسْئُولًا عَنِ الْحِرَاسَةِ فِي مُعَسْكَرِ الْمُسْلِمِينَ «عُمَرُ ابْنُ الْخَطَّابِ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ فَوَقَعَ فِي يَدِهِ أَحَدُ الرُّعَاةِ، فَأَتَى بِهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَمَّنَهُ النَّبِيُّ ﷺ، عِنْدَئِذٍ دَلَّهُمُ الرَّجُلُ عَلَى عَوْرَةِ الْحِصْنِ، وَنُقْطَةِ الضَّعْفِ فِيهِ، كَمَا تَعَهَّدَ بِأَنْ يَدُلَّهُمْ عَلَى الْأَمَاكِنِ الَّتِي جَعَلَ فِيهَا الْيَهُودُ مَئُونَتَهُمْ وَطَعَامَهُمْ، وَكُنُوزَهُمْ، وَأَسْلِحَتَهُمْ.

فَرَكَّزَ الْمُسْلِمُونَ فِي الْيَوْمِ التَّالِي هُجُومَهُمْ عَلَى عَوْرَةِ الْحِصْنِ الَّتِي دَلَّهُمْ عَلَيْهَا الرَّجُلُ، فَفَتَحُوا فِيهَا ثُغْرَةً، ثُمَّ تَدَفَّقُوا إِلَى الدَّاخِلِ كَالْمَاءِ الْمُنْهَمِرِ، وَرُوِّعَ الْيَهُودُ الْمُقَاتِلُونَ، فَاسْتَسْلَمَ أَكْثَرُهُمْ، وَوَقَعَ بَعْضُهُمْ قَتْلَى... وَسَقَطَ حِصْنُ «النَّطَاةِ» فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ، وَيُقَالُ: حِصْنُ «مَانِعٍ».

الْمُهِمُّ أَنَّ أَمْوَالَ الْيَهُودِ وَمَطْعُومَاتِهِمْ، وَكُنُوزَهُمْ، وَمُدَّخَرَاتِهِمْ وَقَعَتْ فِي حَوْزَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَتْ عَلَى وَفْرَتِهَا وَكَثْرَتِهَا تُشَكِّلُ أَكْبَرَ غَنِيمَةٍ غَنِمَهَا الْمُسْلِمُونَ فِي قِتَالٍ.

ثُمَّ تَتَابَعَ سُقُوطُ بَقِيَّةِ الْحُصُونِ، وَاسْتَسْلَمَتْ «خَيْبَرُ» كُلُّهَا، وَقَدْ مَاتَ أَكْثَرُ زُعَمَاءِ الْيَهُودِ فِي تِلْكَ الْمَعْرَكَةِ.

وَكَانَ مِنْ بَيْنِ الْأَسْرَى «صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ» وَزَوْجَةُ «كِنَانَةَ ابْنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ»، وَقَدْ وَقَعَتْ فِي سَهْمِ «دِحْيَةَ الْكَلْبِيِّ» صَاحِبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ أَرَادَهَا غَيْرُهُ، وَاخْتَلَفَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ عَلَى «صَفِيَّةَ» كُلٌّ يُرِيدُهَا لِنَفْسِهِ؛ كَيْ يَظْفَرَ بِالشَّرَفِ الْعَظِيمِ، بِأَنَّهُ تَزَوَّجَ بِنْتَ زَعِيمِ الْيَهُودِ، وَزَوْجَةَ أَحَدِ زُعَمَائِهِمُ السَّابِقِينَ...

فَحَسَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْخِلَافَ، وَعَزَلَهَا لِنَفْسِهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ، وَأَكْرَمَهَا بِهَذَا الزَّوَاجِ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ بَنَى بِهَا قَبْلَ عَوْدَتِهِ إِلَى «الْمَدِينَةِ».

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ رَأَى ﷺ فِي وَجْهِ «صَفِيَّةَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ أَثَرَ نُدْبَةٍ، فَسَأَلَهَا عَنْهَا، فَقَالَتْ:

ـ حِينَ أَعْرَسَ بِي «كِنَانَةُ» رَأَيْتُ فِي لَيْلَةٍ كَأَنَّ الْقَمَرَ وَقَعَ فِي حِجْرِي، فَحَدَّثْتُ زَوْجِي بِذَلِكَ، فَقَالَ: تُرِيدِينَ أَنْ تَكُونِي زَوْجَةً لِـ «مُحَمَّدٍ»، ثُمَّ لَطَمَنِي...

وَكَانَ زَوَاجُهُ ﷺ مِنْ «صَفِيَّةَ» فَاتِحَةَ خَيْرٍ عَلَى قَوْمِهَا، فَإِنَّ الصَّحَابَةَ قَالُوا:

ـ أَيَكُونُ أَصْهَارُ رَسُولِ اللهِ (أَيْ قَوْمُ «صَفِيَّةَ») أَسْرَى فِي أَيْدِينَا؟! مَعَاذَ اللهِ.

ثُمَّ أَطْلَقُوهُمْ، فَكَانَتْ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ عَلَامَةَ خَيْرٍ، وَفَاتِحَةَ بِشْرٍ عَلَى قَوْمِهَا.

عُمْرَةُ الْقَضَاءِ وَجَيْشُ الْأُمَرَاءِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (الفَتْحُ: 27).

❊❊❊

لَقَدْ كَانَ مِنْ شُـرُوطِ وَبُنُودِ مُعَاهَدَةِ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَـةِ الَّتِي وَافَقَ عَلَيْهَا رَسُـولُ اللهِ ﷺ، وَأَمْضَاهَا مَعَ قُرَيْشٍ، أَنْ يَعُودَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى «مَكَّةَ» فِي عَامٍ قَابِلٍ، يُؤَدُّونَ مَنَاسِكَ الْعُمْرَةِ، وَأَنْ لَا يَكُونَ مَقَامُهُمْ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَأَنْ لَا يَحْمِلُوا مَعَهُمْ مِنَ السِّـلَاحِ إِلَّا سِلَاحَ الْمُسَافِرِ، وَهُوَ السُّيُوفُ فِي قِرَابِهَا وَأَغْمَادِهَا.

فَلَمَّا دَارَ الْعَامُ دَوْرَتَهُ، وَحَلَّ الْمَوْعِدُ، خَرَجَ ﷺ فِي أَصْحَابِهِ الَّذِينَ خَرَجُوا مَعَهُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ، مُحْرِمِينَ مُلَبِّينَ، وَقَدْ سَاقَ أَمَامَهُ مِنَ الْهَدْيِ سِتِّينَ بَدَنَةً، وَقَدَّمَ طَلِيعَةً مِنَ الْجُنْدِ مُدَجَّجِينَ بِالسِّلَاحِ؛ احْتِيَاطًا وَتَخَوُّفًا مِنْ مُفَاجَأَةٍ قَدْ تُعِدُّهَا قُرَيْشٌ.

وَحِينَ أَصْبَحَ قَرِيبًا مِنْ «مَكَّةَ» رَآهُ بَعْضُ الْقُرَشِيِّينَ، فَبَادَرُوا إِلَى «مَكَّةَ» لِيُنْذِرُوا قُرَيْشًا بِمَا رَأَوُا النَّبِيَّ وَالْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِ، مِنْ سِلَاحٍ وَاسْتِعْدَادٍ؛ رَغْمَ رُؤْيَتِهِمْ لَهُمْ مُحْرِمِينَ يَسُوقُونَ الْهَدْيَ وَيُلَبُّونَ.

فَظَنَّ السَّادَةُ مِنْ قُرَيْشٍ أَنَّهُمْ قَدْ نَقَضُوا الْعَهْدَ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرُونَ، أَوْ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ فِي أَصْحَابِهِ قَدْ جَاءُوا غَازِينَ، فَأَرْسَلُوا يَسْتَفْسِرُونَ...

فَطَمْأَنَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ تَرَكَ السِّلَاحَ وَالْكِرَاعَ خَارِجَ «مَكَّةَ» يَحْرُسُهُ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَدَخَلَ «مَكَّةَ» بَعْدَ ذَلِكَ.

كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَاكِبًا عَلَى نَاقَتِهِ الْقَصْوَاءِ مُضْطَبِعًا (اضْطَبَعَ الْمُحْرِمُ بِثَوْبِهِ: أَدْخَلَهُ مِنْ تَحْتِ إِبِطِهِ الْأَيْمَنِ وَرَدَّ طَرَفَهُ عَلَى يَسَارِهِ) بِثَوْبِهِ، كَاشِفًا عَنْ ذِرَاعِهِ الْيُمْنَى، وَالْمُسْلِمُونَ مِنْ وَرَائِهِ فِي تَلْبِيَةٍ وَدُعَاءٍ، تَرْتَفِعُ أَصْوَاتُهُمْ، فَتَشُقُّ عَنَانَ السَّمَاءِ.

وَكَانَ الصَّحَابِيُّ الْكَرِيمُ «عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ يُمْسِكُ بِزِمَامِ النَّاقَةِ، وَيَمْشِي مِشْيَةَ الْوَاثِقِ الْمُؤْمِنِ، وَهُوَ يُرَدِّدُ بَيْنَ الْحِينِ وَالْحِينِ:

خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ ... خَلُّوا فَكُلُّ الْخَيْرِ فِي رَسُولِهِ

يَا رَبِّ إِنِّي مُؤْمِنٌ بِقِيلِهِ أَعْرِفُ حَقَّ اللهِ فِي قَبُولِهِ
نَحْنُ قَتَلْنَاكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِ كَمَا قَتَلْنَاكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ
ضَرْبًا يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

❊❊❊

كَانَتْ قُرَيْشٌ فِي ذَلِكَ الْحِينِ قَدْ أَخْلَتْ «مَكَّةَ»، وَخَرَجَتْ بِجُمُوعِهَا إِلَى الْجِبَالِ الْمُحِيطَةِ بِهَا، وَبَقِيَ بَعْضُهُمْ فِي بُيُوتِهِمْ، أَوْ حَتَّى حَوْلَ «الْكَعْبَةِ» لِلْمُرَاقَبَةِ وَالْمُشَاهَدَةِ، وَمُعَايَنَةِ تَنْفِيذِ الِاتِّفَاقِ؛ وَلَقَدْ بَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ أَنَّ طَائِفَةً مِنَ الْمُشْرِكِينَ تَقَاوَلُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عَنْ ضَعْفِ الْمُسْلِمِينَ وَنُحُولِهِمْ؛ لِسَبَبِ حُمَّى «يَثْرِبَ»، فَأَمَرَ ﷺ أَصْحَابَهُ قَبْلَ بَدْءِ الطَّوَافِ حَوْلَ «الْكَعْبَةِ» أَنْ يَرْمُلُوا (يُهَرْوِلُوا) فِي الْأَشْوَاطِ الثَّلَاثَةِ الْأُولَى؛ كَيْ يُظْهِرُوا لِقُرَيْشٍ أَنَّهُمْ فِي قُوَّةٍ وَحَيَوِيَّةٍ وَنَشَاطٍ، لَا كَمَا ادَّعَتْ هِيَ وَقَالَتْ عَنْ هُزَالِهِمْ وَمَرَضِهِمْ، وَهَكَذَا كَانَ.

فَلَمَّا قُضِيَ الطَّوَافُ، سَعَى ﷺ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَسَعَى مَعَهُ أَصْحَابُهُ وَإِخْوَانُهُ، مُعَظِّمِينَ لِلْمَنَاسِكِ، مُؤَدِّينَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ وَاجِبَاتٍ... حَتَّى أَتَمُّوهَا جَمِيعًا.

وَكَانَ مِمَّنِ اسْتَقْبَلَ النَّبِيَّ ﷺ فِي «مَكَّةَ»، فَرِحًا بِقُدُومِهِ، عَمُّهُ «الْعَبَّاسُ ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ».

وَ«الْعَبَّاسُ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ لَمْ يُغَادِرْ مَكَّةَ أَبَدًا، وَكَذَلِكَ تَأَخَّرَ إِسْلَامُهُ؛ وَلَقَدْ لَقِيَ فِي «مَكَّةَ» مِنْ غَطْرَسَةِ قُرَيْشٍ وَجَهْلِهَا وَأَذَاهَا شَيْئًا كَثِيرًا...

اسْتَقْبَلَ «الْعَبَّاسُ» ابْنَ أَخِيهِ ﷺ، وَرَحَّبَ بِهِ وَأَكْرَمَ وِفَادَتَهُ، كَمَا كَانَ «الْعَبَّاسُ» مُتَزَوِّجًا مِنْ «أُمِّ الْفَضْلِ بِنْتِ الْحَارِثِ الْهِلَالِيَّةِ»، وَكَانَ لَهَا أُخْتٌ تُدْعَى «مَيْمُونَةَ» تُقِيمُ مَعَهَا فِي بَيْتِهَا، وَقَدْ جَعَلَتْ «مَيْمُونَةُ» أَمْرَهَا إِلَى «الْعَبَّاسِ»، فَكَانَ وَكِيلَهَا فِي شُئُونِهَا وَوَلِيَّهَا.

وَكَانَتْ «مَيْمُونَةُ» مِمَّنْ أَسْلَمْنَ بِـ «مَكَّةَ» قَبْلَ قُدُومِ النَّبِيِّ ﷺ مُعْتَمِرًا، فَلَمَّا حَضَرَ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَعْلَمَتْ بِذَلِكَ «الْعَبَّاسَ» زَوْجَ أُخْتِهَا «أُمِّ الْفَضْلِ».

وَبَلَّغَ «الْعَبَّاسُ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ ابْنَ أَخِيهِ، فَرَضِيَ النَّبِيُّ ﷺ، وَتَمَّتْ مَرَاسِمُ الزَّوَاجِ، وَدَفَعَ «الْعَبَّاسُ» لِـ «مَيْمُونَةَ» مَهْرًا أَرْبَعَمِئَةِ دِرْهَمٍ.

مَضَتِ الْأَيَّامُ الثَّلَاثَةُ الْمُتَّفَقُ عَلَيْهَا بَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ، وَفِي صَبِيحَةِ الْيَوْمِ الرَّابِعِ، جَاءَ «سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو» إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، يَطْلُبُ إِلَيْهِ بِاسْمِ قُرَيْشٍ أَنْ يُغَادِرَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ «مَكَّةَ» بِسَبَبِ انْقِضَاءِ الْمُهْلَةِ، وَانْتِهَاءِ الْمُدَّةِ. وَهُنَا حَاوَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَتَأَلَّفَ قُلُوبَ الْقَوْمِ، وَأَنْ يَتَبَسَّطَ مَعَهُمْ، وَأَنْ يَنْفُذَ إِلَى قُلُوبِهِمْ، لَعَلَّهَا تَلِينُ وَتَسْتَجِيبُ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ، فَطَلَبَ إِلَى «سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو» أَنْ يُمَدِّدُوا الْمُدَّةَ أَيَّامًا حَتَّى يُقِيمَ ﷺ وَلِيمَةً

كَبِيرَةً بِسَبَبِ زَوَاجِهِ مِنْ «مَيْمُونَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ الْهِلَالِيَّةِ»، ثُمَّ يَدْعُوهُمْ جَمِيعًا إِلَى هَذِهِ الْوَلِيمَةِ.

لَكِنَّ «سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو» بِلِسَانِ الْأَفْذَاذِ وَالسَّادَةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ رَفَضَ، وَأَلَحَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يُغَادِرَ «مَكَّةَ» مَعَ أَصْحَابِهِ عَلَى الْفَوْرِ.

وَلَمْ يَجِدْ ﷺ بُدًّا مِنْ تَنْفِيذِ رَغْبَتِهِمْ، وَأَعْطَى أَوَامِرَهُ إِلَى إِخْوَانِهِ بِالِاسْتِعْدَادِ لِلرَّحِيلِ، وَلَمَّا انْتَهَوْا خَرَجُوا مِنْ «مَكَّةَ» وَقَدْ أَدَّوْا مَا عَلَيْهِمْ مِنْ مَنَاسِكِ الْعُمْرَةِ.

وَعِنْدَ آخِرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ «مَكَّةَ»، وَقَبْلَ مُفَارَقَةِ الْبَلَدِ الْحَرَامِ، كَانَتْ تَلْحَقُ بِالرَّكْبِ فَتَاةٌ وَتُنَادِي:

- يَا عَمُّ... يَا عَمُّ...

فَالْتَفَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى مَصْدَرِ الصَّوْتِ، فَإِذَا فَتَاةٌ تَرْكُضُ خَلْفَهُمْ، فَتَوَقَّفَ، وَلَمَّا اقْتَرَبَتْ عَرَفَ مِنْهَا «عُمَارَةَ» بِنْتَ عَمِّهِ «حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -.

ثُمَّ طَلَبَتْ إِلَيْهِ رَاجِيَةً أَنْ لَا يَتْرُكَهَا فِي «مَكَّةَ» وَحِيدَةً، بَلْ يَضُمَّهَا إِلَى رَكْبِهِ، فَأَمَرَ بِحَمْلِهَا «عَلِيًّا» - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -.

ثُمَّ تَنَافَسَ ثَلَاثَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ - رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ - كُلٌّ مِنْهُمْ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَجْرُ وَثَوَابُ إِقَامَةِ «عُمَارَةَ» عِنْدَهُ.

قَالَ «زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ»:

- إِنَّ «حَمْزَةَ» أَخِي، وَأَنَا أَوْلَى بِهَا مِنْ غَيْرِي (وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ آخَى بَيْنَ عَمِّهِ «حَمْزَةَ» وَمَوْلَاهُ «زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ» فِي «الْمَدِينَةِ»، حِينَ آخَى بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ).

ثُمَّ قَالَ «جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ»:

- هِيَ ابْنَةُ عَمِّي، وَخَالَتُهَا تَحْتِي (أَيْ زَوْجَتِي)، «أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ فَأَنَا أَوْلَى بِهَا.

ثُمَّ قَالَ «عَلِيٌّ»:

- بَلْ أَنَا أَوْلَى بِهَا، هِيَ ابْنَةُ عَمِّي.

وَحَسَمَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا التَّنَافُسَ، فَقَالَ:

- أَمَّا أَنْتَ يَا «زَيْدُ» فَمَوْلَى اللهِ وَمَوْلَى رَسُولِهِ، وَأَمَّا أَنْتَ يَا «عَلِيُّ» فَأَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ «هَارُونَ» مِنْ «مُوسَى»، وَأَمَّا أَنْتَ يَا «جَعْفَرُ» فَقَدْ أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي، وَأَنْتَ أَوْلَى بِهَا، خَالَتُهَا تَحْتَكَ، وَلَا تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ عَلَى خَالَاتِهَا وَعَمَّاتِهَا.

وَلَمَّا بَلَغَ ﷺ مَكَانًا يُدْعَى «سَرِفَ» بَيْنَ «مَكَّةَ» وَ«الْمَدِينَةِ»، أَعْرَسَ بِـ «مَيْمُونَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ وَأَصْبَحَتْ أُمًّا لِلْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ أَضْحَتْ بَعْدَ ذَلِكَ زَوْجَةً صَالِحَةً فَاضِلَةً تَعْرِفُ حَقَّ الزَّوْجِيَّةِ، وَتَرْعَاهُ.

وَمَرَّتْ أَيَّامٌ عَلَى إِقَامَةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي «الْمَدِينَةِ» بَعْدَ عَوْدَتِهِ مِنْ عُمْرَةِ الْقَضَاءِ...

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ بَيْنَمَا كَانَ جَالِسًا فِي أَصْحَابِهِ فِي الْمَسْجِدِ، اسْتَأْذَنَ بِالدُّخُولِ عَلَيْهِ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْقُرَشِيِّينَ الَّذِينَ عُرِفُوا بِالْعَدَاءِ الشَّدِيدِ لِلْإِسْلَامِ، هُمْ: «عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ» وَ«خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ» وَ«عُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ»، جَاءُوا نَادِمِينَ مُسْتَغْفِرِينَ، رَاغِبِينَ فِي الْإِسْلَامِ، فَابْتَسَمَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَذِنَ لَهُمْ، وَرَحَّبَ بِهِمْ، وَسَمِعَ لَهُمْ، وَدَعَا لَهُمْ بِخَيْرٍ.

وَكَانَ أَكْثَرَ الْحَاضِرِينَ فَرْحَةً «الْوَلِيدُ بْنُ الْوَلِيدِ» أَخُو «خَالِدٍ»، وَكَانَ قَدْ سَبَقَهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَلَمَّا زَارَ «الْوَلِيدُ» «مَكَّةَ» مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لِقَضَاءِ الْعُمْرَةِ، لَمْ يَجِدْ «خَالِدًا» هُنَاكَ، فَتَرَكَ لَهُ رِسَالَةً يَقُولُ فِيهَا:

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي لَمْ أَرَ أَعْجَبَ مِنْ ذَهَابِ رَأْيِكَ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَعَقْلُكَ عَقْلَكَ، وَمِثْلُ الْإِسْلَامِ يَجْهَلُهُ أَحَدٌ مِثْلُكَ؟!!

وَقَدْ سَأَلَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْكَ وَقَالَ:

- أَيْنَ «خَالِدٌ»؟!

فَقُلْتُ:

- يَأْتِي اللهُ بِهِ.

فَقَالَ:

- مِثْلُهُ جَهِلَ الْإِسْلَامَ؟! وَلَوْ كَانَ جَعَلَ نِكَايَتَهُ وَجِدَّهُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَقَدَّمْنَاهُ عَلَى غَيْرِهِ.

فَاسْتَدْرِكْ يَا أَخِي مَا قَدْ فَاتَكَ مِنْ مَوَاطِنَ صَالِحَةٍ).

هَذِهِ الرِّسَالَةُ حَرَّكَتْ نَفْسَ «خَالِدٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ وَجَعَلَتْهُ يُبَادِرُ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَيَدْخُلُ فِي زُمْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ. وَيَكُونُ لَهُ شَأْنٌ أَيُّ شَأْنٍ بَعْدَ ذَلِكَ فِي تَارِيخِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ، وَرَفْعِ رَايَةِ اللهِ، وَلَقَدْ سَمَّاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «سَيْفَ اللهِ الْمَسْلُولَ».

فِي ذَلِكَ الْعَامِ ابْتَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ سَرِيَّةً مُؤَلَّفَةً مِنْ خَمْسَةَ عَشَرَ رَجُلًا، عَلَيْهِمْ «كَعْبُ بْنُ عُمَيْرٍ الْغِفَارِيُّ»، حَتَّى بَلَغُوا مَكَانًا عَلَى حُدُودِ دِيَارِ الشَّامِ يُدْعَى «ذَاتَ أَطْلَاحٍ» فَوَجَدُوا جَمْعًا كَبِيرًا مِنَ الْعَرَبِ الْمُسْتَعْرِبَةِ، فَدَعَوْهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ...

لَكِنَّ الْقَوْمَ قَاتَلُوهُمْ، وَاشْتَدُّوا عَلَيْهِمْ، وَرَمَوْهُمْ بِالنَّبْلِ، فَقَاتَلَهُمُ الْمُسْلِمُونَ، حَتَّى قُتِلُوا جَمِيعًا، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ غَيْرُ وَاحِدٍ وَقَعَ جَرِيحًا لَا يَقْوَى عَلَى الْحَرَكَةِ، فَتَلَبَّدَ فِي مَكَانِهِ حَتَّى جَنَّ اللَّيْلُ، فَقَامَ مُتَحَامِلًا يَسْعَى بِجَهْدٍ وَمَشَقَّةٍ، حَتَّى بَلَغَ «الْمَدِينَةَ» وَأَخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ بِالْوَاقِعَةِ.

فَلَمَّا هَمَّ النَّبِيُّ ﷺ بِإِرْسَالِ قُوَّاتٍ لِتَأْدِيبِ الْمُعْتَدِينَ، أُخْبِرَ بِأَنَّهُمْ قَدْ غَادَرُوا مَكَانَهُمْ.

وَلَمَّا حَانَتِ الْفُرْصَةُ، جَهَّزَ جَيْشًا قِوَامُهُ ثَلَاثَةُ آلَافِ مُقَاتِلٍ، وَجَعَلَ عَلَيْهِ ثَلَاثَةً مِنَ الْأُمَرَاءِ بِالتَّنَاوُبِ، أَوَّلًا: «زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ»، فَإِنْ قُتِلَ فَـ «جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ»، فَإِنْ قُتِلَ فَـ «عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ».

وَكَانَ ذَلِكَ التَّنَاوُبُ إِرْهَاصًا وَإِشَارَةً مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِاسْتِشْهَادِ هَؤُلَاءِ الْأُمَرَاءِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ـ.

وَوَصَّاهُمْ ﷺ، وَدَعَا لَهُمْ بِخَيْرٍ، وَشَيَّعَهُمْ حَتَّى ضَاحِيَةِ «الْمَدِينَةِ»، وَعِنْدَ الْوَدَاعِ دَمَعَتْ عَيْنَا «عَبْدِ اللهِ بْنِ رَوَاحَةَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ فَقِيلَ لَهُ:

ـ مَا يُبْكِيكَ يَا «ابْنَ رَوَاحَةَ»؟

فَقَالَ:

ـ أَمَا وَاللهِ مَا بِي حُبُّ الدُّنْيَا وَلَا صَبَابَةٌ بِكُمْ! وَلَكِنَّنِي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ، يَذْكُرُ فِيهَا النَّارَ ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ (مَرْيَم: 71). فَلَسْتُ أَدْرِي كَيْفَ لِي بِالصُّدُورِ بَعْدَ الْوُرُودِ؟!

فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ:

ـ صَحِبَكُمُ اللهُ، وَدَفَعَ عَنْكُمْ، وَرَدَّكُمْ إِلَيْنَا صَالِحِينَ.

فَقَالَ «عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ»، وَكَانَ شَاعِرًا مُجِيدًا:

لَكِنَّنِي أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً
وَضَرْبَةً ذَاتَ فَرْعٍ تَقْذِفُ الزَّبَدَا
أَوْ طَعْنَةً بِيَدَيْ حَرَّانَ مُجْهِزَةً
بِحَرْبَةٍ تُنْفِذُ الْأَحْشَاءَ وَالْكَبِدَا
حَتَّى يُقَالَ إِذَا مَرُّوا عَلَى جَدَثِي
أَرْشَدَهُ اللهُ مِنْ غَازٍ وَقَدْ رَشَدَا

انْطَلَقَ الْجَيْشُ فِي سَيْرِهِ حَتَّى بَلَغَ «مَعَانَ» عَلَى حُدُودِ بِلَادِ الشَّامِ (الْحُدُودِ الْأُرْدُنِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ الْيَوْمَ)، وَهُنَاكَ بَلَغَهُمْ أَنَّ «هِرَقْلَ» قَدْ حَشَدَ مِئَةَ أَلْفٍ مِنْ جُنْدِ الرُّومِ، وَمِثْلَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ الْمُسْتَعْرِبَةِ، وَأَقَامَ فِي «مُؤَابٍ» لِيَرُدَّ خَطَرَ الْمُسْلِمِينَ.

فَتَشَاوَرَ قَادَةُ الْجَيْشِ الْإِسْلَامِيِّ: مَاذَا يَفْعَلُونَ؟

إِنَّ الْحَشْدَ الرُّومِيَّ هَائِلٌ وَكَبِيرٌ، وَالْمُسْلِمُونَ قِلَّةٌ قَلِيلَةٌ لَا تُقَاسُ أَمَامَ الْعَدَدِ الْكَبِيرِ، وَالْعُدَّةِ الْكَامِلَةِ!!

فَقَالَ بَعْضُهُمْ:

- نُرْسِلُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي «الْمَدِينَةِ» نُبَلِّغُهُ الْمَوْقِفَ، وَنَنْتَظِرُ مَا يُشِيرُ بِهِ.

فَقَامَ «عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ وَقَالَ:

- يَا قَوْمِ... وَاللهِ إِنَّ الَّتِي تَكْرَهُونَ لَلَّتِي خَرَجْتُمْ إِلَيْهَا، تَطْلُبُونَ الشَّهَادَةَ، وَمَا نُقَاتِلُ النَّاسَ بِعَدَدٍ وَلَا قُوَّةٍ وَلَا كَثْرَةٍ، مَا نُقَاتِلُهُمْ إِلَّا بِهَذَا الدِّينِ الَّذِي أَكْرَمَنَا اللهُ بِهِ، فَانْطَلِقُوا فَإِنَّمَا هِيَ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ، إِمَّا ظُهُورٌ وَإِمَّا شَهَادَةٌ.

فَقَالَ النَّاسُ:

- قَدْ وَاللهِ صَدَقَ «ابْنُ رَوَاحَةَ».

ثُمَّ مَضَى الْجَيْشُ إِلَى غَايَتِهِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى «الْبَلْقَاءِ»، فَالْتَقَى بِجُمُوعِ

«هِرَقْـلَ» الْغَفِيرَةِ عِنْدَ قَرْيَةِ «مَشَـارِفَ»، ثُـمَّ دَنَا الْعَدُوُّ مِنَ الْمُسْـلِمِينَ، فَانْحَازُوا إِلَى قَرْيَةِ «مُؤْتَةَ».

ثُمَّ تَقَابَلُوا وَتَلَاقَتِ السُّـيُوفُ وَالرِّمَاحُ، وَصَمَدَ الْمُسْـلِمُونَ صُمُودًا رَائِعًـا، وَانْدَفَعَ قَائِدُهُمْ «زَيْدُ بْنُ حَارِثَـةَ» إِلَى خِضَمِّ الْمَعْرَكَةِ، وَدَخَلَ فِي صُفُوفِ الْعَدُوِّ وَهُوَ يَحْمِلُ رَايَةَ رَسُـولِ اللهِ ﷺ، لَكِنَّهُ تَنَاوَشَتْهُ السُّيُوفُ وَالرِّمَاحُ، فَخَرَّ صَرِيعًا شَهِيدًا.

ثُمَّ تَنَاوَلَ «جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ الرَّايَةَ، وَعَقَرَ فَرَسَـهُ كَيْ يُقَاتِلَ رَاجِلًا، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى الشَّـهَامَةِ وَالْجُـرْأَةِ وَالْإِقْدَامِ، وَانْدَفَعَ يُقَاتِلُ وَهُوَ يُنْشِدُ وَيَرْتَجِزُ:

يَـا حَبَّـذَا الْجَنَّـةُ وَاقْتِرَابُهَا
طَيِّبَـةً وَبَـارِدًا شَرَابُـهَا
وَالرُّومُ رُومٌ قَـدْ دَنَا عَذَابُهَا
كَافِـرَةٌ بَعِيـدَةٌ أَنْسَـابُهَا
عَـلَيَّ إِنْ لَاقَيْتُهَـا ضِرَابُهَـا

وَمَا زَالَ «جَعْفَرٌ» يُقَاتِلُ حَتَّى قُطِعَتْ يَمِينُهُ، فَاحْتَضَنَ الرَّايَةَ بِيَسَـارِهِ ثُمَّ قُطِعَتْ يَسَارُهُ، ثُمَّ ضَمَّهَا بِعَضُدَيْهِ وَذِرَاعَيْهِ...

ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ سَقَطَ شَهِيدًا...

❋❋❋

فَأَقْبَلَ عَـلَى الرَّايَةِ يَحْمِلُهَا «عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ»، الْأَمِيرُ الثَّالِثُ لِلْجَيْشِ، ثُمَّ تَقَدَّمَ بِهَا وَهُوَ عَلَى فَرَسِهِ يَسْتَنْزِلُ نَفْسَهُ وَيُرَدِّدُ:

أَقْسَـمْتُ يَـا نَفْـسُ لَتَنْزِلِنَّـهْ
لَـتَنْـزِلِنَّ أَوْ لَـتُـكْـرَهِـنَّـهْ
إِنْ أَجْلَـبَ النَّـاسُ وَشَـدُّوا الرَّنَّـهْ
مَـا لِي أَرَاكِ تَكْرَهِيـنَ الْجَنَّـهْ؟!
قَـدْ طَـالَ مَـا قَـدْ كُنْـتِ مُطْمَئِنَّهْ
هَـلْ أَنْـتِ إِلَّا نُطْفَـةٌ فِي شَـنَّهْ

وَارْتَجَزَ أَيْضًا:

يَـا نَفْـسُ إِنْ لَا تُقْتَـلِي تَمُوتِـي
هَـذَا حِمَـامُ الْمَـوْتِ قَـدْ صَلِيتِ
وَمَـا تَمَنَّيْـتِ فَقَـدْ أُعْطِيـتِ
إِنْ تَفْعَـلِي فِعْلَهَـا هُدِيـتِ

وَمَا زَالَ «عَبْـدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْـهُ ـ يُقَاتِلُ وَيَضْرِبُ حَتَّى أَدْرَكَتْهُ مَنِيَّتُهُ، وَجَاءَتْهُ شَهَادَتُهُ الَّتِي تَمَنَّى وَأَرَادَ.

❊❊❊

فَنَادَى «ثَابِتُ بْنُ أَقْرَمَ» فِي الْمُسْلِمِينَ:

ـ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ اصْطَلِحُوا عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ...

وَمَا زَالَ بِهِمْ حَتَّى اتَّفَقُوا عَلَى تَوْلِيَةِ الْإِمَارَةِ لِـ «خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ، وَاسْتَطَاعَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أَنْ يَحْمِيَ الْمُسْلِمِينَ، وَيَحْفَظَهُمْ وَيُرْهِبُ جُنُودَ جَيْشِ الْعَدُوِّ؛ بِمَا آتَاهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ كَفَاءَةٍ فِي فُنُونِ الْقِيَادَةِ وَالْقِتَالِ.

اتَّبَعَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ خُطَّةً جَدِيدَةً، بَعْدَ أَنْ حَجَزَ الظَّلَامُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ الْمُتَقَاتِلَيْنِ، فَفِي صَبِيحَةِ الْيَوْمِ التَّالِي غَيَّرَ مَوَاقِعَ قُوَّاتِهِ، وَجَعَلَ الْمَيْمَنَةَ مَيْسَرَةً، وَالْمَيْسَرَةَ مَيْمَنَةً، وَهَكَذَا فَعَلَ فِي بَاقِي الْأَجْنِحَةِ وَالْكَتَائِبِ، ثُمَّ أَقَامَ جَمَاعَةً فِي مُؤَخِّرَةِ جَيْشِهِ تُثِيرُ الْغُبَارَ فِي الْفَضَاءِ...

وَلَمَّا الْتَقَى الْمُسْلِمُونَ بِالرُّومِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، ظَنَّ جُنُودُ الرُّومِ أَنَّ مَدَدًا جَاءَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ، فَظَهَرَتْ فِي مَيْدَانِ الْقِتَالِ وُجُوهٌ جَدِيدَةٌ، وَأَنَّ مَدَدًا آخَرَ آتِيهِمْ مِنْ بَعِيدٍ يُثِيرُ الْغُبَارَ...

وَمَا زَالَ «خَالِدٌ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ يَتَلَطَّفُ فِي الْمَوْقِفِ وَيُدَارِيهِ، حَتَّى انْصَرَفَ الرُّومُ عَنِ الْقِتَالِ، فَعَادَ بِالْجَيْشِ الْإِسْلَامِيِّ إِلَى «الْمَدِينَةِ».

وَهُنَا، قَدْ يَتَسَاءَلُ أَحَدُنَا: لِمَاذَا لَمْ يُوَلِّ رَسُولُ اللهِ ﷺ «خَالِدًا» قِيَادَةَ الْجَيْشِ مُنْذُ الْيَوْمِ الْأَوَّلِ؟ أَوْ مِنْ حِينِ خُرُوجِهِ مِنَ «الْمَدِينَةِ»؟

وَالْإِجَابَةُ فِي مُنْتَهَى الْوُضُوحِ، فَقَدْ كَانَ «خَالِدٌ» حَدِيثَ عَهْدٍ بِإِسْلَامٍ، وَالسَّابِقُونَ إِلَى الْإِيمَانِ أَوْلَى مِنْ غَيْرِهِمْ بِالْقِيَادَةِ وَالصَّدَارَةِ...

❋❋❋

وَلَمَّا وَصَلَ الْجَيْشُ إِلَى «الْمَدِينَةِ»، اسْتَقْبَلَهُ بَعْضُ النَّاسِ بِازْوِرَارٍ وَجَفَاءٍ، وَتَصَايَحَ آخَرُونَ فِي وَجْهِ الْجُنْدِ قَائِلِينَ:

- يَا فُرَّارُ... يَا فُرَّارُ!!

فَاشْتَكَى قَادَةُ الْفِرَقِ، وَالْأَفْرَادِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الْمَهَانَةِ الَّتِي يَلْقَوْنَهَا، وَمِنَ التَّحْقِيرِ الَّذِي عُومِلُوا بِهِ، وَمِنَ الْقَسْوَةِ الَّتِي وُجِّهَتْ إِلَيْهِمْ، وَخُصُوصًا كَلِمَةَ «فُرَّارٍ»؛ لِأَنَّهَا تَمَسُّ صَمِيمَ وُجْدَانِهِمْ، وَعَمِيقَ مَشَاعِرِهِمْ، وَحِسَّهُمُ الْإِيمَانِيَّ.

فَتَلَطَّفَ بِهِمُ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ، وَوَاسَاهُمْ بِلَيِّنِ الْكَلَامِ وَقَالَ لَهُمْ:

- بَلْ أَنْتُمُ الْكُرَّارُ.

❊❊❊

ثُمَّ تَوَجَّهَ ﷺ إِلَى دَارِ «جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ» فَجَمَعَ إِلَيْهِ أَبْنَاءَهُ وَعَزَّاهُمْ فِي أَبِيهِمْ، وَضَمَّهُمْ إِلَيْهِ وَقَبَّلَهُمْ، ثُمَّ قَالَ لِـ «أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ» - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - زَوْجَةِ «جَعْفَرٍ»:

- إِنَّ اللهَ قَدْ أَبْدَلَ «جَعْفَرًا» جَنَاحَيْنِ يَطِيرُ بِهِمَا فِي الْجَنَّةِ. (عِوَضًا عَنْ ذِرَاعَيْهِ اللَّتَيْنِ احْتَضَنَ بِهِمَا رَايَةَ النَّبِيِّ ﷺ، حِفَاظًا عَلَيْهَا مِنْ أَنْ تَسْقُطَ).

الْفَتْحُ الْمُبِينُ

قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ ﴾ (التَّوْبَةُ: 1 ، 2).

وَقَالَ سُبْحَانَهُ:

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴾.

(سورة النَّصْرِ)

❊❊❊

يَا رَبِّ إِنِّي نَاشِدٌ «مُحَمَّدَا» حِلْفَ أَبِيهِ وَأَبِينَا الْأَتْلَدَا
قَدْ كُنْتُمُ وُلْدًا وَكُنَّا وَالِدَا ثَمَّةَ أَسْلَمْنَا فَلَمْ نَنْزِعْ يَدَا
فَانْصُرْ رَسُولَ اللهِ نَصْرًا أَبَدَا وَادْعُ عِبَادَ اللهِ يَأْتُوا مَدَدَا

فِيهِمْ رَسُولُ اللهِ قَدْ تَجَرَّدَا إِنْ سِيمَ خَسْفًا وَجْهُهُ تَرَبَّدَا
فِي فَيْلَقٍ كَالْبَحْرِ يَجْرِي مُزْبِدَا إِنَّ قُرَيْشًا أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِدَا
وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمُؤَكَّدَا وَجَعَلُوا فِي كِدَاءَ رَصَدَا
وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتُ أَدْعُو أَحَدَا فَهُمْ أَذَلُّ وَأَقَلُّ عَدَدَا
هُمْ بَيَّتُونَا بِالْوَتِيرِ هُجَّدَا وَقَتَلُونَا رُكَّعًا وَسُجَّدَا

تِلْكَ ـ أَيُّهَا الْقَارِئُ الْعَزِيزُ ـ الْأَبْيَاتُ الَّتِي نَاشَدَ بِهَا «عَمْرُو بْنُ سَالِمٍ الْخُزَاعِيُّ» رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَالَّتِي اسْتَصْرَخَهُ فِيهَا وَاسْتَنْصَرَهُ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَاسْتَنْجَدَ بِهِ ﷺ كَيْ يَرُدَّ عَنْهُ الْأَذَى، وَيَرْفَعَ عَنْهُ الْحَيْفَ.

فَمَنْ هُوَ «عَمْرُو بْنُ سَالِمٍ»؟ وَلِمَاذا لَجَأَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؟

حِينَ تَمَّ عَقْدُ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ بَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ، كَانَ مِنْ ضِمْنِ بُنُودِهِ وَشُرُوطِهِ: أَنَّ مَنْ أَرَادَ مِنَ الْعَرَبِ أَنْ يَدْخُلَ فِي تَحَالُفٍ وَعَهْدٍ مَعَ قُرَيْشٍ فَلْيَدْخُلْ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ فِي تَحَالُفٍ وَعَهْدٍ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَهُوَ وَمَا أَرَادَ.

عِنْدَئِذٍ تَوَاثَبَتْ قَبِيلَتَا «بَكْرٍ» وَ«خُزَاعَةَ»، فَدَخَلَتْ «بَكْرٌ» فِي عَهْدِ «قُرَيْشٍ»، وَدَخَلَتْ «خُزَاعَةُ» فِي حِلْفِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ.

وَأَيْضًا...

فَإِنَّ «خُزَاعَةَ» كَانَتْ مُنْذُ الْقِدَمِ، وَمِنْ زَمَنٍ بَعِيدٍ تُحَالِفُ «بَنِي هَاشِمٍ»،

مُنْذُ أَيَّامِ «عَبْـدِ الْمُطَّلِبِ»، إِذَنْ فَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْقَبِيلَـةُ دَائِمًا وَأَبَدًا عَيْبَةَ (وِعَاءٌ مِنْ جِلْدٍ) الْهَاشِمِيِّينَ، وَرِدْءَهُمْ، وَحَلِيفَهُمُ الدَّائِمَ.

وَحَدَثَ فِي السَّـنَةِ الثَّامِنَـةِ لِلْهِجْرَةِ، أَنَّ «بَكْرًا» غَـدَرَتْ بِـ «خُزَاعَةَ»، وَانْقَضُّوا عَلَيْهِـمْ فِي دِيَارِهِمْ يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَهُمْ، وَيَسْـتَبِيحُونَ نِسَـاءَهُمْ، وَيَسْلُبُونَهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَمَتَاعَهُمْ.

وَعَاوَنَتْ «قُرَيْشٌ» «بَكْرًا» عَلَى «خُزَاعَةَ»، وَأَمَدَّتْهُمْ بِالْمَالِ وَالسِّـلَاحِ؛ دُونَ أَدْنَى مُرَاعَـاةٍ لِلْحِـلْفِ الَّذِي كَـانَ قَائِمًا، وَلَمَّا تَمْضِ عَلَى تَوْقِيعِهِ إِلَّا سَنَتَانِ اثْنَتَانِ.

فَجَاءَ «عَمْرُو بْنُ سَـالِمٍ الْخُزَاعِيُّ» إِلَى «الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ» يُبَلِّغُ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَيْفَ نَقَضَتْ «قُرَيْشٌ» وَ«بَكْـرٌ» الْعَهْدَ، وَفَضُّوا الْمِيثَاقَ، وَطَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يُنْجِدَهُ وَقَوْمَهُ.

سَـمِعَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ «عَمْرِو بْنِ سَالِمٍ» مَا سَمِعَ، فَلَمَّا انْتَهَى، قَالَ لَهُ:

ـ نُصِرْتَ يَا «عَمْرُو بْنَ سَالِمٍ».

وَلَمْ يَزِدْ عَلَى ذَلِكَ شَـيْئًا؛ كَمَا انْصَرَفَ «عَمْرٌو» إِلَى أَهْلِهِ وَبَلَدِهِ مُطْمَئِنًّا إِلَى وَعْدِ النَّبِيِّ ﷺ.

ثُمَّ إِنَّ رَسُـولَ اللهِ ﷺ قَدْ عَـزَمَ عَلَى ضَرْبِ قُرَيْشٍ الضَّرْبَةَ الْحَاسِـمَةَ الْفَاصِلَةَ، وَغَزْوِهَا فِي عُقْرِ دَارِهَـا، وَفَتْحِ «مَكَّةَ»، وَتَطْهِيرِ «الْكَعْبَةِ»، بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ، مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ.

وَلَكِنَّهُ ﷺ لَمْ يُـرِدْ أَنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ الْأَمْرَ عَلَنًا وَظَاهِرًا، بَلْ أَرَادَهُ أَنْ يَبْقَى طَيَّ الْكِتْمَانِ، وَأَنْ تُفَاجَأَ بِهِ قُرَيْشٌ، لِسَـبَبَيْنِ اثْنَيْـنِ: حَقْنًا لِلدِّمَاءِ أَنْ تُرَاقَ فِي «مَكَّةَ»، مَعَ تَحْقِيقِ النَّصْرِ الْعَسْـكَرِيِّ الْمَطْلُوبِ، بِالِاعْتِمَادِ عَلَى عُنْصُرِ الْمُفَاجَأَةِ. فَأَوْعَزَ ﷺ إِلَى النَّاسِ بِالِاسْـتِعْدَادِ، الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ، وَكُلَّ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ أَسْلَمُوا، وَالْقَبَائِلَ الَّتِي دَخَلَتْ فِي دِينِ اللهِ.

❊❊❊

مِنْ جِهَةٍ ثَانِيَـةٍ، أَدْرَكَتْ قُرَيْشٌ بَعْدَ فَوَاتِ الْأَوَانِ مَـا ارْتَكَبَتْهُ مِنْ خَطَإٍ كَبِيرٍ، وَمِنْ نَقْضٍ لِلْعَهْدِ، وَتَمْزِيقٍ لِلْمِيثَاقِ؛ فَأَرْسَـلَتْ كَبِيرَهَا «أَبَا سُفْيَانَ» إِلَى «الْمَدِينَةِ» مِنْ أَجْلِ تَوْثِيقِ الْعَقْدِ الْقَدِيمِ، وَإِطَالَةِ الْمُدَّةِ، وَاسْـتِدْرَاكِ كُلِّ خَطَإٍ.

وَحِينَ وَصَلَ «أَبُو سُـفْيَانَ» إِلَى «الْمَدِينَةِ» لَمْ يَجْرُؤْ عَلَى مُقَابَلَةِ رَسُـولِ اللهِ ﷺ، فَمَضَى يَسْتَشْـفِعُ الْكِبَارَ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَذَهَبَ أَوَّلًا إِلَى «أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ»، وَطَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَتَشَفَّعَ لَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمْ يَتَجَاوَبْ مَعَهُ، ثُمَّ إِلَى «عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ» فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ فِي الْكَلَامِ، ثُمَّ قَصَدَ إِلَى «عَلِيِّ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ»، فَلَمْ يُوَفَّقْ...

فَظَلَّ فِي حَيْرَةٍ... ثُمَّ قَصَدَ إِلَى دَارِ ابْنَتِهِ «أُمِّ حَبِيبَةَ» أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، وَزَوْجَةِ الرَّسُـولِ الْأَمِينِ، فَاسْـتَقْبَلَتْهُ، فَلَمَّا أَرَادَ الْجُلُوسَ، شَـدَّتِ الْفِرَاشَ مِنْ تَحْتِهِ، فَتَعَجَّبَ وَقَالَ:

ـ لَقَدْ أَصَابَكِ مِنْ بَعْدِي شَرٌّ يَا ابْنَتِي، لَا أَدْرِي أَرَغِبْتِ بِي عَنِ الْفِرَاشِ؟ أَمْ رَغِبْتِ بِهِ عَنِّي؟

فَقَالَتْ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ:

ـ لَمْ يُصِبْنِي شَـرٌّ أَبَدًا، بَلْ أَصَابَنِي كُلُّ الْخَيْرِ، إِذْ آمَنْتُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، أَمَّا أَمْرُ الْفِرَاشِ فَإِنَّهُ فِرَاشُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَنْتَ امْرُؤٌ مُشْرِكٌ نَجِسٌ...

وَخَرَجَ «أَبُو سُفْيَانَ» مِنْ عِنْدِ ابْنَتِهِ وَقَدِ اسْوَدَّتِ الدُّنْيَا فِي عَيْنَيْهِ، ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَى الْمَسْـجِدِ، بَعْدَ أَنْ أَعْلَنَ عَلَى الْمَلَإِ أَنَّهُ قَدْ أَجَارَ النَّاسَ، كَمَا أَشَارَ عَلَيْهِ «عَلِيٌّ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ.

وَفِي الْمَسْجِدِ، حَاوَلَ أَنْ يُحَقِّقَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا جَاءَ مِنْ أَجْلِهِ، فَلَمْ يُفْلِـحْ، كَمَا أَنَّهُ لَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَقِفَ عَلَى حَقِيقَـةِ نَوَايَا النَّبِيِّ الْعَظِيمِ، فَعَادَ مِنَ «الْمَدِينَةِ» إِلَى «مَكَّةَ» خَالِيَ الْوِفَاضِ، لَمْ يُحَقِّقْ غَرَضًا.

وَلَمَّا سَـأَلَتْهُ زَوْجَتُهُ «هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ» عَمَّا حَدَثَ مَعَهُ فِي «الْمَدِينَةِ» رَوَى لَهَا التَّفَاصِيلَ، وَكَيْفَ أَنَّهُ عَادَ خَائِبًا صِفْرَ الْيَدَيْنِ، فَقَالَتْ لَهُ:

ـ قُبِّحْتَ مِنْ سَفِيرِ قَوْمٍ.

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَسْتَعِدُّ، وَيَدْعُو اللهَ تَعَالَى أَنْ يَأْخُذَ عَلَى أَسْمَاعِ قُرَيْشٍ وَعُيُونِهِمْ، فَلَا يَدْرُوا إِلَّا وَالْمُسْلِمُونَ قَدْ فَاجَئُوهُمْ.

وَحَدَثَ فِي ذَاتِ يَـوْمٍ أَنْ دَعَـا ﷺ إِلَيْهِ «الزُّبَـيْرَ بْنَ الْعَـوَّامِ» وَ«عَـلِيَّ ابْنَ أَبِي طَالِبٍ» وَأَمَـرَهُمَا أَنْ يَلْحَقَـا امْـرَأَةً قَـدْ خَرَجَتْ مِـنَ «الْمَـدِينَـةِ»

بِاتِّجَـــاهِ «مَكَّةَ»، تَحْمِلُ إِلَى قُرَيْشٍ كِتَـــابَ تَحْذِيرٍ وَتَنْبِيهٍ، قَـــدْ كَتَبَهُ أَحَدُ الصَّحَابَةِ!!

وَصَلَ «الزُّبَيْرُ» وَ«عَلِيٌّ» إِلَى عِدَّةِ أَمْيَالٍ مِنَ «الْمَدِينَةِ»، فَأَمْسَكُوا بِالْمَرْأَةِ، وَطَلَبُوا إِلَيْهَـــا أَنْ تُعْطِيَهُمُ الْكِتَـــابَ، فَأَنْكَرَتْ أَوَّلًا، ثُـــمَّ هَدَّدَاهَا بِالْقَتْلِ، فَخَافَتْ، ثُمَّ حَلَّتْ ذَوَائِبَ (ضَفَائِرَ) شَـــعْرِهَا وَفَضَّتْهُ، وَاسْـــتَخْرَجَتْ مِنْهُ الْكِتَابَ، فَإِذَا هُوَ مِنْ «حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ».

فَلَمَّا عَادَا بِالْمَرْأَةِ وَالْكِتَابِ إِلَى «الْمَدِينَةِ»، اسْتَحْضَرَ النَّبِيُّ ﷺ «حَاطِبًا» وَسَأَلَهُ عَنِ الدَّافِعِ إِلَى ذَلِكَ؛ فَأَقْسَمَ «حَاطِبٌ» أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ سُوءًا بِالْمُسْلِمِينَ، فَقَامَ «عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ» وَقَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ:

ـ دَعْنِي أَضْرِبْ رَقَبَةَ هَذَا الْمُنَافِقِ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

ـ وَمَا يُدْرِيكَ يَا «عُمَرُ».. لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ «بَدْرٍ» فَقَالَ لَهُمْ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ.

وَفِي أَوَائِـــلِ رَمَضَانَ مِـــنْ ذَلِكَ الْعَامِ، خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مِـــنَ «الْمَدِينَةِ» فِي حَشْدٍ وَجَيْشٍ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ مَثِيلٌ، قِوَامُهُ عَشَرَةُ آلَافِ مُقَاتِلٍ، مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَمُسْـــلِمِي الْقَبَائِلِ الَّتِي تَوَافَدَتْ عَلَى «الْمَدِينَةِ»؛ كَيْ تُشَارِكَ فِي الْجِهَادِ، وَتَتَحَمَّلَ مَسْؤُولِيَّتَهَا، وَقَدْ عُمِّيَتِ الْأَخْبَارُ عَلَى قُرَيْشٍ تَمَامًا.

كَانَ تَعْدَادُ الْمُسْلِمِينَ الْخَارِجِينَ إِلَى الْقِتَالِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَزِيدُ عَلَى عَشْرَةِ آلَافِ مُقَاتِلٍ؛ يَمْلَؤُونَ الْأَرْضَ، الْبَوَادِيَ وَالْقِفَارَ، يَرْتَجُّ الثَّرَى تَحْتَ وَطْأَةِ سَنَابِكِ خُيُولِهِمْ، وَحَوَافِرِ إِبِلِهِمْ.

وَفِي الطَّرِيقِ الْتَقَى ﷺ بِعَمِّهِ «الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ مُهَاجِرًا بِعِيَالِهِ وَأَهْلِهِ إِلَى «الْمَدِينَةِ»، فَضَمَّهُ إِلَيْهِ، وَعَرَفَ مِنْهُ أَنَّ قُرَيْشًا لَا تَزَالُ فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهَا لَا تَدْرِي مَا يُخَبِّئُهُ لَهَا الْقَدَرُ، أَوْ مَا يَجِيءُ بِهِ الْغَدُ مِنَ الْمُفَاجَآتِ وَالْأَحْدَاثِ.

كَانَ «أَبُو سُفْيَانَ» فِي قَلَقٍ وَهَمٍّ، فَخَرَجَ مِنْ «مَكَّةَ» مَعَ «حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ» يَسْتَطْلِعَانِ الْأَخْبَارَ، وَالْأَخْبَارُ عَنْهُمْ فِي نَجْوَةٍ وَغَيْبَةٍ، وَيَتَسَقَّطَانِ شَخْصًا قَادِمًا يَعْرِفَانِ مِنْهُ أَحْوَالَ «الْمَدِينَةِ»، وَعَزْمَ الرَّسُولِ ﷺ.

حَتَّى انْتَهَيَا ذَاتَ لَيْلَةٍ إِلَى خِيَامٍ كَثِيرَةٍ وَنِيرَانٍ مُوقَدَةٍ، فَظَنَّاهَا عَلَى الْبُعْدِ أَحَدَ مَضَارِبِ الْقَبَائِلِ، وَبَدَا يُخَمِّنَانِ لِمَنْ تَكُونُ؟ وَمَنْ هِيَ؟

وَإِنَّهُمَا لَفِي ذُهُولِهِمَا وَوَهْمِهِمَا وَتَسَاؤُلِهِمَا، أَمْسَكَ بِهِمَا حَرَسُ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَجُوبُونَ الْمِنْطَقَةَ، وَأَتَوْا بِهِمَا إِلَى الْمُعَسْكَرِ لِيَدْخُلُوا بِهِمَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وَالْتَقَى «الْعَبَّاسُ» عَمُّ النَّبِيِّ ﷺ بِـ «أَبِي سُفْيَانَ»، وَكَانَ «الْعَبَّاسُ» يَرْكَبُ بَغْلَةَ النَّبِيِّ؛ فَأَخَذَهُ مِنَ الْحَرَسِ وَأَرْدَفَهُ خَلْفَهُ، إِذْ كَانَتْ بَيْنَهُمَا صَدَاقَةٌ مَتِينَةٌ، وَعَلَاقَةٌ وَطِيدَةٌ، وَأَتَى «الْعَبَّاسُ» بِـ «أَبِي سُفْيَانَ» إِلَى خَيْمَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَعَهُمَا «حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ».

وَفِي الطَّرِيقِ بَيْنَ خِيَامِ الْمُعَسْكَرِ الْكَبِيرِ، كَانَ «أَبُو سُفْيَانَ» فِي حَالَةِ ذُهُولٍ وَشُرُودٍ، لِكَثْرَةِ مَا شَاهَدَ مِنَ الْجُنْدِ وَالنِّيرَانِ، فَلَمَّا مَرُّوا بِـ «عُمَرَ ابْنِ الْخَطَّابِ» قَفَزَ مِنْ مَكَانِهِ، وَأَرَادَ أَنْ يُمْسِكَ بِـ «أَبِي سُفْيَانَ»، فَحَجَزَ بَيْنَهُمَا «الْعَبَّاسُ»، فَأَسْرَعَ «عُمَرُ» إِلَى خَيْمَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ...

وَهُنَاكَ... وَقَفَ «أَبُو سُفْيَانَ» وِقْفَةَ الْأَسِيرِ الذَّلِيلِ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَحَاوَلَ «عُمَرُ» أَنْ يَسْتَصْدِرَ مِنْ فَمِ النَّبِيِّ ﷺ حُكْمًا بِإِبَاحَةِ دَمِ هَذَا الْمُشْرِكِ، إِلَّا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَمَرَ عَمَّهُ بِاحْتِجَازِ «أَبِي سُفْيَانَ» إِلَى الصَّبَاحِ.

وَلَمَّا أُتِيَ بِالْأَسِيرَيْنِ، أَسْلَمَ «حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ» وَتَرَدَّدَ «أَبُو سُفْيَانَ»، فَكَانَ «الْعَبَّاسُ» يَحُثُّهُ عَلَى الْإِيمَانِ؛ حَتَّى لَا يُرْدِيَهُ كُفْرُهُ، وَأَخِيرًا أَسْلَمَ.

ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَمَرَ عَمَّهُ «الْعَبَّاسَ» أَنْ يَقِفَ بِـ «أَبِي سُفْيَانَ» عِنْدَ فَمِ الْوَادِي؛ كَيْ يَرَى الْجَيْشَ الْإِسْلَامِيَّ الْفَاتِحَ فِي تَرْتِيبِهِ، وَكَثْرَتِهِ، وَقُوَّتِهِ، لَعَلَّهُ يَكُونُ رَسُولَ إِنْذَارٍ إِلَى «قُرَيْشٍ» فِي «مَكَّةَ»، فَلَا تُكَابِرُ، وَلَا تُعَانِدُ، وَلَا تُقَاتِلُ؛ حِرْصًا عَلَى أَنْ لَا تُرَاقَ دِمَاءٌ فِي الْحَرَمِ.

وَبَدَأَتْ كَتَائِبُ الْجَيْشِ بِالتَّتَابُعِ، يَرْدَفُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَرَاحَ «أَبُو سُفْيَانَ» يَسْأَلُ «الْعَبَّاسَ» عَنْ كُلِّ كَتِيبَةٍ، فَيَقُولُ لَهُ «الْعَبَّاسُ» مَثَلًا:

- هَذِهِ «مُزَيْنَةُ»...

فَيَقُولُ «أَبُو سُفْيَانَ»:

- مَا لِي وَلِـ«مُزَيْنَةَ»...

وَهَكَذَا...

فَلَمَّا مَـرَّتِ الْكَتِيبَةُ الْخَضْرَاءُ، كَتِيبَةُ رَسُـولِ اللهِ ﷺ، مَعَهُ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَـارُ، لَا تُرَى مِنْهُمْ إِلَّا الْحِـدَقُ مِنَ الْحَدِيدِ وَالدُّرُوعِ، سَـأَلَ «أَبُو سُفْيَانَ» «الْعَبَّاسَ»:

- وَهَذِهِ مَنْ؟

فَقَالَ «الْعَبَّاسُ»:

- هَذِهِ كَتِيبَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَقَالَ «أَبُو سُفْيَانَ»:

- لَقَدْ أَصْبَحَ الْيَوْمَ مُلْكُ ابْنِ أَخِيكَ عَظِيمًا يَا «أَبَا الْفَضْلِ».

فَرَدَّ عَلَيْهِ «الْعَبَّاسُ»:

- إِنَّهَا النُّبُوَّةُ يَا «أَبَا سُفْيَانَ».

ثُمَّ إِنَّ «سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ» حِينَ لَمَحَ «أَبَا سُفْيَانَ» وَاقِفًا مَعَ «الْعَبَّاسِ»، نَادَى قَائِلًا:

- الْيَوْمُ يَوْمُ الْمَلْحَمَةِ، الْيَوْمُ تُسْبَى «الْكَعْبَةُ»، الْيَوْمُ يُذِلُّ اللهُ قُرَيْشًا.

فَتَأَذَّى «أَبُو سُـفْيَانَ» مِنْ هَذَا الْقَوْلِ وَامْتَعَـضَ، وَأَتَى مَعَ «الْعَبَّاسِ» إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَشْكُو إِلَيْهِ مَا سَمِعَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

- الْيَوْمُ يَوْمُ الْمَرْحَمَةِ، الْيَوْمُ تُكْسَى «الْكَعْبَةُ»، الْيَوْمُ يُعِزُّ اللهُ قُرَيْشًا.

ثُـمَّ أَمَرَ بِدَفْعِ رَايَـةِ الْأَنْصَارِ إِلَى «قَيْسِ بْنِ سَـعْدٍ»، وَأَخَذَهَا مِنْ يَدِ أَبِيهِ «سَعْدٍ»، ثُمَّ قَالَ «الْعَبَّاسُ» لِابْنِ أَخِيهِ رَسُولِ اللهِ ﷺ:

- يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ «أَبَا سُفْيَانَ» رَجُلٌ يُحِبُّ الْفَخْرَ، فَاجْعَلْ لَهُ شَيْئًا.

فَقَالَ ﷺ:

- مَنْ دَخَلَ «الْكَعْبَةَ» (مِنْ قُرَيْشٍ) فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ دَارَ «أَبِي سُـفْيَانَ» وَ«حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ» فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ عَلَيْهِ فَهُوَ آمِنٌ.

كَمَا طَلَبَ مِنْ «أَبِي سُـفْيَانَ» أَنْ يُعَجِّلَ بِالْوُرُودِ إِلَى «مَكَّةَ»، وَيُعْلِنَ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ. وَرَاحَ «أَبُو سُفْيَانَ» يُرَدِّدُ فِي أَحْيَاءِ «مَكَّةَ» وَمِنْ فَوْقِ جِبَالِهَا، وَفِي أَنْدِيَتِهَا، مَا طَلَبَهُ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ.

وَمَعَ إِطْلَالَةِ الْيَوْمِ الْحَادِي وَالْعِشْـرِينَ مِنْ رَمَضَـانَ عَامَ ثَمَانٍ لِلْهِجْرَةِ، كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْخُلُ «مَكَّةَ».

وَكَانَتْ إِحْدَى فِرَقِ الْمُسْـلِمِينَ بِقِيَـادَةِ «خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْـهُ ـ تَدْخُلُ مِنْ أَعْلَى «مَكَّةَ»، وَهُنَاكَ تَجَمْهَرَ عَدَدٌ مِنْ شَـبَابِ «قُرَيْشٍ» وَ«بَكْرٍ» يَرْفُضُونَ الْخُضُوعَ لِلِاسْتِسْـلَامِ، وَعَاهَدُوا عَلَى الْقِتَالِ. فَتَصَدَّى لَهُمْ «خَالِدٌ» وَحَسَمَ أَمْرَهُمْ فِي وَقْتٍ يَسِيرٍ، ثُمَّ دَخَلَ «مَكَّةَ» بِفِرْقَتِهِ.

كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَوْقَ نَاقَتِهِ «الْقَصْوَاءِ»، فَلَمَّا ظَهَرَ لَهُ الْبَيْتُ الْحَرَامُ، خَرَّ سَـاجِدًا عَلَى رَاحِلَتِهِ حَتَّى مَسَّـتْ لِحْيَتُهُ الشَّـرِيفَةُ ظَهْرَهَا؛ خُشُوعًا وَشُكْرًا لِلهِ تَعَالَى.

وَرَاحَ يُرَدِّدُ، وَيُرَدِّدُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ وَرَائِهِ:

ـ اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، وَالْحَمْدُ لِلهِ كَثِيرًا...

الْحَمْدُ لِلهِ، صَدَقَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، لَا شَيْءَ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ.

ثُمَّ أَتَى الْبَيْتَ الْحَرَامَ، وَأَخَذَ يُشِيرُ إِلَى الْأَصْنَامِ الْمَاثِلَةِ حَوْلَهُ بِمِحْجَنٍ (عُودٍ مُعْوَجِّ الطَّرَفِ) كَانَ يَحْمِلُهُ بِيَدِهِ، وَيَقُولُ:

ـ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا.

فَرَاحَتِ الْأَصْنَامُ تَتَهَاوَى إِلَى الْأَرْضِ وَاحِدًا بَعْدَ الْآخَرِ، ثُمَّ أَمَرَ بِمِفْتَاحِ «الْكَعْبَةِ»، فَجِيءَ لَهُ بِهِ، فَفَتَحَ وَدَخَلَ وَكَبَّرَ، وَأَمَرَ بِإِزَالَةِ مَا عَلَى الْجُدْرَانِ مِنْ رُسُومٍ وَزَخَارِفَ؛ لِيُطَهِّرَ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ مِنْ كُلِّ أَثَرٍ مِنْ آثَارِ الْجَاهِلِيَّةِ الْحَمْقَاءِ؛ ثُمَّ خَرَجَ وَأَعَادَ الْمِفْتَاحَ إِلَى صَاحِبِهِ مِنْ «بَنِي شَيْبَةَ»، فَكَانَ فِي أَيْدِيهِمْ دَائِمًا.

وَحَانَ وَقْتُ الظَّهِيرَةِ، فَأَمَرَ ﷺ «بِلَالَ بْنَ رَبَاحٍ» أَنْ يَعْتَلِيَ ظَهْرَ «الْكَعْبَةِ» وَيُؤَذِّنَ...

وَانْطَلَقَ النِّدَاءُ الْإِلَهِيُّ مِنْ فَمِ «بِلَالٍ» لِأَوَّلِ مَرَّةٍ يَتَرَدَّدُ عَالِيًا قَوِيًّا فِي بِطَاحِ «مَكَّةَ»... وَقَالَ بَعْضُ الْكَافِرِينَ الْمُشْرِكِينَ يَتَلَاوَمُونَ:

- الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي تَوَفَّى أَبِي قَبْلَ أَنْ يَسْمَعَ هَذَا النِّدَاءَ.

فَيَرُدُّ عَلَيْهِ الْآخَرُ:

- وَكَذَلِكَ أَنَا.

وَاجْتَمَعَ النَّاسُ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ وَصَوْبٍ، وَتَجَمْهَرُوا فِي فِنَاءِ الْبَيْتِ، وَوَقَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَخْطُبُ فِيهِمْ، وَلَمَّا انْتَهَى قَالَ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا وَعَانَدُوا، وَطَغَوْا وَتَجَبَّرُوا، وَحَارَبُوا:

- مَا تَظُنُّونَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟

فَقَالُوا:

- أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ.

فَقَالَ:

- اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ.

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ عُرِفَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ قُرَيْشٍ الَّذِينَ أَسْلَمُوا يَوْمَ الْفَتْحِ بِـ «الطُّلَقَاءِ».

❊❊❊

وَكَانَ ﷺ قَدْ أَهْدَرَ دَمَ طَائِفَةٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، لَا يَقْبَلُ مِنْهُمْ عَهْدًا وَلَا ذِمَّةً وَلَا شَفَاعَةً، وَلَوْ تَعَلَّقُوا بِأَسْتَارِ «الْكَعْبَةِ»، فَذَهَبَ هَؤُلَاءِ فَارِّينَ هَائِمِينَ عَلَى وُجُوهِهِمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ عَادَ بَعْدَ زَمَنٍ طَوِيلٍ مُسْلِمًا مُسْتَغْفِرًا تَائِبًا،

فَقُبِلَ فِي عِدَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَمِنْهُمْ مَنِ اسْتَمَرَّ فِي صُدُودِهِ وَنُكْرَانِهِ وَضَلَالِهِ، فَمَاتَ مُشْرِكًا كَافِرًا.

وَأَقَامَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِـ «مَكَّةَ» أَيَّامًا.

«مَكَّةَ» الَّتِي أُكْرِهَ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْهَا مُنْذُ ثَمَانِي سَنَوَاتٍ وَحِيدًا فَرِيدًا، مُهَاجِرًا مُتَخَفِّيًا.

«مَكَّةَ» الَّتِي نَاصَبَتْهُ الْعَدَاءَ الشَّدِيدَ، وَأَرْهَقَتْ أَصْحَابَهُ بِالْعَذَابِ الْوَاصِبِ وَالتَّنْكِيلِ، وَنَالَتْ مِنْهُ هُوَ ﷺ.

«مَكَّةَ» الَّتِي كَانَتْ تُعَرْبِدُ فِي رَأْسِهَا جَاهِلِيَّةُ الشِّرْكِ، وَغُرُورُ الْأَوْهَامِ وَالْأَضَالِيلِ، فَتَطْغَى وَتَتَجَبَّرُ وَتَتَكَبَّرُ، ثُمَّ تُجَيِّشُ الْجُيُوشَ لِمُحَارَبَتِهِ وَلِقِتَالِهِ.

«مَكَّةَ» مَوْطِنُهُ وَمَوْلِدُهُ وَصِبَاهُ وَشَبَابُهُ، بَيْتُهُ وَأَهْلُهُ وَعَشِيرَتُهُ.

❊❊❊

فَقَالَ بَعْضُ الْأَنْصَارِ لِبَعْضٍ:

- لَقَدْ لَقِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَهْلَهُ وَبَلَدَهُ، وَعَادَ إِلَى وَطَنِهِ فَاتِحًا ظَافِرًا مُؤَيَّدًا، فَهَيْهَاتَ أَنْ يُفَكِّرَ فِينَا بَعْدَ الْيَوْمِ، وَلَنْ يَعُودَ بِنَا وَمَعَنَا إِلَى «الْمَدِينَةِ».

وَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَاسْتَنْكَرَ وَتَعَجَّبَ، ثُمَّ قَالَ لِلْأَنْصَارِ:

- الْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ، وَاللهِ لَوْ سَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا وَسَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا، لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ.

فَارْتَاحَتْ نُفُوسُهُمْ، وَاطْمَأَنَّتْ قُلُوبُهُمْ، وَسُرِّيَ عَنْهُمْ.

وَعَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْمُسْلِمِينَ إِلَى «الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ»، بَعْدَ أَنْ أَكْرَمَهُ اللهُ تَعَالَى بِالْفَتْحِ الْعَظِيمِ، وَتَقْوِيضِ أَرْكَانِ الشِّرْكِ، وَتَحْطِيمِ الْأَصْنَامِ، وَإِزَالَةِ مَعَالِمِهَا مِنْ أُمِّ الْقُرَى «مَكَّةَ»، عَاصِمَةِ الْعَرَبِ وَقُطْبِ بِلَادِهِمْ، وَرَمْزِ وَحْدَتِهِمْ وَعِزَّتِهِمْ.

وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ قَوْلَهُ:

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾ ﴾ (سُورَةُ النَّصْرِ).

مِنْ حُنَيْنٍ إِلَى تَبُوكَ

قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (التَّوْبَةُ: 25 ، 26).

***

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ «حُنَيْنٍ»:

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ

أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ

***

فُتِحَتْ «مَكَّةُ»، وَاسْتَسْلَمَتْ «قُرَيْشٌ»، وَانْتَهَتْ أُسْطُورَةُ أَكْبَرِ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ وَأَشَدِّهَا كُفْرًا وَعِنَادًا.

«قُرَيْشٌ» الَّتِي ظَلَّتْ طَوَالَ عِشْرِينَ عَامًا تُنَاصِبُ الْإِسْلَامَ الْعَدَاءَ، وَتَقِفُ فِي وَجْهِهِ بِصَلَفٍ وَكِبْرِيَاءٍ.

وَهَا هِيَ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمَةٌ طَائِعَةٌ، بَعْضُهَا قَسْرًا، وَبَعْضُهَا إِذْعَانًا وَاقْتِنَاعًا؛ فَانْزَاحَتْ أَكْبَرُ عَقَبَةٍ مِنْ طَرِيقِ الزَّحْفِ الْإِسْلَامِيِّ إِلَى كُلِّ الْعُقُولِ وَالْقُلُوبِ.

وَلَكِنْ كَانَتْ هُنَاكَ بَعْضُ الْجُيُوبِ الَّتِي لَا بُدَّ مِنَ الْقَضَاءِ عَلَيْهَا، هَذِهِ الْجُيُوبُ عِبَارَةٌ عَنْ «أَصْنَامٍ» ضَخْمَةٍ كَبِيرَةٍ كَانَتْ تَقُومُ فِي بَعْضِ الْمَنَاطِقِ الْبَعِيدَةِ ـ نَوْعًا مَا ـ عَنْ «مَكَّةَ»، يَقْصِدُهَا الْقُرَشِيُّونَ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْعَرَبِ فِي مَوَاسِمَ مُعَيَّنَةٍ لِتَعْظِيمِهَا وَتَقْدِيسِهَا، وَتَقْدِيمِ النُّذُورِ لَهَا، وَإِحْرَاقِ الْبَخُورِ عِنْدَ أَقْدَامِهَا، مِثْلَ: «اللَّاتِ»، وَ«الْعُزَّى»، وَ«سُوَاعَ» وَ«مَنَاةَ».

فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْضَ السَّرَايَا بِقِيَادَةِ الْأَبْطَالِ الْأَشِدَّاءِ مِنْ أَصْحَابِهِ لِهَدْمِهَا، وَإِزَالَةِ كُلِّ أَثَرٍ لَهَا مِنَ الْوُجُودِ.

وَلَقَدْ لَقِيَتْ بَعْضُ السَّرَايَا مُقَاوَمَةً، وَلَكِنَّهَا ضَعِيفَةٌ لَا تَكَادُ تُذْكَرُ أَوْ يَبِينُ لَهَا أَثَرٌ.

وَأَيْضًا، وَهُنَا تَبْرُزُ عَقَبَةٌ كُبْرَى كَؤُودٌ (صَعْبَةٌ)، وَلَكِنَّهَا كَآخِرِ أَنْفَاسِ الشِّرْكِ تَتَرَدَّدُ فِي الْحَلْقِ، ثُمَّ لِتُلْفَظَ إِلَى الْأَبَدِ.

فَقَدْ قَامَ فِي «هَوَازِنَ» وَ«ثَقِيفٍ» مَغْرُورٌ أَحْمَقُ يُدْعَى «مَالِكَ بْنَ عَوْفٍ».

شَابٌّ لَا يَتَجَاوَزُ الثَّلَاثِينَ مِنْ عُمْرِهِ، فَأَلَّبَ الْقَبِيلَتَيْنِ الْكُبْرَيَيْنِ وَدَعَاهُمَا إِلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، مُتَصَوِّرًا أَنَّ الزَّعَامَةَ الَّتِي كَانَتْ فِي قُرَيْشٍ إِنَّمَا كَانَتْ بِسَبَبِ إِقَامَتِهَا فِي «مَكَّةَ»، عِنْدَ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ.

وَ«هَوَازِنُ» بِكَثْرَةِ تَعْدَادِ أَفْرَادِهَا، وَ«ثَقِيفٌ» بِمَا فِيهَا مِنْ بَأْسٍ وَشَجَاعَةٍ وَأَهْلِيَّةٍ عِلْمِيَّةٍ، هُمَا الْوَرِيثَتَانِ لِلزَّعَامَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْقَبَلِيَّةِ، وَأَنَّهُمَا بِتَحَالُفِهِمَا تَسْتَطِيعَانِ أَنْ تَرُدَّا هَجْمَةَ الْإِسْلَامِ، وَتَصُدَّا زَحْفَهُ؛ وَتَوَلِّيَ زِمَامِ الْمُبَادَرَةِ.

فَحَشَدُوا حُشُودَهُمْ، وَجَمَعُوا جُمُوعَهُمْ، وَخَرَجُوا خُرُوجًا لَمْ تَعْرِفْهُ الْعَرَبُ مِنْ قَبْلُ، خَرَجُوا بِكُلِّ ذَرَارِيِّهِمْ وَشُيُوخِهِمْ، وَنِسَائِهِمْ وَأَطْفَالِهِمْ، وَرِعَائِهِمْ وَإِبِلِهِمْ، وَلَمْ يُخَلِّفُوا وَرَاءَهُمْ فِي دِيَارِهِمْ شَيْئًا يُذْكَرُ؛ ثُمَّ نَزَلُوا مَكَانًا يُدْعَى «أَوْطَاسَ».

كُلُّ ذَلِكَ التَّحَرُّكِ وَالِاسْتِعْدَادِ لَمْ يَكُنْ غَائِبًا عَنْ عِلْمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَخَرَجَ لِلِقَائِهِمْ مِنْ «مَكَّةَ» عَلَى رَأْسِ قُوَّةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ضَخْمَةِ الْعَدَدِ، بَلَغَتِ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا مِنَ الْجُنْدِ، عَشَرَةَ آلَافٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَأَلْفَانِ مِنْ أَهْلِ «مَكَّةَ»، مِنَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا حَدِيثًا، أَوْ كَانُوا لَا يَزَالُونَ عَلَى شِرْكِهِمْ وَهُمْ قَلَائِلُ.

وَكَانَ ﷺ ـ كَمَا تَذْكُرُ الرِّوَايَاتُ ـ قَدْ لَبِسَ دِرْعَيْنِ وَمِغْفَرَيْنِ وَخُوذَةً، وَامْتَطَى صَهْوَةَ بَغْلَتِهِ «دُلْدُلَ».

وَهُنَا أُحِبُّ أَنْ أُشِيرَ إِلَى إِيثَارِهِ ﷺ لِرُكُوبِ غَيْرِ الْخَيْلِ فِي الْقِتَالِ.

لِمَاذَا الْبَغْلُ؟ لِأَنَّهُ رَمْزُ الْإِقْدَامِ وَالْكَرِّ الدَّائِمِ فِي مَيَادِينِ الْقِتَالِ، أَمَّا الْخَيْلُ فَإِنَّهَا خَفِيفَةُ الْحَرَكَةِ وَتُسَاعِدُ عَلَى الْفِرَارِ وَالِارْتِدَادِ، فَالْبَغْلُ أَوِ الْبَغْلَةُ رَمْزُ الشَّجَاعَةِ.

الْمُهِمُّ...

نَعُودُ الْآنَ إِلَى سِيَاقِ الْحَدِيثِ وَالرِّوَايَةِ، فَقَدْ أَرْسَلَ ﷺ طَلِيعَةً لِقُوَّاتِهِ بِقِيَادَةِ «خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ كَيْ تَرُودَ لَهُ الطَّرِيقَ وَتُمَهِّدَ لِلْقُوَّاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْغَفِيرَةِ الزَّاحِفَةِ.

وَقَالَ أَحَدُ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ، وَقَدْ نَظَرَ إِلَى كَثْرَةِ عَدَدِ الْقُوَّاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَتَتَابُعِ الْجُنْدِ:

ـ لَنْ نُغْلَبَ بَعْدَ الْيَوْمِ مِنْ كَثْرَةٍ...

وَهُنَا عَزِيزِي الْقَارِئَ ـ كَانَ الْغُرُورُ قَدْ أَخَذَ سَبِيلَهُ إِلَى بَعْضِ النُّفُوسِ، وَنَسُوا أَنَّ عَوَامِلَ النَّصْرِ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَى، وَأَنَّ كَثْرَةَ الْكَافِرِينَ يَوْمَ «بَدْرٍ» لَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ اللهِ.

فَكَانَ لَا بُدَّ مِنَ التَّأْنِيبِ الرَّبَّانِيِّ، وَإِعَادَةِ النُّفُوسِ وَالْقُلُوبِ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

وَتَابَعَ الْمُسْلِمُونَ زَحْفَهُمْ إِلَى حَيْثُ تَتَجَمَّعُ قُوَّاتُ الْمُشْرِكِينَ من «هَوَازِنَ» وَ«ثَقِيفٍ» بِقِيَادَةِ «مَالِكِ بْنِ عَوْفٍ».

فَلَمَّا اقْتَرَبُوا مِنْ مُعَسْكَرِ الْعَدُوِّ، رَتَّبَ ﷺ أَصْحَابَهُ وَصَفَّهُمْ، وَوَضَعَ الْأَلْوِيَةَ وَالرَّايَاتِ مَعَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ.

وَكَمَا هِيَ الْعَادَةُ فِي الْحُرُوبِ الْحَدِيثَةِ أَنْ تُرْسِلَ الْجُيُوشُ عُيُونًا وَجَوَاسِيسَ لَهَا تَسْتَطْلِعُ أَخْبَارَ الْعَدُوِّ، أَرْسَلَ «مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ» قَائِدُ الْمُشْرِكِينَ ثَلَاثَةَ أَنْفَارٍ يَنْظُرُونَ إِلَى جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ...

ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى «مَالِكٍ» وَقَدِ اعْتَرَاهُمُ الْفَزَعُ وَالْخَوْفُ، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ وَهُمْ يَرْتَجِفُونَ، قَالَ لَهُمْ:

- وَيْلَكُمْ... مَا شَأْنُكُمْ؟

فَقَالُوا:

- رَأَيْنَا رِجَالًا بِيضًا عَلَى خَيْلٍ بُلْقٍ، فَوَاللهِ مَا تَمَاسَكْنَا أَنْ أَصَابَنَا مَا تَرَى، وَإِنْ أَطَعْتَنَا رَجَعْتَ بِقَوْمِكَ.

فَقَالَ:

- أُفٍّ لَكُمْ، بَلْ أَنْتُمْ أَجْبَنُ الْقَوْمِ.

وَحَبَسَهُمْ عِنْدَهُ؛ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَشِيعَ ذَلِكَ الْخَبَرُ فِي النَّاسِ، فَتَضْعُفَ مُقَاوَمَتُهُمْ.

وَبِالْمُقَابِلِ أَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ أَحَدَ أَصْحَابِهِ «عَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي حَدْرَدٍ»، وَأَمَرَهُ أَنْ يَدْخُلَ مُعَسْكَرَ الْعَدُوِّ، وَيَسْمَعَ مِنْهُمْ مَا أَجْمَعُوا عَلَيْهِ؛ فَقَامَ الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ بِالْمُهِمَّةِ عَلَى وَجْهِهِ الْأَكْمَلِ، فَدَخَلَ فِي مُعَسْكَرِ

«ثَقِيفٍ» وَ«هَوَازِنَ» وَمَكَثَ فِيهِ يَوْمَيْنِ، وَتَعَرَّفَ إِلَى كُلِّ مَا عُهِدَ بِهِ إِلَيْهِ، ثُمَّ عَادَ وَأَخْبَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِكُلِّ شَيْءٍ.

ثُمَّ أَمَرَ ﷺ قُوَّاتِهِ بِالتَّحَرُّكِ، وَكَانَ الْوَقْتُ لَيْلًا، فَلَمَّا بَلَغُوا وَادِيَ «حُنَيْنٍ» فُوجِئُوا بِكَمِينٍ أَعَدَّهُ «مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ» عِنْدَ مَضِيقِ الْوَادِي، وَرَاحَ رُمَاةُ السِّهَامِ مِنَ الْأَعْدَاءِ يَرْمُونَ الْمُسْلِمِينَ بِسِهَامِهِمْ كَأَنَّهَا الْمَطَرُ الْغَزِيرُ، فَتَرَاجَعَ الْمُسْلِمُونَ وَخُصُوصًا الطَّلِيعَةَ الْمُتَقَدِّمَةَ، وَانْكَشَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْدَ أَنْ تَفَرَّقَتْ مِنْ حَوْلِهِ الْخَيْلُ.

لَكِنَّهُ ﷺ ثَبَتَ مَعَ نَفَرٍ قَلِيلٍ، أَكْثَرُهُمْ مِنْ «بَنِي هَاشِمٍ»، وَعَلَى رَأْسِهِمْ عَمُّهُ «الْعَبَّاسُ».

فَقَالَ ﷺ لِـ «الْعَبَّاسِ»:

ـ نَادِ فِي النَّاسِ، يَا أَصْحَابَ «سُورَةِ الْبَقَرَةِ».. يَا أَصْحَابَ السَّمُرَةِ.

وَكَانَ «الْعَبَّاسُ» صَاحِبَ صَوْتٍ جَهْوَرِيٍّ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ فَنَادَى...

فَتَجَمَّعَ النَّاسُ بَعْدَ تَفَرُّقِهِمْ، وَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ يُرَدِّدُ:

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ

أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ

ثُمَّ تَنَاوَلَ كَفًّا مِنْ حَصًى رَمَاهُ فِي وُجُوهِ الْأَعْدَاءِ، وَقَالَ:

ـ شَاهَتِ الْوُجُوهُ، «حم»، لَا يُنْصَرُونَ.

فَمَا خَلَقَ اللهُ إِنْسَانًا مِنْهُمْ إِلَّا مَلَأَ عَيْنَيْهِ مِنْ تِلْكَ الْقَبْضَةِ، وَشَكَا الْقَذَى.

وَتَنَزَّلَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَنِ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، تُثَبِّتُهُمْ وَتَشُدُّ أَزْرَهُمْ، وَتُقَاتِلُ مَعَهُمْ؛ وَحَمِيَ الْوَطِيسُ، وَاشْتَدَّ الْقِتَالُ، وَعَلَا النَّقْعُ، وَرَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَيْهِ بِالدُّعَاءِ، وَقَالَ:

- اللَّهُمَّ أَنْشُدُكَ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَظْهَرُوا عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ كُنْتَ وَتَكُونُ، وَأَنْتَ حَيٌّ لَا تَمُوتُ، تَنَامُ الْعُيُونُ وَتَنْكَدِرُ النُّجُومُ، وَأَنْتَ حَيٌّ قَيُّومٌ، اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، وَإِلَيْكَ الْمُشْتَكَى، وَأَنْتَ الْمُسْتَعَانُ.

وَرَجَحَتْ كِفَّةُ الْمُؤْمِنِينَ...

وَمَا هِيَ إِلَّا سُوَيْعَاتٌ حَتَّى انْجَلَى الْغُبَارُ، وَأَسْفَرَ الْقِتَالُ عَنْ هَزِيمَةٍ سَاحِقَةٍ حَلَّتْ بِالْمُشْرِكِينَ، وَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ، وَخَلَّفُوا وَرَاءَهُمْ غَنَائِمَ كَثِيرَةً، وَأَسْلَابًا لَا تُحْصَى، وَأَسْرَى بَلَغَ عَدَدُهُمْ أُلُوفًا.

وَلَجَأَتْ «ثَقِيفٌ» إِلَى «الطَّائِفِ» تَتَحَصَّنُ دَاخِلَهَا تَمْتَنِعُ، وَانْتَهَى أَمْرُ «هَوَازِنَ».

وَمَضَى ﷺ نَحْوَ «الطَّائِفِ» يُشَدِّدُ عَلَى أَهْلِهَا الْحِصَارَ، وَاسْتَمَرَّ فِي ذَلِكَ طِيلَةَ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ يَوْمًا، وَرَمَاهُمْ بِالْمَنْجَنِيقِ وَلَكِنْ دُونَ فَائِدَةٍ، فَسَأَلَ ﷺ أَحَدَ أَصْحَابِهِ مُسْتَشِيرًا، وَهُوَ «نَوْفَلُ بْنُ مُعَاوِيَةَ الدِّيلِيُّ» قَائِلًا:

- مَا تَرَى؟

فَقَالَ «نَوْفَلٌ»:

- ثَعْلَبٌ فِي جُحْرٍ، إِنْ أَقَمْتَ عَلَيْهِ أَخَذْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَضُرَّكَ.

فَأَمَـرَ ﷺ «عُمَـرَ بْنَ الْخَطَّابِ» ـ رَضِـيَ اللهُ عَنْهُ ـ أَنْ يُـؤَذِّنَ فِي النَّاسِ بِالرَّحِيلِ، فَغَضِبَ أُنَاسٌ وَقَالُوا:

ـ نَرْحَلُ وَلَمْ يُفْتَحْ عَلَيْنَا؟

فَقَالَ ﷺ:

ـ اغْدُوا عَلَى الْقِتَالِ.

فَغَـدَوْا، فَلَمْ يُوَفَّقُوا، وَأَصَابَتْهُمْ جِرَاحَاتٌ كَثِيـرَةٌ، عِنْدَئِذٍ أَذْعَنُوا لِرَأْيِ النَّبِيِّ ﷺ، وَبُعْدِ نَظَرِهِ، وَارْتَحَلُوا عَنِ الْمَكَانِ، وَلَمَّا قِيلَ لَهُ ﷺ:

ـ يَا رَسُولَ اللهِ ادْعُ عَلَى ثَقِيفٍ.

قَالَ ﷺ:

ـ اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا، وَائْتِ بِهَا.

وَهَكَـذَا كَانَ، فَبَعْدَ فَتْـرَةٍ مِنْ وُصُولِهِ ﷺ إِلَى «الْمَدِينَـةِ»، جَاءَتْهُ وُفُودُ «ثَقِيفٍ» مُسْلِمَةً مُبَايِعَةً.

وَاسْتَمَرَّ ﷺ طَوَالَ مَا بَقِيَ مِنَ السَّـنَةِ الثَّامِنَةِ لِلْهِجْرَةِ حَتَّى مَطْلَعِ رَجَبٍ سَنَةَ تِسْعٍ فِي تَنْظِيفِ وَتَطْهِيرِ الْجُيُوبِ الْبَسِيطَةِ الَّتِي كَانَتْ مُنْتَشِرَةً فِي بَعْضِ أَصْقَاعِ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

❋❋❋

وَبَلَغَ رَسُـولَ اللهِ ﷺ أَنَّ الرُّومَ قَدْ جَمَعَتْ جُمُوعًا كَثِيرَةً بِالشَّـامِ، وَأَنَّ «هِرَقْلَ» قَدْ أَعَدَّ جُنْدَهُ وَجَيْشَـهُ، وَانْضَمَّتْ إِلَيْهِ قَبَائِـلُ «لَخْمٍ» وَ«جُذَامٍ»

وَ«عَامِلَةَ» وَ«غَسَّانَ»، وَتَقَدَّمُوا جَمِيعًا حَتَّى بَلَغُوا «الْبَلْقَاءَ» عِنْدَ تُخُومِ الدِّيَارِ الشَّامِيَّةِ.

فَنَدَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ إِلَى الْخُرُوجِ، وَأَعْلَمَهُمُ الْمَكَانَ الَّذِي يُرِيدُ؛ كَيْ يَتَأَهَّبُوا لِذَلِكَ.

ثُمَّ بَعَثَ إِلَى «مَكَّةَ» وَإِلَى قَبَائِلِ الْعَرَبِ يَسْتَنْفِرُهُمْ، وَكَانَ الْجَوُّ صَيْفِيًّا حَارًّا، وَأَمَرَهُمْ بِالصَّدَقَةِ، فَحَمَلُوا صَدَقَاتٍ كَثِيرَةً، وَخَرَجُوا فِي سَبِيلِ اللهِ.

وَجَاءَهُ الْبَكَّاءُونَ، وَهُمْ سَبْعَةٌ، يَسْتَحْمِلُونَهُ، فَقَالَ:

ـ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ.

فَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَنْ لَا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ.

وَهُمْ: «سَالِمُ بْنُ عُمَيْرٍ» وَ«هَرَمِيُّ بْنُ عَمْرٍو» وَ«عُلَيَّةُ بْنُ زَيْدٍ» وَ«أَبُو لَيْلَى الْمَازِنِيُّ» وَ«عَمْرُو بْنُ غَنَمَةَ» وَ«سَلَمَةُ بْنُ صَخْرٍ» وَ«الْعِرْبَاضُ بْنُ سَارِيَةَ».

وَجَاءَ نَاسٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ يَسْتَأْذِنُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي التَّخَلُّفِ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ، فَأَذِنَ لَهُمْ، وَهُمْ بِضْعَةٌ وَثَمَانُونَ رَجُلًا.

وَكَانَ «عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ» ـ رَأْسُ الْمُنَافِقِينَ ـ قَدْ عَسْكَرَ عَلَى «ثَنِيَّةِ الْوَدَاعِ» فِي حُلَفَائِهِ مِنَ الْيَهُودِ وَالْمُنَافِقِينَ، فَكَانَ يُقَالُ: لَيْسَ عَسْكَرُهُ بِأَقَلِّ الْعَسْكَرَيْنِ.

وَاسْتَخْلَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى عَسْكَرِ الْمُسْلِمِينَ «أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ»؛ لِيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، وَعَلَى «الْمَدِينَةِ» «مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ».

فَلَمَّا سَارَ ﷺ تَخَلَّفَ «عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ» وَمَنْ كَانَ مَعَهُ، وَتَخَلَّفَ نَفَرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ، مِنْ غَيْرِ شَكٍّ وَلَا ارْتِيَابٍ، مِنْهُمْ: «كَعْبُ ابْنُ مَالِكٍ» وَ«هِلَالُ بْنُ الرَّبِيعِ» وَ«مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ» وَ«أَبُو خَيْثَمَةَ» وَ«أَبُو ذَرٍّ الْغِفَارِيُّ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ـ.

وَأَمَرَ ﷺ كُلَّ بَطْنٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ أَنْ يَرْفَعُوا أَلْوِيَتَهُمْ وَرَايَاتِهِمْ؛ وَمَضَى لِوَجْهِهِ يَسِيرُ بِأَصْحَابِهِ حَتَّى قَدِمَ «تَبُوكَ» فِي ثَلَاثِينَ أَلْفًا مِنَ النَّاسِ، وَالْخَيْلُ عَشَرَةُ آلَافِ فَرَسٍ، وَلَقَدْ تَبَارَى الصَّحَابَةُ الْأَثْرِيَاءُ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ـ فِي إِعْدَادِ الْجَيْشِ الضَّخْمِ، بِالْمَالِ وَالسِّلَاحِ وَالْمَئُونَةِ.

وَأَقَامَ ﷺ فِي «تَبُوكَ» عِشْرِينَ لَيْلَةً يُصَلِّي بِالنَّاسِ قَصْرًا، وَهُنَاكَ لَحِقَهُ اثْنَانِ مِنَ الْمُتَخَلِّفِينَ هُمَا: «أَبُو خَيْثَمَةَ» وَ«أَبُو ذَرٍّ».

وَكَانَ «هِرَقْلُ» يَوْمَئِذٍ فِي «حِمْصَ»، يُرَاقِبُ التَّحَرُّكَاتِ، فَلَمَّا عَلِمَ بِخُرُوجِ الْمُسْلِمِينَ هَذَا الْخُرُوجَ الْعَظِيمَ، آثَرَ عَدَمَ مُجَابَهَتِهِمْ وَمُحَارَبَتِهِمْ.

وَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ «خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ فِي أَرْبَعِمِئَةٍ وَعِشْرِينَ فَارِسًا إِلَى «دَوْمَةِ الْجَنْدَلِ» حَيْثُ يُقِيمُ «أُكَيْدِرُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ» ـ النَّصْرَانِيُّ ـ مَعَ «بَنِي كِنْدَةَ»، مَلِكًا عَلَيْهِمْ؛ وَذَلِكَ بِقَصْدِ الْإِنْذَارِ الْعَسْكَرِيِّ لِلرُّومِ.

فَانْتَهَى إِلَيْهِ «خَالِدٌ»، وَقَدْ خَرَجَ «أُكَيْدِرُ» مِنْ حِصْنِهِ فِي لَيْلَةٍ مُقْمِرَةٍ لِيُطَارِدَ الْبَقَرَ الْوَحْشِيَّ وَيَصْطَادَهُ، وَمَعَهُ أَخُوهُ «حَسَّانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ»، فَشَدَّتْ عَلَيْهِ خَيْلُ «خَالِدٍ»، فَاسْتَأْسَرَ «أُكَيْدِرٌ»، وَامْتَنَعَ «حَسَّانُ»، وَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، وَهَرَبَ مَنْ كَانَ مَعَهُمَا مِنَ الْجُنْدِ، فَدَخَلَ «خَالِدٌ» الْحِصْنَ، ثُمَّ أَجَارَ «أُكَيْدِرَ» مِنَ الْقَتْلِ حَتَّى يَأْتِيَ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَنْ يَفْتَحَ لَهُ «دَوْمَةَ الْجَنْدَلِ»، فَفَعَلَ «أُكَيْدِرُ» وَقَبِلَ بِشُرُوطِ الصُّلْحِ، وَمِنْهَا أَنْ يُسَلِّمَ لِـ «خَالِدٍ» أَلْفَيْ بَعِيرٍ، وَثَمَنمِئَةِ رَأْسٍ مِنَ الشِّيَاهِ، وَأَرْبَعَمِئَةِ دِرْعٍ، وَأَرْبَعَمِئَةِ رُمْحٍ.

وَوَافَى «خَالِدٌ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ رَسُولَ اللهِ ﷺ إِلَى «الْمَدِينَةِ» بَعْدَ عَوْدَتِهِ مِنْ «تَبُوكَ»، وَمَعَ «خَالِدٍ» «أُكَيْدِرُ» وَ«مَصَادُ» ابْنَا «عَبْدِ الْمَلِكِ»، فَقَبِلَ النَّبِيُّ ﷺ هَدِيَّتَهُمَا، وَصَالَحَهُمَا عَلَى الْجِزْيَةِ، وَحَقَنَ دَمَهُمَا، وَخَلَّى سَبِيلَهُمَا، وَكَتَبَ لَهُمَا أَمَانًا بِذَلِكَ وَخَتَمَهُ.

وَكَانَ قُدُومُهُ ﷺ مِنْ «تَبُوكَ» فِي شَهْرِ رَمَضَانَ مِنْ سَنَةِ تِسْعٍ، وَلَمْ يَلْقَ كَيْدًا وَلَا حَرْبًا، وَكَانَ مِمَّا قَالَهُ:

ـ الْحَمْدُ لِلهِ عَلَى مَا رَزَقَنَا فِي سَفَرِنَا هَذَا مِنْ أَجْرٍ وَحِسْبَةٍ.

وَجَاءَهُ مَنْ كَانَ تَخَلَّفَ عَنِ الْخُرُوجِ مَعَهُ، فَحَلَفُوا لَهُ، فَعَذَرَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَأَرْجَأَ أَمْرَ «كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ» وَصَاحِبَيْهِ حَتَّى نَزَلَ فِيهِمْ قُرْآنٌ، يَعْذُرُهُمْ وَيُعْلِنُ بَرَاءَتَهُمْ وَتَوْبَتَهُمْ.

وَلَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ الْمُؤَرِّخِينَ عَلَى لِسَانِ «عَلِيٍّ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ مُتَحَدِّثًا

عَنْ خُرُوجِ الْمُسْلِمِينَ فِي غَزْوَةِ «تَبُوكَ»، وَالَّتِي سُمِّيَتْ «غَزْوَةَ الْعُسْرَةِ»، قَوْلَهُ:

- خَرَجْنَا فِي «غَزْوَةِ تَبُوكَ»... الرَّجُلَانِ وَالثَّلَاثَةُ عَلَى بَعِيرٍ وَاحِدٍ، فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَأَصَابَنَا عَطَشٌ مُجْهِدٌ، حَتَّى جَعَلْنَا نَنْحَرُ الْإِبِلَ، وَنَعْصِرُ أَكْرَاشَهَا، وَنَشْرَبُ مَاءَهَا.

فَكَانَ ذَلِكَ عُسْرَةً مِنَ الْمَاءِ، وَعُسْرَةً مِنَ الطُّهْرِ، وَعُسْرَةً مِنَ النَّفَقَةِ.

وَلَمَّا أَهَلَّ مَوْسِمُ الْحَجِّ مِنْ ذَلِكَ الْعَامِ، انْتَدَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «أَبَا بَكْرٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ لِيَحُجَّ بِالنَّاسِ، فَلَمَّا كَانَ بِـ «الْعَرْجِ» ـ مَكَانٍ بَيْنَ «الْمَدِينَةِ» وَ«مَكَّةَ» ـ لَحِقَهُ «عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ» عَلَى نَاقَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْقَصْوَاءِ، فَقَالَ «أَبُو بَكْرٍ»:

- هَلِ اسْتَعْمَلَكَ رَسُولُ اللهِ عَلَى الْحَجِّ؟

فَقَالَ «عَلِيٌّ»:

- كَلَّا، وَلَكِنْ بَعَثَنِي أَقْرَأُ «بَرَاءَةَ» (سُورَةَ التَّوْبَةِ) عَلَى النَّاسِ، وَأَنْبِذُ إِلَى كُلِّ ذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ.

وَقَرَأَهَا «عَلِيٌّ» عَلَى النَّاسِ يَوْمَ النَّحْرِ عِنْدَ الْجَمْرَةِ؛ كَمَا أَعْلَنَ عَلَى النَّاسِ عَنْ لِسَانِ رَسُولِ اللهِ ﷺ:

- أَنْ لَا يَحُجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَأَنْ لَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ.

وَتَتَابَعَتْ سَرَايَا النَّبِيِّ ﷺ إِلَى بَعْضِ الْقَبَائِلِ فِي الْحِجَازِ وَنَجْدٍ وَالْيَمَنِ؛ كَيْ يُنَظِّفَ أَرْضَ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ مِنْ كُلِّ دَنَسٍ وَشِرْكٍ.

حَتَّى كَانَ الْعَامُ الْعَاشِرُ مِنَ الْهِجْرَةِ، وَحَجَّةُ الْوَدَاعِ.

حَجَّةُ الْوَدَاعِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (الْمَائِدَةُ: 3).

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا... هَلْ بَلَّغْتُ؟

قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ.

قَالَ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ.

❊❊❊

قَبْلَ أَنْ يَقُومَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَدَاءِ فَرِيضَةِ الْحَجِّ، حَجَّةِ الْوَدَاعِ، أَوْ حَجَّةِ الْإِسْلَامِ، كَمَا سَمَّاهَا بَعْضُ الْمُؤَرِّخِينَ؛ لِأَنَّهَا الْحَجَّةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي أَدَّاهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ.

قَبْلَ ذَلِكَ، وَفِي شَـهْرِ رَمَضَانَ مِنَ الْعَامِ الْعَاشِرِ لِلْهِجْرَةِ، بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «عَلِيَّ بْـنَ أَبِي طَالِبٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ فِي سَـرِيَّةٍ إِلَى «الْيَمَنِ»، فَعَقَدَ لَهُ لِوَاءً، وَعَمَّمَهُ بِنَفْسِـهِ، وَبِيَدِهِ الشَّرِيفَةِ.

وَكَانَ مِمَّا قَالَهُ لَهُ وَأَوْصَاهُ بِهِ:

ـ امْضِ وَلَا تَلْتَفِتْ، فَإِذَا نَزَلْتَ بِسَـاحَتِهِمْ، فَلَا تُقَاتِلْهُمْ حَتَّى يُقَاتِلُوكَ.

فَخَرَجَ ـ رَضِـيَ اللهُ عَنْهُ ـ فِي ثَلَاثِمِئَةِ فَارِسٍ مِنَ الصَّحَابَةِ الشُّـجْعَانِ الْأَشِـدَّاءِ، وَكَانَتْ خَيْلُهُمْ هَذِهِ أَوَّلَ خَيْلٍ لِلْإِسْـلَامِ تَدْخُلُ تِلْكَ الدِّيَارَ، وَأَوَّلُ بِلَادٍ قَابَلَتْهُمْ هِيَ أَرْضُ «مَذْحِجٍ».

وَوَزَّعَ «عَلِيٌّ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أَصْحَابَهُ فَصَائِلَ فِي أَنْحَاءِ دِيَارِ الْقَوْمِ، فَأَتَوْا بِنَهْبٍ وَغَنَائِمَ وَنِسَـاءٍ وَأَطْفَالٍ وَنَعَمٍ وَشَاءٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَعَيَّنَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَلَى الْغَنَائِـمِ أَمِينًا، الصَّحَابِيَّ الْجَلِيلَ «بُرَيْدَةَ ابْنَ الْحُصَيْبِ الْأَسْـلَمِيَّ»، فَجَمَعَ إِلَيْهِ مَا أَصَابَ فُرْسَانُ الْمُسْلِمِينَ.

ثُمَّ لَقِـيَ «عَلِيٌّ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْـهُ ـ جَمْعَ الْقَوْمِ مِـنْ أَهْلِ «مَذْحِجٍ»، فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْـلَامِ، فَأَبَوْا وَامْتَنَعُوا، فَنَشِـبَتْ بَيْـنَ الطَّرَفَيْنِ مَعْرَكَةٌ، تَرَامَوْا أَوَّلًا بِالنَّبْلِ وَالسِّهَامِ، ثُمَّ صَفَّ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أَصْحَابَهُ، وَجَعَلَ لِوَاءَهُ مَعَ «مَسْـعُودِ بْنِ سُفْيَانَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ، ثُمَّ الْتَحَمُوا.

وَحَمَـلَ «عَلِيٌّ» ـ رَضِـيَ اللهُ عَنْهُ ـ بِأَصْحَابِهِ الْفُرْسَـانِ عَـلَى الْعَدُوِّ، وَدَهَمَهُـمْ بِالْخَيْلِ فِي هَجْمَةٍ قَوِيَّـةٍ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ عِشْـرِينَ رَجُلًا، عِنْدَئِذٍ

تَخَاذَلُوا وَوَهَنُوا، ثُمَّ تَفَرَّقُوا مُنْهَزِمِينَ، فَكَفَّ عَنْ طَلَبِهِمْ، وَتَوَقَّفَ عَنْ مُتَابَعَتِهِمْ وَمُطَارَدَتِهِمْ. ثُمَّ دَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ، فَأَسْرَعُوا وَأَجَابُوا، وَبَايَعَهُ رُؤَسَاؤُهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ، وقَالُوا:

ـ نَحْنُ عَلَى مَنْ وَرَاءَنَا مِنْ قَوْمِنَا، وَهَذِهِ صَدَقَاتُنَا، فَخُذْ مِنْهَا حَقَّ اللهِ.

فَجَمَعَ «عَلِيٌّ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ الْغَنَائِمَ، ثُمَّ خَمَّسَهَا، وَوَزَّعَ الْبَاقِيَ عَلَى أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَفَلَ مِنْ سَرِيَّتِهِ هَذِهِ، مُوَفَّقًا مَنْصُورًا.

وَفِي عَوْدَتِهِ مِنَ «الْيَمَنِ» كَانَ لِقَاؤُهُ وَأَصْحَابُهُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقَدْ بَلَغَ «مَكَّةَ» لِأَدَاءِ فَرِيضَةِ «حَجَّةِ الْوَدَاعِ».

وَقَبْلَ خُرُوجِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ «الْمَدِينَةِ» أَصَابَ بَعْضَ النَّاسِ مَرَضُ الْجُدَرِيِّ، فَامْتَنَعُوا عَنِ الْمُرَافَقَةِ، وَلَقَدْ طَيَّبَ خَاطِرَهُمْ ﷺ بِقَوْلِهِ:

«عُمْرَةٌ فِي رَمَضَانَ تَعْدِلُ حَجَّةً مَعِي».

وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كَانَ مَعَهُ ﷺ جُمُوعٌ غَفِيرَةٌ مِنْ أَهْلِ «الْمَدِينَةِ»، وَمِنَ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ أَعْلَمَهُمْ بِخُرُوجِهِ، حَتَّى قِيلَ إِنَّ عَدَدَهُمْ تَجَاوَزَ الْمِئَةَ أَلْفٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

وَكَانَ خُرُوجُهُ ﷺ لِخَمْسِ لَيَالٍ بَقِينَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةَ عَشْرٍ مِنَ الْهِجْرَةِ، بَعْدَ أَنْ تَرَجَّلَ وَادَّهَنَ، وَصَلَّى الظُّهْرَ بِـ«الْمَدِينَةِ»، وَالْعَصْرَ بِـ«ذِي الْحُلَيْفَةِ» رَكْعَتَيْنِ؛ وَكَانَ مَعَهُ جَمِيعُ نِسَائِهِ فِي هَوَادِجِهِنَّ، وَكُنَّ تِسْعَةً، وَكَانَ قَدْ أَحْرَمَ مِنْ دَارِهِ ﷺ فِي رِدَاءٍ وَإِزَارٍ.

كَمَا أَشْعَرَ هَدْيَهُ وَقَلَّدَهُ، ثُمَّ رَكِبَ نَاقَتَهُ الْقَصْوَاءَ، وَكَانَ عَلَى الْهَدْيِ حَارِسًا، سَائِقًا وَرَاعِيًا، «نَاجِيَةُ بْنُ جُنْدَبٍ الْأَسْلَمِيُّ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ وَلَقَدْ أَدَّى ﷺ صَلَوَاتِهِ كُلَّهَا بِالْمُسْلِمِينَ طَوَالَ الطَّرِيقِ فِي أَمَاكِنَ يَتَحَرَّاهَا كَثِيرٌ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ الْمُتَتَبِّعِينَ لِسُنَنِهِ ﷺ.

فَلَمَّا انْتَهَى ﷺ بِأَصْحَابِهِ إِلَى «ذِي طُوًى» وَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ «مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ»، أَمْسَكَ عَنِ التَّلْبِيَةِ، وَبَاتَ بِذَلِكَ الْمَكَانِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ صَلَّى الصُّبْحَ هُنَاكَ. وَدَخَلَ الْبَلَدَ الْحَرَامَ مِنَ الثَّنِيَّةِ الْعُلْيَا، فَلَمَّا تَرَاءَتْ لَهُ «الْكَعْبَةُ الْمُشَرَّفَةُ»، قَالَ:

«اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ وَإِلَيْكَ السَّلَامُ، فَحَيِّنَا رَبَّنَا بِالسَّلَامِ، اللَّهُمَّ زِدْ هَذَا الْبَيْتَ تَشْرِيفًا وَتَعْظِيمًا وَتَكْرِيمًا وَمَهَابَةً وَبِرًّا، وَزِدْ مَنْ حَجَّهُ أَوِ اعْتَمَرَهُ تَكْرِيمًا وَتَشْرِيفًا وَتَعْظِيمًا وَبِرًّا».

وَبَعْدَ فَرَاغِهِ ﷺ مِنَ الطَّوَافِ وَالسَّعْيِ، سَارَ وَالنَّاسُ مَعَهُ حَتَّى نَزَلَ بِمَكَانٍ يُدْعَى «الْأَبْطَحَ» شَرْقِيَّ «مَكَّةَ»، فَأَقَامَ هُنَاكَ بَقِيَّةَ يَوْمِ الْأَحَدِ إِلَى صُبْحِ يَوْمِ الْخَمِيسِ حَيْثُ صَلَّى بِأَصْحَابِهِ.

فِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ كَانَ وُصُولُ «عَلِيٍّ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَادِمًا مِنْ سَرِيَّتِهِ إِلَى بَنِي «مَذْحِجٍ» فِي أَرْضِ «الْيَمَنِ» كَمَا قَدَّمْنَا؛ وَأَهَلَّ مِنْ مِيقَاتِهِ بِإِهْلَالِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَدَخَلَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ فِي جَوِّ أَدَاءِ فَرِيضَةِ الْحَجِّ.

وَكَانَ يَوْمُ الْخَمِيسِ هُوَ يَوْمَ التَّرْوِيَةِ، فَخَطَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالنَّاسِ وَأَعْلَمَهُمْ بِمَنَاسِكِهِمْ، ثُمَّ رَكِبَ وَرَكِبُوا قَاصِدِينَ إِلَى «مِنًى» قَبْلَ الزَّوَالِ، وَكَانَ إِلَى جَانِبِهِ ﷺ «بِلَالٌ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ يَحْمِلُ عُودًا عَلَيْهِ ثَوْبٌ يُظَلِّلُ بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ مِنَ الْحَرِّ.

وَمِنْ هُنَاكَ أَهَلُّوا بِالْحَجِّ حَتَّى أَتَى «عَرَفَةَ»، فَوَجَدَ قُبَّةً قَدْ ضُرِبَتْ لَهُ بِـ«نَمِرَةَ» فَنَزَلَ بِهَا، حَتَّى إِذَا زَاغَتِ الشَّمْسُ أَمَرَ بِنَاقَتِهِ الْقَصْوَاءِ فَرُحِّلَتْ لَهُ، فَأَتَى بَطْنَ الْوَادِي، وَهُنَاكَ خَطَبَ النَّاسَ فَقَالَ:

«إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ تَحْتَ قَدَمَيَّ، وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا، دَمُ «رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ»، وَرِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَا «الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ، وَاتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ؛ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ. وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ، كِتَابَ اللهِ. وَأَنْتُمْ سَتُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟».

فَقَالُوا:

- نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ.

فَقَالَ (مُشِيرًا بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا عَلَى النَّاسِ):

- اللَّهُمَّ اشْهَدْ (ثَلَاثَ مَرَّاتٍ).

وَكَانَ دُعَاؤُهُ ﷺ يَوْمَ الْوُقُوفِ بِـ «عَرَفَةَ» مَا قَالَهُ:

«أَفْضَلُ الدُّعَاءِ يَوْمَ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ). (اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي بَصَرِي نُورًا، وَفِي سَمْعِي نُورًا، وَفِي قَلْبِي نُورًا. اللَّهُمَّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَسْوَاسِ الصَّدْرِ، وَشَتَاتِ الْأَمْرِ، وَشَرِّ فِتْنَةِ الْقَبْرِ، وَشَرِّ مَا يَلِجُ فِي اللَّيْلِ، وَشَرِّ مَا يَلِجُ فِي النَّهَارِ، وَشَرِّ مَا تَهُبُّ بِهِ الرِّيَاحُ، وَشَرِّ بَوَائِقِ الدَّهْرِ). (اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَسْمَعُ كَلَامِي، وَتَرَى مَكَانِي، وَتَعْلَمُ سِرِّي وَعَلَانِيَتِي، وَلَا يَخْفَى عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِي، أَنَا الْبَائِسُ الْفَقِيرُ، الْمُسْتَغِيثُ الْمُسْتَجِيرُ، الْوَجِلُ الْمُشْفِقُ، الْمُقِرُّ الْمُعْتَرِفُ بِذَنْبِهِ، أَسْأَلُكَ مَسْأَلَةَ الْمِسْكِينِ وَأَبْتَهِلُ إِلَيْكَ ابْتِهَالَ الذَّلِيلِ، وَأَدْعُوكَ دُعَاءَ الْخَائِفِ الضَّرِيرِ، مَنْ خَضَعَتْ لَكَ رَقَبَتُهُ، وَفَاضَتْ لَكَ عَبْرَتُهُ، وَذَلَّ لَكَ جَسَدُهُ، وَرَغِمَ لَكَ أَنْفُهُ. اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا، وَكُنْ بِي رَؤُوفًا رَحِيمًا، يَا خَيْرَ الْمَسْئُولِينَ، وَيَا خَيْرَ الْمُعْطِينَ).

وَلَقَدْ رُوِيَ عَنْ سَيِّدِنَا «عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَوْلُهُ، عَنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (الْمَائِدَةُ: 3).

قَالَ «عُمَرُ»:

ـ وَاللهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ الْيَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَالسَّاعَةَ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا، عَشِيَّةَ «عَرَفَةَ» فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ.

وَلَمْ يَزَلْ ﷺ وَاقِفًا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ وَذَهَبَتِ الصُّفْرَةُ قَلِيلًا قَلِيلًا حِينَ غَابَ الْقُرْصُ، ثُمَّ أَرْدَفَ «أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ» خَلْفَهُ، وَقَدْ شَنَقَ لِنَاقَتِهِ الْقَصْوَاءِ الزِّمَامَ، حَتَّى إِنَّ رَأْسَهَا لَيُصِيبُ مَوْرِكَ رِحْلِهِ، يَقُولُ (مُشِيرًا) بِيَدِهِ الْيُمْنَى: أَيُّهَا النَّاسُ... السَّكِينَةَ، السَّكِينَةَ.

وَكُلَّمَا أَتَى جَبَلًا مِنَ الْجِبَالِ أَرْخَى لَهَا قَلِيلًا حَتَّى تَصْعَدَ، حَتَّى أَتَى «الْمُزْدَلِفَةَ»، فَصَلَّى بِهَا الْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ فِي أَذَانٍ وَاحِدٍ وَإِقَامَتَيْنِ، وَلَمْ يُسَبِّحْ بَيْنَهُمَا شَيْئًا.

وَلَمْ يَزَلْ ـ أَيْضًا ـ مُلَبِّيًا حَتَّى أَتَى مَكَانَ الْجَمَرَاتِ، فَقَالَ لِـ «الْفَضْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ» الَّذِي كَانَ رَدِيفَهُ عَلَى رَاحِلَتِهِ:

ـ هَاتِ فَالْقِطْ لِيَ حَصًى.

فَالْتَقَطَ «الْفَضْلُ» حَصَيَاتٍ مِثْلَ حَصَى الْخَذْفِ، فَوَضَعَهُنَّ فِي يَدِهِ، فَقَالَ ﷺ:

- «بِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ... بِأَمْثَالِ هَـؤُلَاءِ؛ وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ».

ثُمَّ رَمَى الْجَمْرَةَ الْأُولَى.

وَيُرْوَى أَنَّهُ قَالَ فِي هَذَا الْمَقَامِ:

- لِتَأْخُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ.

ثُمَّ انْصَرَفَ ﷺ إِلَى الْمَنْحَرِ، فَنَحَرَ ثَلَاثًا وَسِـتِّينَ بِيَدِهِ، ثُمَّ أَعْطَى «عَلِيًّا» فَنَحَرَ الْبَاقِيَ، وَأَشْرَكَهُ فِي هَدْيِهِ، ثُمَّ أَمَرَ مِنْ كُلِّ بَدَنَةٍ بِبَضْعَةٍ (قِطْعَةٍ) فَجُعِلَتْ فِي قِدْرٍ فَطُبِخَتْ، فَأَكَلَا مِنْ لَحْمِهَا وَشَرِبَا مِنْ مَرَقِهَا.

ثُمَّ قَالَ لِلْحَلَّاقِ:

- خُذْ.

وَأَشَارَ إِلَى جَانِبِهِ الْأَيْمَنِ، ثُمَّ الْأَيْسَرِ، ثُمَّ جَعَلَ يُعْطِيهِ النَّاسَ.

وَكَانَ يُرَدِّدُ ﷺ:

- يَرْحَمُ اللهُ الْمُحَلِّقِينَ (مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا).

فَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ:

- وَالْمُقَصِّرِينَ يَا رَسُولَ اللهِ؟

فَقَالَ:

- وَالْمُقَصِّرِينَ.

ثُـمَّ لَبِسَ ﷺ ثِيَابَهُ وَتَطَيَّـبَ، بَعْدَمَا رَمَى جَمْرَةَ الْعَقَبَـةِ، وَنَحَرَ هَدْيَهُ، وَقَبْلَ أَنْ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ، طَيَّبَتْهُ «عَائِشَـةُ» أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ.

وَكَانَ مِمَّا قَالَهُ «ابْنُ عَبَّاسٍ» نَقْلًا عَنْ فِعْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ:

- إِذَا رَمَيْتُمُ الْجَمْـرَةَ فَقَدْ حَلَلْتُمْ مِنْ كُلِّ شَـيْءٍ كَانَ عَلَيْكُمْ حَرَامًا، إِلَّا النِّسَاءَ، حَتَّى تَطُوفُوا بِالْبَيْتِ.

ثُمَّ جَاءَ رَكْبُ رَسُـولِ اللهِ ﷺ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ، فَصَلَّى الظُّهْرَ، ثُمَّ أَتَى «بَنِي عَبْـدِ الْمُطَّلِبِ» وَهُمْ يَسْـقُونَ عَلَى «زَمْزَمَ»، فَقَـدْ كَانُوا أَصْحَابَ السِّقَايَةِ فَقَالَ:

- انْزَعُوا «بَنِي عَبْـدِ الْمُطَّلِبِ»، فَلَوْلَا أَنْ تَغْلِبَكُمُ النَّاسُ عَلَى سِـقَايَتِكُمْ لَنَزَعْتُ مَعَكُمْ.

وَنَاوَلُوهُ دَلْوًا فَشَرِبَ مِنْهُ.

وَكَانَ قَبْلَ الصَّلَاةِ قَدْ طَافَ بِالْبَيْتِ سَبْعًا، وَلَمْ يَسْعَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَهَذَا يُسَمَّى طَوَافَ الْإِفَاضَةِ.

وَلَقَدْ أُثِرَ عَنْهُ (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) قَوْلُهُ عِنْدَ شُرْبِ مَاءِ زَمْزَمَ:

- مَاءُ زَمْزَمَ شِفَاءٌ لِمَا شُرِبَ لَهُ.

ثُمَّ رَجَعَ إِلَى «مِنًى» فَمَكَثَ بِهَا لَيَالِيَ أَيَّامِ التَّشْـرِيقِ، يَرْمِي الْجَمَرَاتِ إِذَا زَالَتِ الشَّمْسُ، كُلَّ جَمْرَةٍ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ، يُكَبِّرُ مَعَ كُلِّ حَصَاةٍ.

وَبَعْدَ أَنْ أَتَمَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ جَمِيعَ أَعْمَالِ الْحَجِّ وَمَنَاسِكَهُ، وَخَطَبَ وَوَعَظَ وَبَيَّنَ، خَرَجَ مِنْ «مَكَّةَ» عَائِدًا إِلَى «الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ»، وَلَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ ﷺ قَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ «مَكَّةَ» غَيْرَ الْمَكَانِ الَّذِي دَخَلَهَا مِنْهُ، حَامِدًا اللهَ تَعَالَى، شَاكِرًا فَضْلَهُ عَلَى مَا أَسْبَغَهُ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ كُبْرَى.

عَادَ ﷺ إِلَى «الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ»، لِيَكُونَ بَعْدَ تَمَامِ نُزُولِ الْقُرْآنِ، وَتَكَامُلِ الْوَحْيِ، وَتَطْهِيرِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ مِنَ الْأَوْثَانِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَتَرْكِيزِ قَاعِدَةِ التَّوْحِيدِ فِي النُّفُوسِ، وَفَوْقَ الرُّبُوعِ...

عَادَ لِيَتَهَيَّأَ لِلِقَاءِ الْعَظِيمِ... فِي جِوَارِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالِانْتِقَالِ إِلَى الرَّفِيقِ الْأَعْلَى.

وَقَدْ أَدَّى الْأَمَانَةَ، وَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ.

(صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ).

عَامُ الْوُفُودِ

لَقَدْ كَانَ الْعَامُ التَّاسِعُ مِنَ الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ ـ يَا بُنَيَّ الْعَزِيزَ ـ عَامًا مَلِيئًا بِالْحَرَكَةِ وَالْحَيَوِيَّةِ، عَامًا انْعَكَسَتْ فِيهِ عَلَى أَرْضِ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ أَقْصَاهَا إِلَى أَقْصَاهَا آثَارُ فَتْحِ «مَكَّةَ»، وَسُقُوطُ سُلْطَانِ «قُرَيْشٍ» وَذَهَابُ هَيْبَتِهَا وَاسْتِسْلَامُهَا لِلْحَقِّ وَالْإِسْلَامِ، طَوْعًا أَوْ كَرْهًا...

وَكَذَلِكَ تَجْرِبَةُ «هَوَازِنَ» فِي «حُنَيْنٍ»، تُرِيدُ أَنْ يَكُونَ لَهَا إِرْثُ الزَّعَامَةِ بَعْدَ «قُرَيْشٍ»، وَلَكِنَّهَا فَشِلَتْ فِيمَا عَقَدَتِ الْعَزْمَ عَلَيْهِ، وَأُصِيبَتْ بِالْهَزِيمَةِ أَيْضًا.

وَهَكَذَا لَمْ يَبْقَ أَمَامَ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُنْتَشِرَةِ فِي الْبَوَادِي وَالْحَوَاضِرِ غَيْرُ الدُّخُولِ فِي حَوْزَةِ الْإِسْلَامِ، وَالِانْضِوَاءِ تَحْتَ لِوَاءِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللهِ ﷺ...

❊❊❊

عَامُ الْوُفُودِ

لِذَا سُـــمِّيَ الْعَامُ التَّاسِـــعُ مِنَ الْهِجْرَةِ: عَامَ الْوُفُودِ، حَيْثُ تَبَادَرَ النَّاسُ إِلَى «الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ» يُعْلِنُونَ إِسْـــلَامَهُمْ، وَيُبَايِعُونَ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى ذَلِكَ، وَيُعَاهِدُونَ عَلَى الْوَفَاءِ.

وَنَحْنُ حِينَ نَسْتَعْرِضُ السِّيرَةَ النَّبَوِيَّةَ الشَّرِيفَةَ لَا بُدَّ لَنَا مِنْ إِلْقَاءِ بَعْضِ الْأَضْوَاءِ عَلَى بَعْـــضِ الْوُفُودِ مِنَ الْقَبَائِلِ، لِمَا كَانَ لَهَا مِنْ دَوْرٍ مُسْـــتَقْبَلِيٍّ وَأَثَرٍ بَارِزٍ فِي نَشْرِ الْإِسْلَامِ أَثْنَاءَ الْفَتْحِ.

❊❊❊

وَفْدُ «تَمِيمٍ»

بَعَثَ رَسُـــولُ اللهِ ﷺ «بِشْـــرَ بْنَ سُـــفْيَانَ» عَلَى صَدَقَاتِ (زَكَاةِ) «بَنِي كَعْبٍ مِنْ خُزَاعَةَ»، فَجَاءَهُمْ وَقَـــدْ حَلَّ بِنَوَاصِيهِمْ «بَنُو عَمْرِو بْنِ جُنْدَبِ ابْنِ الْعَنْبَرِ بْنِ عَمْرِو بْنِ تَمِيمٍ»...

فَجَمَعَتْ «خُزَاعَةُ» مَوَاشِيَهَا لِلصَّدَقَةِ، فَاسْتَنْكَرَ ذَلِكَ «بَنُو تَمِيمٍ» وَأَبَوْا، وَابْتَدَرُوا الْقِسِيَّ وَشَهَرُوا السُّيُوفَ!

فَعَادَ «بِشْرٌ» إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، فَقَالَ «عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ»:

- مَنْ لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ؟

فَانْتَدَبَ لَهُمْ «عُيَيْنَةَ بْنَ بَدْرٍ الْفَزَارِيَّ»، فَبَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي خَمْسِينَ فَارِسًا مِنَ الْعَرَبِ، لَيْسَ فِيهِمْ مُهَاجِرِيٌّ وَلَا أَنْصَارِيٌّ، فَأَغَارَ عَلَيْهِمْ، فَأَخَذَ أَحَدَ

عَشَرَ رَجُلًا وَإِحْدَى عَشْرَةَ امْرَأَةً، وَثَلَاثِينَ صَبِيًّا، فَجَلَبَهُمْ إِلَى «الْمَدِينَةِ».

تَقَدَّمَ مِنْ أَجْلِ خَلَاصِهِمْ وَفَكَاكِ أَسْرِهِمْ عِدَّةٌ مِنْ رُؤَسَاءِ «بَنِي تَمِيمٍ»، مِنْهُمْ: «عُطَارِدُ بْنُ حَاجِبٍ» وَ«الزِّبْرِقَانُ بْنُ بَدْرٍ» وَ«الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ» وَغَيْرُهُمْ...، وَقِيلَ إِنَّهُمْ كَانُوا بَيْنَ الثَّمَانِينَ وَالتِّسْعِينَ رَجُلًا!

فِي حَضْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ

فَدَخَلُوا الْمَسْجِدَ، وَقَدْ أَذَّنَ «بِلَالٌ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ لِصَلَاةِ الظُّهْرِ، وَالنَّاسُ مِنْ وَفْدِ «تَمِيمٍ» يَنْتَظِرُونَ خُرُوجَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَاسْتَبْطَئُوهُ فَنَادَوْهُ:

ـ يَا «مُحَمَّدُ» اخْرُجْ إِلَيْنَا.

فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ، وَأَقَامَ «بِلَالٌ» الصَّلَاةَ، فَصَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ أَتَوْهُ.. فَقَالَ «الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ»:

ـ يَا «مُحَمَّدُ» ائْذَنْ لِي... فَوَاللهِ إِنَّ حَمْدِي لَزَيْنٌ، وَإِنَّ ذَمِّي لَشَيْنٌ.

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

ـ كَذَبْتَ... ذَلِكَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَجَلَسَ، وَخَطَبَ خَطِيبُهُمْ، وَهُوَ: «عُطَارِدُ بْنُ حَاجِبٍ»، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِـ «ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ»:

ـ أَجِبْهُ...

فَأَجَابَهُ، ثُمَّ قَالُوا:

- يَا «مُحَمَّدُ» ائْذَنْ لِشَاعِرِنَا.

فَأَذِنَ لَهُ، فَقَامَ «الزِّبْرِقَانُ بْنُ بَدْرٍ» فَأَنْشَدَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِـ «حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ»: أَجِبْهُ. فَأَجَابَهُ بِمِثْلِ شِعْرِهِ.

فَقَالُوا:

- وَاللهِ لَخَطِيبُهُ أَبْلَغُ مِنْ خَطِيبِنَا، وَلَشَاعِرُهُ أَشْعَرُ مِنْ شَاعِرِنَا، وَلَهُمْ أَحْلَمُ مِنَّا.

وَقَدْ نَزَلَ فِي هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ مِنْ «بَنِي تَمِيمٍ» قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (الْحُجُرَاتُ: 4).

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي أَحَدِ رِجَالَاتِ الْوَفْدِ «قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ»:

- هَذَا سَيِّدُ أَهْلِ الْوَبَرِ.

ثُمَّ رَدَّ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَسْرَاهُمْ وَسَبْيَهُمْ، وَأَمَرَ لَهُمْ بِالْجَوَائِزِ، فَانْصَرَفُوا مُسْلِمِينَ شَاكِرِينَ، وَلَقَدْ كَانَ لِكَثِيرِينَ مِنْهُمْ أَدْوَارٌ وَمَوَاقِفُ وَمَشَاهِدُ.

❊❊❊

وَفْدُ «فَزَارَةَ»

لَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ غَزْوَةِ «تَبُوكَ» سَنَةَ تِسْعٍ، قَدِمَ عَلَيْهِ وَفْدُ «بَنِي فَزَارَةَ» ـ بِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا ـ، فِيهِمْ «خَارِجَةُ بْنُ حِصْنٍ» وَ«الْحُرُّ

ابْنُ قَيْسٍ».. أَتَوُا «الْمَدِينَةَ» عَلَى رِكَابٍ عِجَافٍ، هَزِيلَةٍ ضَعِيفَةٍ، مُقِرِّينَ بِالْإِسْلَامِ، فَسَأَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ بِلَادِهِمْ؛ أَرْضِهِمْ وَدِيَارِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ، فَقَالَ قَائِلُهُمْ:

- يَا رَسُولَ اللهِ.. أَسْنَتَتْ بِلَادُنَا (أَصَابَهَا الْقَحْطُ)، وَهَلَكَتْ مَوَاشِينَا، فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ.

فَصَعِدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمِنْبَرَ وَدَعَا، فَقَالَ:

- اللَّهُمَّ اسْقِ بِلَادَكَ وَبَهَائِمَكَ، وَانْشُرْ رَحْمَتَكَ، وَأَحْيِ بَلَدَكَ الْمَيِّتَ، اللَّهُمَّ اسْقِنَا غَيْثًا مُغِيثًا مَرِيئًا، سُقْيَا رَحْمَةٍ لَا سُقْيَا عَذَابٍ وَلَا هَدْمٍ وَلَا غَرَقٍ وَلَا قَحْفٍ.. اللَّهُمَّ اسْقِنَا الْغَيْثَ وَانْصُرْنَا عَلَى الْأَعْدَاءِ...

فَمَطَرَتْ. فَمَا رَأَوُا السَّمَاءَ سِتًّا (أَيْ سِتَّةَ أَيَّامٍ مُتَتَالِيَةٍ)، فَصَعِدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمِنْبَرَ فَدَعَا، وَقَالَ:

- اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا، عَلَى الْآكَامِ وَالظِّرَابِ وَبُطُونِ الْأَوْدِيَةِ وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ.

فَانْجَابَتِ السَّمَاءُ عَنِ «الْمَدِينَةِ» انْجِيَابَ الثَّوْبِ.

❋❋❋

وَفْدُ «مُرَّةَ»

وَقَدِمَ وَفْدُ «بَنِي مُرَّةَ» عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مَرْجِعَهُ مِنْ «تَبُوكَ» سَنَةَ تِسْعٍ، وَكَانُوا ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا، عَلَى رَأْسِهِمُ «الْحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ» فَقَالُوا:

- يَا رَسُولَ اللهِ.. إِنَّا قَوْمُكَ وَعَشِيرَتُكَ، فَنَحْنُ قَوْمٌ مِنْ «بَنِي لُؤَيِّ بْنِ غَالِبٍ».

فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ لِـ «الْحَارِثِ بْنِ عَوْفٍ»:

- أَيْنَ تَرَكْتَ أَهْلَكَ؟

قَالَ:

- بِـ «سُلَاحٍ» وَمَا وَالَاهَا.

قَالَ:

- وَكَيْفَ الْبِلَادُ؟

قَالَ:

- وَاللهِ إِنَّا لَمُسْنِتُونَ، فَادْعُ اللهَ لَنَا.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

- اللَّهُمَّ اسْقِهِمُ الْغَيْثَ.

وَأَمَرَ «بِلَالًا» أَنْ يُجِيزَهُمْ، فَأَجَازَهُمْ بِعَشْرِ أَوَاقٍ مِنْ فِضَّةٍ. وَفَضَّلَ زَعِيمَهُمُ «الْحَارِثَ بْنَ عَوْفٍ» فَأَعْطَاهُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أُوقِيَّةً.

وَرَجَعُوا إِلَى بِلَادِهِمْ فَوَجَدُوهَا قَدْ مَطَرَتْ فِي الْيَوْمِ الَّذِي دَعَا لَهُمْ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

❋❋❋

وَفْدُ «كِلَابٍ»

وَقَدِمَ وَفْدَ «بَنُو كِلَابٍ» فِي سَنَةِ تِسْعٍ أَيْضًا، عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُمْ

ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فِيهِمْ: «لَبِيدُ بْنُ رَبِيعَةَ»، وَ«جَبَّارُ بْنُ سُلْمَى»، فَأَنْزَلَهُمْ دَارَ «رَمْلَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ».

وَكَانَ بَيْنَ «جَبَّارٍ» وَ«كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ» خُلَّةٌ وَصَدَاقَةٌ، فَبَلَغَ «كَعْبًا» قُدُومُهُمْ، فَرَحَّبَ بِهِمْ وَأَهْدَى لِـ «جَبَّارٍ» وَأَكْرَمَهُ، وَخَرَجُوا مَعَ «كَعْبٍ» فَدَخَلُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَسَلَّمُوا عَلَيْهِ بِسَلَامِ الْإِسْلَامِ، وَقَالُوا:

ـ إِنَّ «الضَّحَّاكَ بْنَ سُفْيَانَ» سَارَ فِينَا بِكِتَابِ اللهِ وَبِسُنَّتِكَ الَّتِي أَمَرْتَهُ، وَإِنَّهُ دَعَانَا إِلَى اللهِ فَاسْتَجَبْنَا لِلهِ وَرَسُولِهِ، وَإِنَّهُ أَخَذَ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِنَا فَرَدَّهَا عَلَى فُقَرَائِنَا.

❊❊❊

وَفْدُ «قُشَيْرِ بْنِ كَعْبٍ»

وَوَفَدَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ نَفَرٌ مِنْ «قُشَيْرٍ»، فِيهِمْ: «ثَوْرُ بْنُ عُرْوَةَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَمَةَ بْنِ قُشَيْرٍ» فَأَسْلَمَ...، فَأَقْطَعَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَطِيعَةً وَكَتَبَ لَهُمْ بِهَا كِتَابًا، وَمِنْهُمْ: «حَيْدَةُ بْنُ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُشَيْرٍ». ـ وَذَلِكَ قَبْلَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ وَبَعْدَ «حُنَيْنٍ» ـ وَمِنْهُمْ: «قُرَّةُ بْنُ هُبَيْرَةَ بْنِ سَلَمَةَ الْخَيْرِ بْنِ قُشَيْرٍ»، فَأَسْلَمَ، فَأَعْطَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَكَسَاهُ بُرْدًا، وَأَمَرَهُ أَنْ يَتَصَدَّقَ عَلَى قَوْمِهِ (أَيْ يَلِي الصَّدَقَةَ).

فَقَالَ «قُرَّةُ» حِينَ رَجَعَ:

حَبَاهَـا رَسُـولُ اللهِ إِذْ نَزَلَـتْ بِـهِ
وَأَمْكَنَهَـا مِـنْ نَائِـلٍ غَيْـرِ مُنْفِـذِ
فَأَضْحَتْ بِرَوْضِ الْخُضْـرِ وَهْيَ حَثِيثَةٌ
وَقَدْ أَنْجَحَتْ حَاجَاتِهَـا مِنْ «مُحَمَّدِ»
عَلَيْهَـا فَتًـى لَا يُـرْدِفُ الـذَّمَّ رَحْلُـهُ
تَـرُوكٌ لِأَمْـرِ الْعَاجِـزِ الْمُتَـرَدِّدِ

❊❊❊

وَفْدُ «بَنِي الْبَكَّاءِ»

وَفَدَ مِنْ «بَنِي الْبَكَّاءِ» عَلَى رَسُـولِ اللهِ ﷺ سَنَةَ تِسْعٍ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ: «مُعَاوِيَةُ ابْنُ ثَـوْرِ بْنِ عُبَادَةَ بْنِ الْبَكَّاءِ» وَهُوَ يَوْمَئِذٍ ابْنُ مِئَةِ سَـنَةٍ، وَمَعَهُ ابْنٌ يُقَالُ لَهُ «بِشْـرٌ». وَ«الْفَجِيعُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَنْدَحِ بْنِ الْبَكَّاءِ»، وَمَعَهُمْ «عَبْدُ عَمْرٍو الْبَكَّائِيُّ» وَهُوَ الْأَصَمُّ.

فَأَمَرَ لَهُمْ رَسُـولُ اللهِ ﷺ بِمَنْـزِلٍ وَضِيَافَةٍ، وَأَجَازَهُـمْ، وَرَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ.

وَقَالَ «مُعَاوِيَةُ» لِلنَّبِيِّ ﷺ:

ـ إِنِّي أَتَبَرَّكُ بِمَسِّكَ، وَقَدْ كَبِرْتُ، وَابْنِي هَذَا بَرٌّ بِي، فَامْسَحْ وَجْهَهُ.

فَمَسَـحَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ وَجْهَ «بِشْـرِ بْنِ مُعَاوِيَةَ»، وَأَعْطَاهُ أَعْنُزًا عُفْرًا وَبَرَّكَ عَلَيْهِنَّ.

وَيُرْوَى: كَانَتِ السَّنَةُ (أَيِ الْقَحْطُ وَالْجَدْبُ) رُبَّمَا أَصَابَتْ «بَنِي الْبَكَّاءِ» وَلَا تُصِيبُهُمْ. فَقَالَ فِي ذَلِكَ «مُحَمَّدُ بْنُ بِشْرِ بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ ثَوْرِ ابْنِ عُبَادَةَ بْنِ الْبَكَّاءِ»:

وَأَبِـي الَّذِي مَسَـحَ الرَّسُـولُ بِرَأْسِـهِ
وَدَعَـا لَـهُ بِالْخَيْـرِ وَالْبَـرَكَاتِ
أَعْطَـاهُ «أَحْمَـدُ» إِذْ أَتَـاهُ أَعْنُـزًا
عُفْـرًا نَوَاجِـلَ لَيْـسَ بِاللَّجِبَـاتِ
يَمْـلَأْنَ وَفْـدَ الْحَـيِّ كُلَّ عَشِـيَّةٍ
وَيَعُـودُ ذَاكَ الْمَـلْءُ بِالْغَـزَوَاتِ
بُورِكْـنَ مِـنْ مِنَـحٍ وَبُـورِكَ مَانِحًـا
وَعَلَيْـهِ مِنِّـي مَـا حَيِيـتُ صَلَاتِـي

❊❊❊

وَفْدُ «ثَقِيفٍ»

يُرْوَى أَنَّ «عُرْوَةَ بْنَ مَسْـعُودٍ» وَ«غَيْلَانَ بْنَ سَلَمَةَ» لَمْ يَحْضُرَا حِصَارَ «الطَّائِفِ»، إِذْ كَانَا فِي «جَرَشٍ» (مَكَانٍ بِالْأَرْدُنِّ) يَتَعَلَّمَانِ صَنْعَةَ الْعَرَّادَاتِ وَالْمَنْجَنِيقِ وَالدَّبَّابَاتِ.

فَقَدِمَا وَقَدِ انْصَرَفَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ عَنِ «الطَّائِـفِ»، فَنَصَبَا الْمَنْجَنِيقَ وَالْعَـرَّادَاتِ وَالدَّبَّابَـاتِ وَأَعَدَّا لِلْقِتَـالِ، ثُمَّ أَلْقَـى اللهُ فِي قَلْبِ «عُرْوَةَ» الْإِسْلَامَ، وَغَيَّرَهُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ، فَخَرَجَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَسْلَمَ.

ثُمَّ اسْتَأْذَنَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي الْخُرُوجِ إِلَى قَوْمِهِ؛ لِيَدْعُوَهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَقَالَ لَهُ «عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ»:

- إِنَّهُمْ إِذَنْ قَاتِلُوكَ!

قَالَ:

- لَأَنَا أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ أَبْكَارِ أَوْلَادِهِمْ.

ثُمَّ اسْتَأْذَنَهُ الثَّانِيَةَ وَالثَّالِثَةَ، فَقَالَ ﷺ:

- إِنْ شِئْتَ فَاخْرُجْ.

فَخَرَجَ فَسَارَ إِلَى «الطَّائِفِ» خَمْسًا، فَقَدِمَ عِشَاءً، فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَجَاءَ قَوْمُهُ فَحَيَّوْهُ بِتَحِيَّةِ الشِّرْكِ، فَقَالَ: عَلَيْكُمْ بِتَحِيَّةِ أَهْلِ الْجَنَّةِ... السَّلَامِ؛ وَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ.

فَخَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ يَأْتَمِرُونَ بِهِ، فَلَمَّا طَلَعَ الْفَجْرُ أَوْفَى عَلَى غُرْفَةٍ لَهُ فَأَذَّنَ بِالصَّلَاةِ، فَخَرَجَتْ «ثَقِيفٌ» مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، فَرَمَاهُ رَجُلٌ مِنْ «بَنِي مَالِكٍ» يُقَالُ لَهُ: «أَوْسُ بْنُ عَوْفٍ»، فَأَصَابَ أَكْحَلَهُ، فَلَمْ يَرْقَأْ دَمُهُ.

وَقَامَ «غَيْلَانُ بْنُ سَلَمَةَ» وَ«كِنَانَةُ بْنُ عَبْدِ يَالِيلَ» وَ«الْحَكَمُ بْنُ عَمْرِو ابْنِ وَهْبٍ» وَوُجُوهُ الْأَحْلَافِ، فَلَبِسُوا السِّلَاحَ وَحَشَدُوا، فَلَمَّا رَأَى «عُرْوَةُ» ذَلِكَ قَالَ:

- قَدْ تَصَدَّقْتُ بِدَمِي عَلَى صَاحِبِهِ لِأُصْلِحَ بِذَلِكَ بَيْنَكُمْ، وَهِيَ كَرَامَةٌ أَكْرَمَنِي اللهُ بِهَا، وَشَهَادَةٌ سَاقَهَا اللهُ إِلَيَّ، وَقَالَ:

- ادْفِنُونِي مَعَ الشُّهَدَاءِ الَّذِينَ قُتِلُوا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وَمَاتَ، فَدَفَنُوهُ مَعَهُمْ.

وَبَلَغَ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَبَرُهُ فَقَالَ:

«مَثَلُهُ كَمَثَلِ صَاحِبِ «يَاسِينَ» دَعَا قَوْمَهُ إِلَى اللهِ فَقَتَلُوهُ».

وَلَحِقَ «أَبُو الْمُلَيْحِ بْنُ عُرْوَةَ»، وَ«قَارِبُ بْنُ الْأَسْوَدِ بْنِ مَسْعُودٍ» بِالنَّبِيِّ ﷺ فَأَسْلَمَا.

وَسَأَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ «مَالِكِ بْنِ عَوْفٍ» فَقَالَا: تَرَكْنَاهُ بِالطَّائِفِ.

فَقَالَ ﷺ:

- خَبِّرُوهُ أَنَّهُ إِنْ أَتَانِي مُسْلِمًا رَدَدْتُ إِلَيْهِ أَهْلَهُ وَمَالَهُ، وَأَعْطَيْتُهُ مِئَةً مِنَ الْإِبِلِ.

فَقَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَعْطَاهُ ذَلِكَ، وَقَالَ:

- يَا رَسُولَ اللهِ أَنَا أَكْفِيكَ «ثَقِيفًا»... أُغِيرُ عَلَى سَرْحِهِمْ حَتَّى يَأْتُوكَ مُسْلِمِينَ.

فَاسْتَعْمَلَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى مَنْ أَسْلَمَ مِنْ قَوْمِهِ وَالْقَبَائِلِ، فَكَانَ يُغِيرُ عَلَى سَرْحِ «ثَقِيفٍ» وَيُقَاتِلُهُمْ.

فَلَمَّا رَأَتْ ذَلِكَ «ثَقِيفٌ»، مَشَوْا إِلَى «عَبْدِ يَالِيلَ» وَائْتَمَرُوا بَيْنَهُمْ أَنْ يَبْعَثُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ نَفَرًا مِنْهُمْ وَفْدًا.

فَخَرَجَ «عَبْدُ يَالِيلَ» وَابْنَاهُ «كِنَانَةُ» وَ«رَبِيعَةُ»، وَ«شُرَحْبِيلُ بْنُ غَيْلَانَ»، وَ«الْحَكَمُ بْنُ عَمْرِو بْنِ وَهْبِ بْنِ مُعَتِّبٍ»، وَ«عُثْمَانُ بْنُ أَبِي الْعَاصِ»، وَ«أَوْسُ بْنُ عَوْفٍ»، وَ«نُمَيْرُ بْنُ خَرَشَةَ» فَسَارُوا فِي سَبْعِينَ رَجُلًا!

قَالَ «الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ:

ـ إِنِّي لَفِي رِكَابِ الْمُسْلِمِينَ بِـ «ذِي حَرَضٍ»، فَإِذَا «عُثْمَانُ بْنُ أَبِي الْعَاصِ» تَلَقَّانِي يَسْتَخْبِرُنِي، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ خَرَجْتُ أَشْتَدُّ أُبَشِّرُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِقُدُومِهِمْ...

فَلَقِيَنِي «أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ فَأَخْبَرْتُهُ بِقُدُومِهِمْ، فَقَالَ:

ـ أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ لَا تَسْبِقْنِي إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِخَبَرِهِمْ.

فَدَخَلَ فَأَخْبَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَسُرَّ بِمَقْدَمِهِمْ.

وَنَزَلَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ مِنَ الْأَحْلَافِ عَلَى «الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ» فَأَكْرَمَهُمْ؛ فَضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ لِمَنْ كَانَ فِيهِمْ مِنْ «بَنِي مَالِكٍ» قُبَّةً فِي الْمَسْجِدِ؛ فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْتِيهِمْ كُلَّ لَيْلَةٍ بَعْدَ الْعِشَاءِ فَيَقِفُ عَلَيْهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ حَتَّى يُرَاوِحَ بَيْنَ قَدَمَيْهِ، وَيَشْكُو قُرَيْشًا، وَيَذْكُرُ الْحَرْبَ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ.

ثُمَّ قَاضَى النَّبِيُّ ﷺ «ثَقِيفًا» عَلَى قَضِيَّةٍ، وَعُلِّمُوا الْقُرْآنَ، وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ «عُثْمَانَ بْنَ أَبِي الْعَاصِ»، وَاسْتَعْفَتْ «ثَقِيفٌ» مِنْ هَدْمِ «اللَّاتِ» وَ«الْعُزَّى» فَأَعْفَاهُمْ.

قَالَ «الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ»:

ـ فَكُنْتُ أَنَا هَدَمْتُهَا. فَدَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ، فَلَا أَعْلَمُ قَوْمًا مِنَ الْعَرَبِ، بَنِي أَبٍ وَلَا قَبِيلَةٍ كَانُوا أَصَحَّ إِسْلَامًا، وَلَا أَبْعَدَ أَنْ يُوجَدَ فِيهِمْ غِشٌّ لِلهِ وَلِكِتَابِهِ، مِنْهُمْ.

وَفْدُ «تُجِيبَ»

وَقَدِمَ وَفْدُ «تُجِيبَ» عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ سَنَةَ تِسْعٍ، وَهُمْ ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا، وَسَاقُوا مَعَهُمْ صَدَقَاتِ أَمْوَالِهِمُ الَّتِي فَرَضَ اللهُ عَلَيْهِمْ، فَسُرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِهِمْ وَقَالَ:

- مَرْحَبًا بِكُمْ.

وَأَكْرَمَ مَنْزِلَهُمْ وَحَبَاهُمْ، وَأَمَرَ «بِلَالًا» أَنْ يُحْسِنَ ضِيَافَتَهُمْ وَجَوَائِزَهُمْ، وَأَعْطَاهُمْ أَكْثَرَ مِمَّا كَانَ يُجِيزُ بِهِ الْوَفْدَ، وَقَالَ:

- هَلْ بَقِيَ مِنْكَ أَحَدٌ؟

قَالُوا:

- غُلَامٌ خَلَّفْنَاهُ عَلَى رِحَالِنَا، وَهُوَ أَحْدَثُنَا سِنًّا.

قَالَ:

- أَرْسِلُوهُ إِلَيْنَا.

فَأَقْبَلَ الْغُلَامُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ:

- إِنِّي امْرُؤٌ مِنْ بَنِي أَبْنَاءِ الرَّهْطِ الَّذِينَ أَتَوْكَ آنِفًا فَقَضَيْتَ حَوَائِجَهُمْ، فَاقْضِ حَاجَتِي.

قَالَ:

- وَمَا حَاجَتُكَ؟

قَالَ:

- تَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَغْفِرَ لِي وَيَرْحَمَنِي، وَيَجْعَلَ غِنَايَ فِي قَلْبِي.

فَقَالَ «عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ»:

- اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ، وَاجْعَلْ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ.

ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِمِثْلِ مَا أَمَرَ بِهِ لِرَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَانْطَلَقُوا رَاجِعِينَ إِلَى أَهْلِيهِمْ، ثُمَّ وَافَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي الْمَوْسِمِ بِـ «مِنًى» سَنَةَ عَشْرٍ، فَسَأَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الْغُلَامِ، فَقَالُوا:

- مَا رَأَيْنَا مِثْلَهُ أَقْنَعَ مِنْهُ بِمَا رَزَقَهُ اللهُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

- إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ نَمُوتَ جَمِيعًا.

❊❊❊

وَفْدُ «صُدَاءَ»

لَمَّا انْصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ «الْجِعْرَانَةِ» سَنَةَ ثَمَانٍ مِنَ الْهِجْرَةِ، بَعَثَ «قَيْسَ بْنَ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ» إِلَى نَاحِيَةِ «الْيَمَنِ»، وَأَمَرَهُ أَنْ يَطَأَ «صُدَاءَ»، فَعَسْكَرَ بِنَاحِيَةِ «قَنَاةَ» فِي أَرْبَعِمِئَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

وَقَدِمَ رَجُلٌ مِنْ «صُدَاءَ» فَسَأَلَ عَنْ ذَلِكَ الْبَعْثِ، فَأُخْبِرَ بِهِمْ، فَخَرَجَ سَرِيعًا حَتَّى وَرَدَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ:

- جِئْتُكَ وَافِدًا عَلَى مَنْ وَرَائِي، فَارْدُدِ الْجَيْشَ وَأَنَا لَكَ بِقَوْمِي.

فَرَدَّهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

فَقَدِمَ مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى رَسُــولِ اللهِ ﷺ خَمْسَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَأَسْلَمُوا وَبَايَعُوا رَسُــولَ اللهِ ﷺ عَلَى مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ، وَرَجَعُوا إِلَى بِلَادِهِمْ، فَفَشَا فِيهِمُ الْإِسْلَامُ، فَوَافَى النَّبِيَّ ﷺ مِئَةُ رَجُلٍ مِنْهُمْ فِي «حَجَّةِ الْوَدَاعِ».

❊❊❊

وَفْدُ «بَلِيٍّ»

رَوَى «رُوَيْفِعُ بْنُ ثَابِتٍ الْبَلَوِيُّ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ فَقَالَ:

- قَدِمَ وَفْدُ قَوْمِي فِي شَــهْرِ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ سَنَةَ تِسْعٍ، فَأَنْزَلْتُهُمْ فِي مَنْزِلِي بِـ «بَنِي جَدِيلَةَ»، ثُــمَّ خَرَّجْتُهُمْ حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى رَسُــولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ مَعَ أَصْحَابِهِ فِي بَيْتِهِ فِي الْغَدَاةِ، فَقَدِمَ شَــيْخُ الْوَفْدِ «أَبُو الضَّبَابِ» فَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُــولِ اللهِ ﷺ فَتَكَلَّمَ، وَأَسْلَمَ الْقَوْمُ، وَسَــأَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الضِّيَافَةِ وَأَشْــيَاءَ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ، فَأَجَابَهُمْ، ثُمَّ رَجَعْتُ بِهِمْ إِلَى مَنْزِلِي، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْتِي بِحِمْلِ تَمْرٍ يَقُولُ: «اسْتَعِنْ بِهَذَا التَّمْرِ».

قَالَ «رُوَيْفِعٌ»:

- فَكَانُوا يَأْكُلُونَ مِنْهُ وَمِنْ غَيْرِهِ، فَأَقَامُوا ثَلَاثًا، ثُمَّ جَاءُوا رَسُــولَ اللهِ ﷺ يُوَدِّعُونَهُ، فَأَمَــرَ لَهُمْ بِجَوَائِزَ كَمَا كَانَ يُجِيزُ مَــنْ قَبْلَهُمْ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى بِلَادِهِمْ.

❊❊❊

وَبَعْدُ ـ عَزِيزِي الْقَارِئَ ـ

فَهَذِهِ لَيْسَتْ كُلَّ الْوُفُودِ الَّتِي وَفَدَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي «الْمَدِينَةِ» بَعْدَ فَتْحِ «مَكَّةَ» أَوْ بَعْدَ «حُنَيْنٍ» وَ«الطَّائِفِ» وَ«تَبُوكَ»، أَوْ بَعْدَ «حَجَّةِ الْوَدَاعِ»؛ فَهُنَاكَ الْكَثِيرُ وَالْكَثِيرُ غَيْرُهَا، كُلُّهَا أَوْ جُلُّهَا جَاءَ مُعْلِنًا إِسْلَامَهُ وَدُخُولَهُ فِي الدِّينِ الْحَنِيفِ.

وَنَحْنُ إِنَّمَا أَوْرَدْنَا لَكَ أَسْمَاءَ بَعْضِ الْوُفُودِ؛ لِنُعْطِيَ صُورَةً عَنْ كَيْفِيَّةِ وُصُولِهَا، وَاسْتِضَافَتِهَا، وَإِكْرَامِهَا، وَإِذْعَانِهَا لِمَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى، وَانْتِقَالِهَا مِنْ ثَمَّ إِلَى صُفُوفِ الْمُؤْمِنِينَ، الصَّادِقِينَ فِي إِسْلَامِهِمْ، الثَّابِتِينَ فِي إِيمَانِهِمْ، الْمُوفِينَ بِعُهُودِهِمْ وَبَيْعَتِهِمْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ.

وَإِنَّكَ لَتَقْرَأُ قَوْلَ اللهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ النَّصْرِ:

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾ ﴾.

(سُورَةُ النَّصْرِ)

فَيَنْزِلُ الْمَعْنَى مِنْ قَلْبِكَ وَعَقْلِكَ وَوِجْدَانِكَ فِي أَسْمَى مَنْزِلٍ وَأَكْرَمِهِ.

وَتَقُولُ لِنَفْسِكَ:

ـ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا؟!!

وَصَدَقَ اللهُ الْعَظِيمُ، أَوَّلًا وَآخِرًا.

إِلَى الرَّفِيقِ الْأَعْلَى

قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الزُّمَرُ: 30).

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ (آلَ عِمْرَانَ: 144).

***

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا مِنْ بَعْدِي؛ كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي».

***

لَمَّا كَانَ يَوْمُ الِاثْنَيْنِ لِأَرْبَعِ لَيَالٍ بَقِينَ مِنْ شَهْرِ صَفَرٍ سَنَةَ إِحْدَى عَشْرَةَ لِلْهِجْرَةِ، أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ بِالتَّهَيُّؤِ لِغَزْوِ الرُّومِ.

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي دَعَا إِلَيْهِ «أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ وَأَمَّرَهُ عَلَى الْجَيْشِ الَّذِي يَسْتَعِدُّ لِلْخُرُوجِ، وَقَالَ لَهُ:

ـ سِرْ إِلَى مَوْضِعِ مَقْتَلِ أَبِيكَ (مُؤْتَةَ عَلَى أَطْرَافِ الشَّامِ) فَأَوْطِئْهُمُ الْخَيْلَ، فَقَدْ وَلَّيْتُكَ هَذَا الْجَيْشَ؛ فَأَغِرْ صَبَاحًا عَلَى أَهْلِ «أُبْنَى» وَحَرِّقْ عَلَيْهِمْ، وَأَسْرِعِ السَّيْرَ تَسْبِقِ الْأَخْبَارَ، فَإِنْ أَظْفَرَكَ اللهُ فَأَقْلِلِ اللُّبْثَ فِيهِمْ، وَخُذْ مَعَكَ الْأَدِلَّاءَ، وَقَدِّمِ الْعُيُونَ (الْجَوَاسِيسَ، أَوِ الِاسْتِخْبَارَاتِ الْعَسْكَرِيَّةَ) وَالطَّلَائِعَ أَمَامَكَ.

وَفِي صَبِيحَةِ يَوْمِ الْأَرْبِعَاءِ شَعَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْحُمَّى وَالصُّدَاعِ، وَتَعِبَ يَوْمَهُ كُلَّهُ. فَلَمَّا أَصْبَحَ يَوْمَ الْخَمِيسِ، عَقَدَ لِـ «أُسَامَةَ» لِوَاءً بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ:

ـ اغْزُ بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَاتِلْ مَنْ كَفَرَ بِاللهِ.

فَخَرَجَ «أُسَامَةُ» مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِاللِّوَاءِ الْمَعْقُودِ، فَأَعْطَاهُ إِلَى «بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ الْأَسْلَمِيِّ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ، وَعَسْكَرَ بِـ «الْجُرْفِ». وَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِنْ وُجُوهِ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ وَالْأَنْصَارِ إِلَّا انْتُدِبَ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ.

فَقَدْ كَانَ فِي جَيْشِ «أُسَامَةَ»: «أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ»، وَ«عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ»، وَ«أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ»، وَ«سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ»، وَ«سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ»، وَ«قَتَادَةُ بْنُ النُّعْمَانِ»، وَ«سَلَمَةَ بْنُ أَسْلَمَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

لَكِنَّ بَعْضَ النَّاسِ انْتَقَدُوا إِمَارَةَ «أُسَامَةَ»، وَهُوَ شَابٌّ صَغِيرٌ يَافِعٌ لَمْ يَتَعَدَّ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ، عَلَى جَيْشٍ فِيهِ شُيُوخُ الصَّحَابَةِ وَكِبَارُهُمْ، وَقَالُوا:

ـ يَسْتَعْمِلُ هَذَا الْغُلَامَ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ؟!

وَعَلِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَقَالَةِ هَؤُلَاءِ، فَغَضِبَ غَضَبًا شَدِيدًا، وَتَحَامَلَ عَلَى نَفْسِهِ فِي مَرَضِهِ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ وَقَدْ عَصَبَ رَأْسَهُ، وَوَضَعَ عَلَى كَتِفَيْهِ قَطِيفَةً، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ:

ـ أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ، فَمَا مَقَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْ بَعْضِكُمْ فِي تَأْمِيرِي «أُسَامَةَ»، وَلَئِنْ طَعَنْتُمْ فِي إِمَارَتِي «أُسَامَةَ»، فَلَقَدْ طَعَنْتُمْ فِي إِمَارَتِي أَبَاهُ مِنْ قَبْلِهِ! وَايْمُ اللهِ إِنْ كَانَ لِلْإِمَارَةِ لَخَلِيقًا، وَإِنَّ ابْنَهُ مِنْ بَعْدِهِ لَخَلِيقٌ لِلْإِمَارَةِ، وَإِنْ كَانَ لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَإِنَّهُمَا لَمُخَيَّلَانِ لِكُلِّ خَيْرٍ، وَاسْتَوْصُوا بِهِ خَيْرًا فَإِنَّهُ مِنْ خِيَارِكُمْ.

ثُمَّ نَزَلَ فَدَخَلَ بَيْتَهُ. وَكَانَ ذَلِكَ يَوْمَ السَّبْتِ فِي الْعَاشِرِ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ سَنَةَ إِحْدَى عَشْرَةَ.

وَبَدَأَ الْجُنْـدُ يَتَوَافَدُونَ عَلَى رَسُـولِ اللهِ ﷺ يُوَدِّعُونَهُ، وَهُوَ فِي أَشَـدِّ حَالَاتِ الْمَرَضِ، لَكِنَّهُ كَانَ يَقُولُ لِكِبَارِ الصَّحَابَةِ:

ـ أَنْفِذُوا بَعْثَ «أُسَامَةَ»؟

وَأَتَاهُ «أُسَـامَةُ» مُوَدِّعًا مُسْتَأْذِنًا بِالْمَسِـيرِ، فَوَجَدَهُ مَغْمُورًا قَدِ ارْتَفَعَتْ دَرَجَةُ الْحُمَّى عِنْدَهُ، فَطَأْطَأَ «أُسَـامَةُ»، فَقَبَّلَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَجَعَلَ يَرْفَعُ يَدَيْهِ الشَّـرِيفَتَيْنِ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ يَضَعُهُمَا عَلَى «أُسَامَةَ» وَلَا يَتَكَلَّمُ؛ وَعَرَفَ «أُسَامَةُ» أَنَّ رَسُـولَ اللهِ يَدْعُو لَهُ؛ فَدَمِعَتْ عَيْنَاهُ تَأَثُّرًا، ثُمَّ غَادَرَ إِلَى حَيْثُ مُعَسْكَرُهُ.

وَمِمَّا يُـرْوَى عَنْ مَرَضِ وَفَاتِهِ ﷺ أَنَّهُ قَدْ بَدَأَ بِهِ الْأَلَمُ وَالصُّدَاعُ وَالْحُمَّى فِي دَارِ زَوْجَتِـهِ «مَيْمُونَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ» ـ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ. وَعِنْدَمَا خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ، وَأَمَّرَ «أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ» عَلَى الْجَيْشِ، ثُمَّ رَجَعَ، عَادَ إِلَى دَارِ «مَيْمُونَةَ»...

وَتَحَدَّثَتِ السَّيِّدَةُ «عَائِشَـةُ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ بَعْدَ أَنِ انْتَقَلَ إِلَى دَارِهَا مُسْتَأْذِنًا زَوْجَاتِهِ، فَقَالَتْ:

ـ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ طَرَقَهُ وَجَعٌ، فَجَعَلَ يَشْتَكِي وَيَتَقَلَّبُ عَلَى فِرَاشِهِ.

فَقُلْتُ لَهُ:

ـ يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ صَنَعَ هَذَا بَعْضُنَا لَوَجَدْتَ عَلَيْهِ.

فَقَالَ ﷺ:

ـ إِنَّ الصَّالِحِينَ يُشَـدَّدُ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُ لَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ نَكْبَةٌ مِنْ شَوْكَةٍ فَمَا فَوْقَهَـا إِلَّا رَفَعَ اللهُ لَهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً.

وَحَدَّثَ «أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ فَقَالَ:

ـ جِئْنَـا النَّبِيَّ ﷺ فَإِذَا عَلَيْهِ صَالِبٌ مِنَ الْحُمَّى، مَـا تَكَادُ تَقَرُّ يَدُ أَحَدِنَا عَلَيْهِ مِنْ شِـدَّةِ الْحُمَّى. فَجَعَلْنَا نُسَبِّحُ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ:

ـ لَيْسَ أَحَدٌ أَشَـدَّ بَلَاءً مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، كَمَا يَشْـتَدُّ عَلَيْنَـا الْبَلَاءُ، كَذَلِكَ يُضَاعَفُ لَنَا الْأَجْرُ.

وَرَوَتْ «عَائِشَـةُ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ عَنْ أَيَّامِ مَرَضِهِ، فَقَالَتْ:

ـ كَانَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ وَجِعًا، فَدَخَلَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ يَعُودُونَهُ فَصَلَّى بِهِمْ قَاعِدًا وَهُمْ قِيَـامٌ، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِمْ أَنِ اقْعُدُوا، فَلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ قَالَ:

ـ إِنَّمَا جُعِـلَ الْإِمَامُ لِيُؤْتَـمَّ بِهِ، فَإِذَا كَبَّـرَ فَكَبِّرُوا، وَإِذَا رَكَعَ فَارْكَعُـوا، وَإِذَا سَـجَدَ فَاسْـجُدُوا، وَإِذَا قَعَدَ فَاقْعُدُوا، وَاصْنَعُوا مِثْلَ مَا يَصْنَعُ الْإِمَامُ.

وَأَمَرَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ صَاحِبَهُ وَصَفِيَّـهُ «أَبَا بَكْرٍ» أَنْ يُصَـلِّيَ بِالنَّاسِ فِي الْمَسْـجِدِ بَدَلًا عَنْهُ، حِيـنَ لَمْ يَعُدْ قَادِرًا عَلَى النُّهُوضِ وَالْمَشْـيِ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَلَمَّا افْتَتَحَ «أَبُو بَكْرٍ» الصَّلَاةَ، فِي الْيَوْمِ الَّذِي سَبَقَ وَفَاتَهُ ﷺ؛ وَجَدَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ نَشَـاطًا وَخِفَّةً، فَخَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ، وَجَعَلَ يُفَرِّجُ الصُّفُوفَ، فَلَمَّا سَـمِعَ «أَبُو بَكْرٍ» الْحِسَّ، عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَتَقَدَّمُ ذَلِكَ التَّقَدُّمَ

إِلَّا رَسُــولُ اللهِ ﷺ، فَتَأَخَّرَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ إِلَى الصَّفِّ وَرَاءَهُ، فَرَدَّهُ ﷺ إِلَى مَكَانِهِ، وَجَلَسَ إِلَى جَنْبِ «أَبِي بَكْرٍ» وَ«أَبُو بَكْرٍ» قَائِمٌ.

فَلَمَّا فَرَغَتِ الصَّلَاةُ، قَالَ «أَبُو بَكْرٍ»:

ـ أَيْ رَسُولَ اللهِ أَرَاكَ أَصْبَحْتَ بِحَمْدِ اللهِ صَالِحًا.

ثُمَّ اسْتَأْذَنَهُ فِي زِيَارَةٍ خَاصَّةٍ، فَأَذِنَ لَهُ، وَجَلَسَ ﷺ فِي مُصَلَّاهُ إِلَى جَانِبِ الْحِجْرِ، فَحَذَّرَ النَّاسَ مِنَ الْفِتَنِ، ثُمَّ نَــادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ، حَتَّى إِنَّ صَوْتَهُ لَيَخْرُجُ مِنْ بَابِ الْمَسْجِدِ، فَقَالَ:

ـ يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُــولِ اللهِ.. اعْمَلَا لِمَا عِنْدَ اللهِ، فَإِنِّي لَا أُغْنِي عَنْكُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا.

ثُمَّ قَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ.

وَرَوَى «أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ـ أَيْ فِي مَرَضِ وَفَاتِهِ ﷺ :

ـ إِنَّ اللهَ خَيَّــرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللهِ.

فَبَكَــى «أَبُو بَكْرٍ»، فَقُلْتُ فِي نَفْسِــي: وَمَا يُبْكِي هَذَا الشَّــيْخَ أَنْ يَكُونَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُخْبِرُنَا عَنْ عَبْدٍ خُيِّرَ فَاخْتَارَ؟

ثُمَّ قَالَ «أَبُو سَعِيدٍ»:

ـ وَكَانَ رَسُــولُ اللهِ ﷺ هُوَ الْمُخَيَّرَ، وَكَانَ «أَبُو بَكْــرٍ» أَعْلَمَنَا به، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

- يَـا «أَبَا بَكْرٍ» لَا تَبْكِ! أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ آمَـنَ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ «أَبُو بَكْرٍ»، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنَ النَّـاسِ خَلِيلًا كَانَ «أَبَا بَكْرٍ»، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الْإِسْـلَامِ وَمَوَدَّتُهُ. لا يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْـجِدِ بَابٌ إِلَّا سُدَّ، إِلَّا بَابَ «أَبِي بَكْرٍ».

وَرَوَتِ السَّيِّدَةُ «عَائِشَةُ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ فَقَالَتْ:

- دَخَـلَ «عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْـنُ أُمِّ رُومَانَ» أَخِي، عَلَى النَّبِـيِّ ﷺ يَعُودُهُ فِي مَرَضِهِ، وَفِي يَدِهِ سِوَاكٌ رَطْبٌ، وَكَانَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ مُولَعًا بِالسِّوَاكِ، فَرَأَيْتُهُ ﷺ يُشْخِصُ بَصَرَهُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ:
- يَا «عَبْدَ الرَّحْمَنِ» اقْضِمِ السِّوَاكَ.

فَنَاوَلَنِيـهِ فَمَضَغْتُهُ ثُمَّ أَدْخَلْتُهُ فِي فِيَّ (فَمِ) رَسُـولِ اللهِ ﷺ فَتَسَـوَّكَ بِهِ، فَجَمَعَ بَيْنَ رِيقِي وَرِيقِهِ.

وَرَوَتْ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ فَقَالَتْ:

- سَأَلَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَنَا مُسْنِدَتُهُ إِلَى صَدْرِي وَقَدْ أَفَاقَ مِنْ غَشْيَةٍ:
- يَا «عَائِشَـةُ» مَا فَعَلْتِ بِتِلْكَ الدَّنَانِيرِ الذَّهَبِ (وَكَانَتْ سِتَّةَ دَنَانِيرَ)؟

قُلْتُ:

- هِيَ عِنْدِي.

قَالَ:

- أَنْفِقِيهَا.

ثُمَّ غُشِيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ:

- أَأَنْفَقْتِ تِلْكَ الدَّنَانِيرَ يَا «عَائِشَةُ»؟

قُلْتُ:

- لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ.

فَأَمَرَنِي بِهَا، ثُمَّ وَضَعَهَا فِي كَفِّهِ فَعَدَّهَا، فَإِذَا هِيَ سِتَّةُ دَنَانِيرَ، فَقَالَ:

- مَا ظَنُّ «مُحَمَّدٍ» بِرَبِّهِ أَنْ لَوْ لَقِيَ اللهَ وَهَذِهِ عِنْدَهُ؟!

ثُمَّ قَسَّمَهَا كُلَّهَا ﷺ.

وَرَوَتْ أَيْضًا ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ فَقَالَتْ:

- دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ابْنَتَهُ «فَاطِمَةَ» فِي وَجَعِهِ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ؛ فَسَارَّهَا فِي شَيْءٍ فَبَكَتْ، ثُمَّ سَارَّهَا فَضَحِكَتْ، فَسَأَلْتُهَا عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَتْ:

- مَا كُنْتُ لِأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَلَمَّا قُبِضَ سَأَلْتُهَا، فَقَالَتْ:

- قَالَ إِنَّ «جِبْرِيلَ» كَانَ يَأْتِينِي كُلَّ عَامٍ فَيُعَارِضُنِي بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَرَّةً، وَإِنَّهُ أَتَانِي الْعَامَ فَعَارَضَنِي مَرَّتَيْنِ، وَلَا أَظُنُّ إِلَّا أَجَلِي قَدْ حَضَرَ، وَنِعْمَ السَّلَفُ أَنَا لَكِ.

ثُمَّ قَالَ:

- أَنْتِ أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِي لِحَاقًا بِي، فَبَكَيْتُ لِذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ:

- أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ؟ فَضَحِكْتُ.

وَكَانَ مِمَّا قَالَهُ ﷺ مُوصِيًا الْمُهَاجِرِينَ بِالْأَنْصَارِ:

- يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، إِنَّكُمْ أَصْبَحْتُمْ تَزِيدُونَ، وَالْأَنْصَارُ لَا تَزِيدُ عَلَى هَيْئَتِهَا الَّتِي هِيَ عَلَيْهَا الْيَوْمَ، هُمْ عَيْبَتِي الَّتِي أَوَيْتُ إِلَيْهَا، أَكْرِمُوا كَرِيمَهُمْ، وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ.

أَمَّا وَصِيَّةٌ عَامَّةٌ فَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أَنَّهُ قَالَ:

- كَانَتْ عَامَّةُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ حَضَرَهُ الْمَوْتُ: «الصَّلَاةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» حَتَّى جَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُغَرْغِرُ بِهَا فِي صَدْرِهِ، وَمَا كَادَ يُفِيضُ بِهَا لِسَانُهُ.

❊❊❊

أَيُّهَا الْقَارِئُ الْعَزِيزُ:

تِلْكَ مُجْمَلُ الصُّوَرِ الَّتِي مَرَّتْ، أَوْ مَرَّ بِهَا سَيِّدُنَا وَرَسُولُنَا وَحَبِيبُنَا «مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ» طَوَالَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ يَوْمًا، مُنْذُ أَنْ أُحِمَّ بِالْمَرَضِ الشَّدِيدِ الْوَطْأَةِ، حَتَّى قَبَضَهُ اللهُ إِلَيْهِ.

وَلَوْ أَرَدْنَا أَنْ نُطْلِقَ لِلْقَلَمِ الْعِنَانَ، فِي تَسْجِيلِ كُلِّ الْأَحْدَاثِ وَالْوَقَائِعِ بِتَفْصِيلِهَا، لَضَاقَ الْمُقَامُ عَنْ ذِكْرِهَا وَاسْتِيعَابِهَا.

وَلَكِنَّنَا أَحْبَبْنَا أَنْ نُجْمِلَ وَنَخْتَصِرَ، دُونَ إِخْلَالٍ أَوْ إِهْمَالٍ.

وَفِي الْيَوْمِ الثَّانِيَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ، يَوْمَ الِاثْنَيْنِ، عَامَ أَحَدَ عَشَرَ لِلْهِجْرَةِ الشَّرِيفَةِ؛ كَانَتْ سَاعَةُ الْفِرَاقِ، وَلَحْظَةُ الِانْطِلَاقِ.

قَالَتْ «عَائِشَةُ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ:

ـ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي بَيْتِي، بَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي (الرِّئَةُ وأَعْلَى الصَّدْرِ)، وَكَانَ «جِبْرِيلُ» ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ يَدْعُو لَهُ بِدُعَاءٍ إِذَا مَرِضَ، فَذَهَبْتُ أَدْعُو لَهُ، فَرَفَعَ بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ:

ـ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى.

أَوْ قَالَتْ:

ـ بَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى صَدْرِي، وَقَدْ وَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى عَاتِقِي إِذْ مَالَ رَأْسُهُ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ يُرِيدُ شَيْئًا مِنْ رَأْسِي، وَخَرَجَتْ مِنْ فِيهِ نُطْفَةٌ بَارِدَةٌ فَوَقَعَتْ عَلَى ثُغْرَةِ نَحْرِي، فَاقْشَعَرَّ لَهَا جِلْدِي، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ قَدْ غُشِيَ عَلَيْهِ، فَسَجَّيْتُهُ فِي ثَوْبٍ.

وَرُوِيَ عَنْ «أَبِي هُرَيْرَةَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَوْلُهُ:

ـ لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سُجِّيَ (غُطِّيَ) بِبُرْدٍ حِبَرَةٍ.

وَدَخَلَ «أَبُو بَكْرٍ» عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُسَجًّى، فَكَشَفَ الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِهِ، ثُمَّ قَبَّلَ جَبْهَتَهُ، وَقَالَ:

ـ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَطْيَبَ حَيَاتَكَ! وَأَطْيَبَ مَيْتَتَكَ!

وَلَقَدْ ثَارَ «عُمَرُ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ فَقَامَ خَطِيبًا وَقَالَ:

ـ لَا أَسْمَعَنَّ أَحَدًا يَقُولُ إِنَّ «مُحَمَّدًا» قَدْ مَاتَ، وَلَكِنَّهُ أُرْسِلَ إِلَيْهِ كَمَا

أُرْسِلَ إِلَى «مُوسَى»، فَغَابَ عَنْ قَوْمِهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، وَاللهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يُقَطِّعَ أَيْدِي رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ.

فَابْتَدَرَهُ «أَبُو بَكْرٍ» وَهَزَّهُ هِزَّةً شَدِيدَةً، وَتَلَا عَلَيْهِ قَوْلَ اللهِ تَعَالَى:

- ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾. وَقَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ .... ﴾ (آلَ عِمْرَانَ: 144).

ثُمَّ قَالَ لِلنَّاسِ:

- مَنْ كَانَ يَعْبُدُ «مُحَمَّدًا» فَإِنَّ «مُحَمَّدًا» قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ.

عِنْدَئِذٍ اسْتَرْجَعَ «عُمَرُ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ، وَاسْتَسْلَمَ لِلْأَمْرِ الْوَاقِعِ فِي حُزْنٍ شَدِيدٍ، وَهَمٍّ كَبِيرٍ.

❊❊❊

وَبَيْنَمَا كَانَ أَكْثَرُ الْمُسْلِمِينَ فِي حُزْنٍ وَانْفِعَالٍ، وَاهْتِمَامٍ بِأَمْرِ غُسْلِهِ وَتَكْفِينِهِ وَدَفْنِهِ ﷺ، اجْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فِي سَقِيفَةِ «بَنِي سَاعِدَةَ» حَوْلَ سَرِيرِ «سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ» الْمَرِيضِ، يَتَشَاوَرُونَ فِي أَمْرِ خِلَافَةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمُسْلِمِينَ، وَيَرَوْنَ أَنَّهُمْ أَحَقُّ بِهَا مِنْ دُونِ النَّاسِ.

فَجَاءَهُمْ «أَبُو بَكْرٍ» وَ«عُمَرُ»، فَحَدَّثُوهُمْ وَخَاطَبُوهُمْ، وَأَنْصَفُوهُمْ، ثُمَّ اتَّفَقَتْ كَلِمَةُ الْجَمِيعِ عَلَى مُبَايَعَةِ «أَبِي بَكْرٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ، وَكَانَ صَاحِبُ الْمُبَادَرَةِ فِي ذَلِكَ «عُمَرَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ، وَبِذَلِكَ حُسِمَ خِلَافٌ

كَادَ يَنْشَبُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَجُثْمَانُ الرَّسُولِ ﷺ لَا يَزَالُ مُسَجًّى.

وَلَقَدْ قَامَ عَلَى غُسْلِهِ وَتَكْفِينِهِ وَتَطْيِيبِهِ: «عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ»، وَ«الْفَضْلُ ابْنُ الْعَبَّاسِ» وَ«أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُم.

وَكُفِّنَ ﷺ فِي ثَلَاثَةِ أَثْوَابٍ يَمَانِيَّةٍ بِيضٍ، دُسَّتْ فِيهَا الْحَنُوطُ.

ثُمَّ وُضِعَ عَلَى سَرِيرٍ، وَأُدْخِلَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ أَفْوَاجًا يُصَلُّونَ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَخْرُجُونَ مُتَتَابِعِينَ.

وَكَانَ قَدْ أَوْصَى ﷺ أَنْ يُدْفَنَ فِي حُجْرَةِ «عَائِشَةَ»، فَحُفِرَ لَهُ هُنَاكَ قَبْرٌ، وَأُلْقِيَ فِي الْقَبْرِ قَبْلَ الدَّفْنِ سَمَلُ قَطِيفَةٍ حَمْرَاءَ كَانَ يَلْبَسُهَا.

وَنَزَلَ إِلَى قَبْرِهِ ﷺ «بَنُو عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»، وَهُمُ الَّذِينَ أَدْخَلُوهُ حَسَبَ مَا رُوِيَ عَنْهُ ﷺ:

- إِنَّما يَلِي الْمَيِّتَ أَهْلُهُ.

وَكَانَتْ سِنُّهُ ﷺ حِينَ وَفَاتِهِ ثَلَاثًا وَسِتِّينَ سَنَةً.

(اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ فِي الْعَالَمِينَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ).

❋❋❋

صِفَةُ أَخْلَاقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

بُنَيَّ الْعَزِيزَ:

مَعَ نِهَايَةِ رِحْلَةِ مَسِيرَتِنَا مَعَ حَيَاةِ سَيِّدِنَا «مُحَمَّدٍ» ﷺ، نُورِدُ لَكَ طَائِفَةً مِنْ أَخْلَاقِهِ وَتَوْجِيهَاتِهِ، تَنْفَعُكَ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى فِي دُنْيَاكَ وَآخِرَتِكَ، فَقَدْ كَانَ ـ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ـ وَمَا زَالَ ـ الْقُدْوَةَ الصَّالِحَةَ وَالْحَسَنَةَ لَنَا جَمِيعًا.

وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (الأَحْزَابُ: 21).

***

سُئِلَتِ السَّيِّدَةُ «عَائِشَةُ» أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ».

وَقَالَ «سَعْدُ بْنُ هِشَامٍ»: قُلْتُ لِـ «عَائِشَةَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ:

ـ أَنْبِئِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

قَالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟

قُلْتُ: بَلَى.

قَالَتْ: فَإِنَّ خُلُقَ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْقُرْآنُ.

قَالَ «قَتَادَةُ» ـ رَاوِي الْحَدِيثِ ـ: وَإِنَّ الْقُرْآنَ جَاءَ بِأَحْسَنِ أَخْلَاقِ النَّاسِ.

❊❊❊

وَقَالَ سَيِّدُنَا «عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ: «لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا».

وَدَخَلَ نَفَرٌ عَلَى «زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ فَقَالُوا:

ـ حَدِّثْنَا عَنْ أَخْلَاقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَقَالَ:

ـ مَاذَا أُحَدِّثُكُمْ؟ كُنْتُ جَارَهُ، فَكَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ أَرْسَلَ إِلَيَّ فَكَتَبْتُهُ لَهُ، وَكَانَ إِذَا ذَكَرْنَا الدُّنْيَا ذَكَرَهَا مَعَنَا، وَإِذَا ذَكَرْنَا الطَّعَامَ ذَكَرَهُ مَعَنَا، أَفَكُلَّ هَذَا أُحَدِّثُكُمْ عَنْهُ؟!

وَسُئِلَتْ «عَائِشَةُ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ:

ـ كَيْفَ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا خَلَا فِي بَيْتِهِ؟

قَالَتْ:

ـ كَانَ أَلْيَنَ النَّاسِ وَأَكْرَمَ النَّاسِ، وَكَانَ رَجُلًا مِنْ رِجَالِكُمْ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ ضَحَّاكًا بَسَّامًا.

وَعَنْ «عُرْوَةَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ:

ـ قُلْتُ لِـ «عَائِشَةَ»: مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ؟

قَالَتْ:

ـ كَانَ يَخِيطُ ثَوْبَهُ، وَيَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَعْمَلُ مَا تَعْمَلُ الرِّجَالُ فِي بُيُوتِهِمْ.

وَعَنْ «عُرْوَةَ» عَنْ «عَائِشَةَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قَالَتْ:

ـ مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي أَمْرَيْنِ، إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ عَنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهِ، فَيَنْتَقِمُ للهِ.

وَعَنْ «عُرْوَةَ» عَنْ «عَائِشَةَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قَالَتْ:

ـ مَا لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُسْلِمًا مِنْ لَعْنَةٍ تُذْكَرُ، وَلَا انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ شَيْئًا يُؤْتَى إِلَيْهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرُمَاتُ اللهِ، وَلَا ضَرَبَ بِيَدِهِ شَيْئًا قَطُّ إِلَّا أَنْ يَضْرِبَ بِهَا فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَا سُئِلَ شَيْئًا قَطُّ فَمَنَعَهُ إِلَّا أَنْ يُسْأَلَ مَأْثَمًا، فَإِنَّهُ كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَلَا خُيِّرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ قَطُّ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا...

وَقَالَتْ:

ـ كَانَ إِذَا كَانَ حَدِيثَ عَهْدٍ بِـ «جِبْرِيلَ» يُدَارِسُهُ، كَانَ أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ.

وَرَوَى «عُرْوَةُ» أَيْضًا عَنْ «عَائِشَةَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قَالَتْ:

ـ مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَادِمًا لَهُ وَلَا امْرَأَةً، وَلَا ضَرَبَ بِيَدِهِ شَيْئًا قَطُّ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ.

وَرَوَى «أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ:

ـ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، وَكَانَ إِذَا كَرِهَ الشَّيْءَ عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ.

وَرَوَى «ابْنُ عَبَّاسٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قَالَ:

ـ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ بِالْخَيْرِ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ «جِبْرِيلُ».

فَكَانَ «جِبْرِيلُ» يَلْقَاهُ كُلَّ لَيْلَةٍ فِي رَمَضَانَ حَتَّى يَنْسَلِخَ، يَعْرِضُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ الْقُرْآنَ، فَإِذَا لَقِيَهُ «جِبْرِيلُ» كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ.

وَرَوَى «أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ:

ـ لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَبَّابًا وَلَا فَحَّاشًا وَلَا لَعَّانًا، كَانَ يَقُولُ لِأَحَدِنَا عِنْدَ الْمُعَاتَبَةِ: مَا لَهُ تَرِبَ جَبِينُهُ؟

وَرَوَى «زِيَادُ بْنُ أَبِي زِيَادٍ» (مَوْلَى عَيَّاشِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ) قَائِلًا عَنْ خُلُقِ النَّبِيِّ ﷺ:

ـ كَانَتْ خَصْلَتَانِ لَا يَكِلُهُمَا إِلَى أَحَدٍ: الْوُضُوءُ مِنَ اللَّيْلِ حِينَ يَقُومُ، وَالسَّائِلُ يَقُومُ حَتَّى يُعْطِيَهُ.

وَرَوَى «حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ» قَالَ:

- كَانَتْ فِي النَّبِيِّ ﷺ خِصَالٌ لَيْسَتْ فِي الْجَبَّارِينَ، كَانَ لَا يَدْعُوهُ أَحْمَرُ أَوْ أَسْوَدُ مِنَ النَّاسِ إِلَّا أَجَابَهُ، وَكَانَ رُبَّمَا وَجَدَ تَمْرَةً مُلْقَاةً فَيَأْخُذُهَا فَيَهْوِي بِهَا إِلَى فِيهِ، وَإِنَّهُ لَيَخْشَى أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ، وَكَانَ يَرْكَبُ الْحِمَارَ عُرْيًا لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ.

وَعَنْ «أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ:

- كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْعُدُ عَلَى الْأَرْضِ، وَيَأْكُلُ عَلَى الْأَرْضِ، وَيُجِيبُ دَعْوَةَ الْمَمْلُوكِ، وَيَقُولُ: لَوْ دُعِيتُ إِلَى ذِرَاعٍ لَأَجَبْتُ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ، وَكَانَ يَعْقِلُ شَاتَهُ.

وَكَانَ ﷺ يَقُولُ:

- آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ.

وَقَالَ «عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ:

- مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَجْوَدَ وَلَا أَنْجَدَ وَلَا أَشْجَعَ وَلَا أَوْضَأَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

***

كَلَامُهُ ﷺ:

رَوَى «عُرْوَةُ» عَنْ «عَائِشَةَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قَالَتْ:

- كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَا يَسْرُدُ سَرْدَكُمْ هَذَا، يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ فَصْلٍ، يَحْفَظُهُ مَنْ سَمِعَهُ.

وَقَالَ «جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ:

- كَانَ فِي كَلَامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَرْتِيلٌ وَتَرْسِيلٌ.

❊❊❊

قِرَاءَتُهُ الْقُرْآنَ:

كَانَتْ قِرَاءَةُ النَّبِيِّ ﷺ تُعْرَفُ بِتَحْرِيكِ لِحْيَتِهِ.

وَسَأَلَ «قَتَادَةُ» «أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ» عَنْ قِرَاءَتِهِ ﷺ فَقَالَ «أَنَسٌ»:

- كَانَ يَمُدُّ صَوْتَهُ مَدًّا. وقَالَ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، يَمُدُّ بِسْمِ اللهِ وَيَمُدُّ الرَّحْمَنَ وَيَمُدُّ الرَّحِيمَ.

وَقَالَ «قَتَادَةُ»:

- مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا قَطُّ إِلَّا بَعَثَهُ حَسَنَ الْوَجْهِ حَسَنَ الصَّوْتِ، حَتَّى بَعَثَ نَبِيَّكُمْ ﷺ فَبَعَثَهُ حَسَنَ الْوَجْهِ حَسَنَ الصَّوْتِ، وَلَمْ يَكُنْ يُرَجِّعُ... وَلَكِنْ كَانَ يَمُدُّ بَعْضَ الْمَدِّ.

❊❊❊

خُطْبَتُهُ ﷺ:

وَرَوَى «جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قَالَ:

- إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا خَطَبَ النَّاسَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَرَفَعَ صَوْتَهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ، كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ...

ثُمَّ يَقُولُ:

- بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ (وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى).

ثُمَّ يَقُولُ:

- أَحْسَنُ الْهَدْيِ هَدْيُ «مُحَمَّدٍ»، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، مَنْ مَاتَ وَتَرَكَ مَالًا فَلِأَهْلِهِ، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضِيَاعًا فَعَلَيَّ.

❊❊❊

مِنْ خُلُقِهِ ﷺ:

قَالَتْ «عَائِشَةُ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ:

- مَا كَانَ خُلُقٌ أَبْغَضَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الْكَذِبِ، وَمَا اطَّلَعَ مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَيَبْخَلُ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّهُ أَحْدَثَ تَوْبَةً.

وَأَخْبَرَ «إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَيَّاشٍ» فَقَالَ:

- كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَصْبَرَ النَّاسِ عَلَى أَوْزَارِ النَّاسِ.

وَعَنْ «أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ:

- صَحِبْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، وَشَمَمْتُ الْعِطْرَ كُلَّهُ، فَلَمْ أَشُمَّ نَكْهَةً أَطْيَبَ مِنْ نَكْهَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا لَقِيَهُ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَامَ مَعَهُ، فَلَمْ يَنْصَرِفْ حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يَنْصَرِفُ عَنْهُ، وَإِذَا لَقِيَهُ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فَتَنَاوَلَ يَدَهُ نَاوَلَهَا إِيَّاهُ، فَلَمْ يَنْزِعْ يَدَهُ مِنْهُ حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يَنْزِعُ يَدَهُ مِنْهُ، وَإِذَا لَقِيَ أَحَدًا مِنْ

أَصْحَابِهِ فَتَنَاوَلَ أُذُنَهُ نَاوَلَهَا إِيَّاهُ، ثُـمَّ لَمْ يَنْزِعْهَا عَنْهُ حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يَنْزِعُهَا عَنْهُ.

❊❊❊

مِشْيَتُهُ ﷺ:

عَنْ «سَيَّارِ بْنِ أَبِي الْحَكَمِ» قَالَ:

- كَانَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ إِذَا مَشَى، مَشَى مَشْيَ السَّـوقِيِّ، لَيْسَ بِالْعَاجِزِ وَلَا الْكَسْلَانِ.

وَعَنْ «يَزِيدَ بْنِ مَثْرَدٍ» قَالَ:

- كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا مَشَى أَسْرَعَ حَتَّى يُهَرْوِلَ الرَّجُلُ وَرَاءَهُ فَلَا يُدْرِكُهُ.

وَعَنْ «أَبِي هُرَيْرَةَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ:

- مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَحْسَـنَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، كَانَتِ الشَّمْسُ تَجْرِي فِي وَجْهِهِ، وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَسْـرَعَ فِي مَشْيِهِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، كَانَتِ الْأَرْضُ تُطْوَى لَهُ، إِنَّا لَنُجْهَدُ وَهُوَ غَيْرُ مُكْتَرِثٍ.

❊❊❊

مَأْكَلُهُ ﷺ:

عَنْ «أَبِي جُحَيْفَةَ» قَالَ:

- قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَا آكُلُ مُتَّكِئًا.

وَعَنْ «عَائِشَةَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهَا:

- يَا «عَائِشَةُ» لَوْ شِئْتُ لَسَارَتْ مَعِي جِبَالُ الذَّهَبِ، أَتَانِي مَلَكٌ وَإِنَّ حُجْزَتَهُ لَتُسَاوِي «الْكَعْبَةَ»، فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ يُقْرِئُ عَلَيْكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ لَكَ: إِنْ شِئْتَ نَبِيًّا مَلِكًا وَإِنْ شِئْتَ نَبِيًّا عَبْدًا. فَأَشَارَ إِلَيَّ «جِبْرِيلُ»: ضَعْ نَفْسَكَ، فَقُلْتُ: نَبِيًّا عَبْدًا.

قَالَتْ:

- وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ لَا يَأْكُلُ مُتَّكِئًا، وَيَقُولُ: آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ.

وَرَوَى «كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ» قَالَ:

- رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَأْكُلُ بِثَلَاثِ أَصَابِعَ، بِالْإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا وَالْوُسْطَى.

وَقَالَ:

- ثُمَّ رَأَيْتُهُ يَلْعَقُ أَصَابِعَهُ الثَّلَاثَ حِينَ أَرَادَ أَنْ يَمْسَحَهَا، قَبْلَ أَنْ يَمْسَحَهَا، فَلَعِقَ قَبْلَ الْوُسْطَى، ثُمَّ الَّتِي تَلِيهَا، ثُمَّ الْإِبْهَامَ.

وَعَنْ «أَبِي أُمَامَةَ»، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:

- عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي لِيَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ «مَكَّةَ» ذَهَبًا، فَقُلْتُ: لَا يَا رَبِّي، وَلَكِنِّي أَشْبَعُ يَوْمًا وَأَجُوعُ يَوْمًا. (وَقَالَ ثَلَاثًا، أَوْ نَحْوَ ذَا).

فَإِذَا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُكَ، وَإِذَا شَبِعْتُ حَمِدْتُكَ وَشَكَرْتُكَ.

❊❊❊

شُرْبُهُ ﷺ:

عَنْ «أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ:

ـ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَنَفَّسُ فِي الشَّرَابِ ثَلَاثًا وَيَقُولُ: هُوَ أَهْنَأُ وَأَمْرَأُ وَأَبْرَأُ.

قَالَ «أَنَسٌ»:

ـ فَأَنَا أَتَنَفَّسُ مِنَ الشَّرَابِ ثَلَاثًا.

وَعَنْ «أَبِي هُرَيْرَةَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ:

ـ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا عَطَسَ غَضَّ صَوْتَهُ وَغَطَّى وَجْهَهُ.

❊❊❊

صِفَةُ صَلَاتِهِ ﷺ:

عَنِ «الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ:

ـ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُومُ حَتَّى تَرِمَ (تَتَوَرَّمَ) رِجْلَاهُ أَوْ قَدَمَاهُ، فَيُقَالُ لَهُ، فَيَقُولُ: أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟!

وَقَالَ ﷺ:

ـ إِنَّا مَعْشَرَ الْأَنْبِيَاءِ أُمِرْنَا أَنْ نُؤَخِّرَ سُحُورَنَا وَنُعَجِّلَ إِفْطَارَنَا، وَأَنْ نُمْسِكَ أَيْمَانَنَا عَلَى شَمَائِلِنَا فِي صَلَاتِنَا.

وَرَوَى «يَزِيدُ بْنُ الْأَصَمِّ» قَالَ:

ـ مَا رُئِيَ النَّبِيُّ ﷺ مُتَثَائِبًا فِي صَلَاةٍ قَطُّ.

مَشْيُهُ فِي الْجَنَائِزِ ﷺ:

عَنْ «مَعْمَرٍ» عَنِ «الزُّهْرِيِّ» قَالَ:

- مَا رَكِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي جِنَازَةٍ قَطُّ.

وَعَنِ «ابْنِ أَبِي رَوَّادٍ» قَالَ:

- كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا شَهِدَ جِنَازَةً أَكْثَرَ الصُّمَاتَ، وَأَكْثَرَ حَدِيثَ نَفْسِهِ، وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّمَا يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِأَمْرِ الْمَيِّتِ وَمَا يَرِدُ عَلَيْهِ وَمَا هُوَ مَسْؤولٌ عَنْهُ.

وَعَنْ «عَائِشَةَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ:

- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَغْتَسِلُ بِالصَّاعِ، وَيَتَوَضَّأُ بِالْمُدِّ.

وَعَنِ «ابْنِ عَبَّاسٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قَالَ:

- بِتُّ عِنْدَ «مَيْمُونَةَ» خَالَتِي، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ فَاغْتَسَلَ، فَأُتِيَ بِمِنْدِيلٍ، فَلَمْ يَمَسَّهُ، وَجَعَلَ يَقُولُ بِيَدِهِ هَكَذَا، قَالَ: يَعْنِي يَنْفُضُهَا.

وَعَنْ «أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَوَضَّأَ فَخَلَّلَ لِحْيَتَهُ، وَقَالَ:

- بِهَذَا أَمَرَنِي رَبِّي.

وَأَدْخَلَ «عُبَيْدُ اللهِ بْنُ مُوسَى» ـ رَاوِي الْحَدِيثِ ـ يَدَهُ الْيُمْنَى تَحْتَ ذَقْنِهِ كَأَنَّهُ يَرْفَعُ لِحْيَتَهُ إِلَى السَّمَاءِ.

وَعَنْ «عَائِشَةَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ قَالَتْ:

- كَانَ رَسُــولُ اللهِ ﷺ يُحِبُّ التَّيَمُّنَ في كُلِّ شَيْءٍ: في طَهُورِهِ وَفي تَرَجُّلِهِ وَفي تَنَعُّلِهِ.

وَعَنْ «عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ:

- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَشْفَقَ مِنَ الْحَاجَةِ ـ يَعْنِي نَسِيَهَا ـ رَبَطَ في خِنْصَرِهِ، أَوْ في خَاتَمِهِ، الْخَيْطَ.

وَعَنْ «عَائِشَةَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ قَالَتْ:

- كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يَقْعُدُ في بَيْتٍ مُظْلِمٍ حَتَّى يُضَاءَ لَهُ بِالسِّــرَاجِ.

وَعَنِ «ابْنِ شِــهَابٍ»: أَنَّ النَّبِــيَّ ﷺ كَانَ يُؤْتَى لَهُ بِالْبَاكُــورَةِ فَيُقَبِّلُهَا وَيَضَعُهَا عَلَى عَيْنِهِ وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ كَمَا أَرَيْتَنَا أَوَّلَهُ فَأَرِنَا آخِرَهُ.

وَعَنْ «أَبِي هُرَيْرَةَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ:

- كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ وَلَا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ.

وَعَنْ «عَائِشَةَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ قَالَتْ:

- كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعْجِبُهُ الْحُلْوُ وَالْعَسَلُ.

وَعَنْ «أَنَسٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ:

- أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَإِذَا خَيَّاطٌ مِنْ أَهْلِ «الْمَدِينَةِ» قَدْ دَعَاهُ فَأَتَاهُ بِخُبْزِ شَعِيرٍ وَإِهَالَةٍ سَــنِخَةٍ، فَإِذَا فِيهَا قَرْعٌ، فَجَعَلْتُ أَرَاهُ تُعْجِبُــهُ الْقَرْعُ، فَجَعَلْتُ أُقَدِّمُهُ قُدَّامَ النَّبِيِّ ﷺ.

قَالَ «أَنَسٌ»:

- فَلَمْ أَزَلْ يُعْجِبُنِي الْقَرْعُ مُذْ رَأَيْتُهُ يُعْجِبُ النَّبِيَّ ﷺ.

وَعَنِ «ابْنِ عَبَّاسٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قَالَ:

- كَانَ أَحَبُّ الطَّعَامِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ الثَّرِيدَ مِنَ الْخُبْزِ، وَالثَّرِيدَ مِنَ الثَّمَرِ (يَعْنِي الْحَيْسَ).

وَعَنْ «أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ:

- قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّكَ كُنْتَ تُرْسِلُ إِلَيَّ بِالطَّعَامِ، فَإِذَا رَأَيْتُ أَثَرَ أَصَابِعِكَ وَضَعْتُ يَدِي فِيهِ، حَتَّى كَانَ هَذَا الطَّعَامُ الَّذِي أَرْسَلْتَ إِلَيَّ فَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَ فِيهِ أَثَرَ أَصَابِعِكَ!

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

- أَجَلْ إِنَّ فِيهِ بَصَلًا، فَكَرِهْتُ أَنْ آكُلَهُ مِنْ أَجْلِ الْمَلَكِ الَّذِي يَأْتِينِي، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَكُلُوهُ.

وَعَنْ «سُوَيْدٍ» قَالَ:

- أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِقَصْعَةٍ فِيهَا ثُومٌ، فَوَجَدَ رِيحَ الثُّومِ، فَكَفَّ يَدَهُ، فَكَفَّ «مُعَاذٌ» يَدَهُ، فَكَفَّ الْقَوْمُ أَيْدِيَهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ: مَا لَكُمْ؟ فَقَالُوا: كَفَفْتَ يَدَكَ فَكَفَفْنَا أَيْدِيَنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

- كُلُوا بِاسْمِ اللهِ، فَإِنِّي أُنَاجِي مَنْ لَا تُنَاجُونَ.

وَعَنْ «أَبِي صَخْرٍ» قَالَ:

- أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِسَوِيقِ لَوْزٍ. فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

- أَخِّرُوهُ... هَذَا شَرَابُ الْمُتْرَفِينَ.

وَعَنِ «ابْنِ عَبَّاسٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ:

- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَبِيتُ اللَّيَالِيَ الْمُتَتَابِعَةَ طَاوِيًا وَآلَهُ لَا يَجِدُونَ عَشَاءً، قَالَ: وَكَانَ عَامَّةُ خُبْزِهِمُ الشَّعِيرَ.

وَعَنْ «عَائِشَةَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ قَالَتْ:

- مَا اجْتَمَعَ فِي بَطْنِ النَّبِيِّ ﷺ طَعَامَانِ فِي يَوْمٍ قَطُّ، إِنْ أَكَلَ لَحْمًا لَمْ يَزِدْ عَلَيْهِ، وَإِنْ أَكَلَ تَمْرًا لَمْ يَزِدْ عَلَيْهِ، وَإِنْ أَكَلَ خُبْزًا لَمْ يَزِدْ عَلَيْهِ، وَكَانَ رَجُلًا مِسْقَامًا، وَكَانَتِ الْعَرَبُ تَنْعَتُ لَهُ فَيَتَدَاوَى بِمَا تَنْعَتُ لَهُ الْعَرَبُ، وَكَانَتِ الْعَجَمُ تَنْعَتُ لَهُ فَيَتَدَاوَى.

❊❊❊

صِفَةُ خَلْقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:

وَصَفَهُ سَيِّدُنَا «عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ، فَقَالَ:

- كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَبْيَضَ اللَّوْنِ، مُشْرَبًا حُمْرَةً، أَدْعَجَ الْعَيْنِ، سَبْطَ الشَّعْرِ، كَثَّ اللِّحْيَةِ، سَهْلَ الْخَدِّ، ذَا وَفْرَةٍ، دَقِيقَ الْمَسْرُبَةِ، كَأَنَّ عُنُقَهُ إِبْرِيقُ فِضَّةٍ، لَهُ شَعْرٌ مِنْ لَبَّتِهِ إِلَى سُرَّتِهِ، يَجْرِي كَالْقَضِيبِ، لَيْسَ فِي بَطْنِهِ وَلَا صَدْرِهِ شَعْرٌ غَيْرُهُ، شَثْنُ الْكَفِّ وَالْقَدَمِ.

إِذَا مَشَى كَأَنَّمَا يَنْحَدِرُ مِنْ صَبَبٍ، وَإِذَا قَامَ كَأَنَّمَا يَنْقَلِعُ مِنْ صَخْرٍ، إِذَا الْتَفَتَ الْتَفَتَ جَمِيعًا، كَأَنَّ عَرَقَهُ فِي وَجْهِهِ اللُّؤْلُؤُ، وَلَرِيحُ عَرَقِهِ أَطْيَبُ

مِنَ الْمِسْـــكِ الْأَذْفَرِ، لَيْسَ بِالْقَصِيرِ وَلَا بِالطَّوِيلِ، وَلَا بِالْعَاجِزِ وَلَا اللَّئِيمِ، لَمْ أَرَ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ مِثْلَهُ.

❊❊❊

صِفَةُ خَاتَمِ النُّبُوَّةِ:

عَنْ «جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ:

ـ ... وَرَأَيْتُ خَاتَمَهُ عِنْدَ كَتِفَيْهِ مِثْلَ بَيْضَةِ الْحَمَامَةِ، تُشْبِهُ جِسْمَهُ.

وَعَنْ «أَبِي رَمْثَةَ» قَالَ:

ـ قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَا «أَبَا رَمْثَةَ» ادْنُ مِنِّي امْسَحْ ظَهْرِي.

فَدَنَوْتُ فَمَسَـــحْتُ ظَهْرَهُ، ثُمَّ وَضَعْتُ أَصَابِعِي عَـــلَى الْخَاتَمِ فَغَمَزْتُهَا.

فَقِيلَ لِـ «أَبِي رَمْثَةَ»:

ـ وَمَا الْخَاتَمُ؟

قَالَ:

ـ شَعْرٌ مُجْتَمِعٌ عِنْدَ كَتِفَيْهِ.

وَأَخْبَرَ «عَاصِمٌ الْأَحْوَلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَرْجَسٍ» قَالَ:

ـ أَتَيْتُ رَسُـــولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ فِي أَصْحَابِهِ، فَدُرْتُ مِنْ خَلْفِهِ فَعَرَفَ الَّذِي أُرِيدُهُ، فَأَلْقَـــى الرِّدَاءَ عَنْ ظَهْرِهِ، فَنَظَـــرْتُ إِلَى الْخَاتَمِ عَلَى بَعْضِ الْكَتِفِ مِثْلَ الْجُمْعِ، حَوْلَهُ خِيلَانٌ (مُفْرَدُهَا خَالٌ) كَأَنَّهَا الثَّآلِيلُ، ثُمَّ جِئْتُهُ فَاسْتَقْبَلْتُهُ فَقُلْتُ:

- غَفَرَ اللهُ لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ:

- وَلَكَ...

فَقَالَ لَهُ بَعْضُ الْقَوْمِ:

- يَسْتَغْفِرُ لَكَ رَسُولُ اللهِ؟

فَقَالَ ﷺ:

- نَعَمْ... وَلَكُمْ، وَتَلَا الْآيَةَ:

﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ (مُحَمَّد: 19).

سِلَاحُ رَسُولِ اللَّهِ وَخَيْلُهُ

ذِكْرُ سُيُوفِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:

قَالَ «عَبْدُ الْمَجِيدِ بْنُ سُهَيْلٍ»:

- قَدِمَ رَسُــولُ اللهِ ﷺ «الْمَدِينَةَ» فِي الْهِجْرَةِ بِسَيْفٍ كَانَ لِـ «أَبِي مَأْثُورٍ» (يَعْنِي أَبَاهُ).

وَعَنِ «ابْنِ عَبَّاسٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ:

- أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ غَنِمَ سَيْفَهُ «ذَا الْفَقَّارِ» يَوْمَ «بَدْرٍ».

وَعَنْ «جَابِرٍ» عَنْ «عَامِرٍ» قَالَ:

- أَخْرَجَ إِلَيْنَا «عَلِيُّ بْنُ حُسَــيْنٍ» سَيْفَ رَسُــولِ اللهِ ﷺ، فَإِذَا قَبِيعَتُهُ مِنْ فِضَّةٍ، وَإِذَا حَلْقَتُهُ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا الْحَمَائِلُ مِنْ فِضَّةٍ وَسِلْسِلَتُهُ...، فَإِذَا هُوَ سَــيْفٌ قَدْ نَحَلَ. كَانَ لِـ «مُنَبِّهِ بْنِ الْحَجَّاجِ السَّــهْمِيِّ»، أَصَابَهُ يَوْمَ «بَدْرٍ».

وَعَنْ «مَرْوَانَ بْنِ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى» قَالَ:

- أَصَابَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ سِلَاحِ «بَنِي قَيْنُقَاعٍ» ثَلَاثَةَ أَسْيَافٍ: سَيْفٌ قَلَعِيٌّ، وَسَيْفٌ يُدْعَى «بَتَّارًا»، وَسَيْفٌ يُدْعَى «الْحَتْفَ».

وَكَانَ عِنْدَهُ بَعْدَ ذَلِكَ: «الْمِخْذَمُ» وَ«رَسُوبٌ» أَصَابَهُمَا مِنَ الْغُلُسِ.

وَعَنْ «مُجَاهِدٍ» وَ«زِيَادِ بْنِ أَبِي مَرْيَمَ» قَالَا:

- كَانَ سَيْفُ رَسُولِ اللهِ ﷺ خَيْفِيًّا لَهُ قَرْنٌ.

وَعَنْ «جَابِرٍ» عَنْ «عَامِرٍ» قَالَ: قَرَأْتُ فِي جَفْنِ سَيْفِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذِي الْفَقَارِ-: وَلَا يُتْرَكُ مُفْرَحٌ فِي الْإِسْلَامِ (وَالْمُفْرَحُ يَكُونُ فِي الْقَوْمِ لَا يُعْلَمُ لَهُ مَوْلًى)، وَلَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ.

❊❊❊

دِرْعُهُ ﷺ:

عَنْ «مَرْوَانَ بْنِ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى» قَالَ:

- أَصَابَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ سِلَاحِ «قَيْنُقَاعٍ» دِرْعَيْنِ، دِرْعٌ يُقَالُ لَهَا: «السَّعْدِيَّةُ»، وَدِرْعٌ يُقَالُ لَهَا: «فِضَّةُ».

وَعَنْ «مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ» قَالَ:

- رَأَيْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ دِرْعَيْنِ، دِرْعُهُ: «ذَاتُ الْفُضُولِ»، وَدِرْعُهُ «فِضَّةُ». وَرَأَيْتُ عَلَيْهِ يَوْمَ «خَيْبَرَ» دِرْعَيْنِ: «ذَاتَ الْفُضُولِ»، وَ«السَّعْدِيَّةَ».

وَعَنْ «جَابِرٍ» عَنْ «عَامِرٍ» قَالَ:

- أَخْرَجَ إِلَيْنَا «عَلِيُّ بْنُ حُسَيْنٍ» دِرْعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِذَا هِيَ يَمَانِيَّةٌ رَقِيقَةٌ ذَاتُ زَرَافِينَ، إِذَا عُلِّقَتْ بِزَرَافِينِهَا لَمْ تَمَسَّ الْأَرْضَ، وَإِذَا أُرْسِلَتْ مَسَّتِ الْأَرْضَ.

وَعَنْ «جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ» عَنْ أَبِيهِ قَالَ:

- كَانَ فِي دِرْعِ النَّبِيِّ ﷺ حَلْقَتَانِ مِنْ فِضَّةٍ عِنْدَ مَوْضِعِ الصَّدْرِ ـ وَقِيلَ: الثَّدْيِ ـ؛ وَحَلْقَتَانِ خَلْفَ ظَهْرِهِ، مِنْ فِضَّةٍ... قَالَ «جَعْفَرٌ»: قَالَ أَبِي: فَلَبِسْتُهَا فَخَطَّتْ فِي الْأَرْضِ.

وَقَالَتْ «أَسْمَاءُ بِنْتُ يَزِيدَ بْنِ السَّكَنِ الْأَنْصَارِيَّةُ»:

- إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ تُوُفِّيَ ـ يَوْمَ تُوُفِّيَ ـ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ بِوَسْقٍ شَعِيرٍ.

❋❋❋

تُرْسُهُ ﷺ:

قَالَ «مَكْحُولٌ»:

- كَانَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ تُرْسٌ فِيهِ تِمْثَالُ رَأْسِ كَبْشٍ، فَكَرِهَ النَّبِيُّ مَكَانَهُ، فَأَصْبَحَ وَقَدْ أَذْهَبَهُ اللهُ.

❋❋❋

الرِّمَاحُ وَالْقِسِيُّ:

عَنْ «مَرْوَانَ بْنِ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى» قَالَ:

- أَصَابَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ سِلَاحِ «بَنِي قَيْنُقَاعٍ» ثَلَاثَةَ أَرْمَاحٍ، وَثَلَاثَ قِسِيٍّ، قَوْسٌ اسْمُهَا: «الرَّوْحَاءُ»، وَقَوْسٌ شَوْحَطٌ تُدْعَى «الْبَيْضَاءَ»، وَقَوْسٌ صَفْرَاءُ تُدْعَى «الصَّفْرَاءَ» مِنْ نَبْعٍ.

❋❋❋

خَيْلُهُ وَدَوَابُّهُ ﷺ:

أَخْبَرَ «مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ سَهْلِ بْنِ أَبِي حَثْمَةَ» عَنْ أَبِيهِ قَالَ:

- أَوَّلُ فَرَسٍ مَلَكَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَرَسٌ ابْتَاعَهُ بِـ«الْمَدِينَةِ» مِنْ رَجُلٍ مِنْ «بَنِي فَزَارَةَ» بِعَشْرِ أَوَاقٍ، وَكَانَ اسْمُهُ عِنْدَ الْأَعْرَابِيِّ: «الضُّرْسَ» فَسَمَّاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «السَّكْبَ»؛ فَكَانَ أَوَّلَ مَا غَزَا عَلَيْهِ «أُحُدًا»، لَيْسَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ فَرَسٌ غَيْرُهُ، وَفَرَسٌ لِـ «أَبِي بُرْدَةَ بْنِ نَيَّارٍ» يُقَالُ لَهُ: «مُلَاوِحٌ».

وَعَنْ «عَلْقَمَةَ بْنِ أَبِي عَلْقَمَةَ» قَالَ:

- بَلَغَنِي ـ وَاللهُ أَعْلَمُ ـ أَنَّ اسْمَ فَرَسِ النَّبِيِّ ﷺ «السَّكْبُ»، وَكَانَ أَغَرَّ مُحَجَّلًا، طَلْقَ الْيَمِينِ.

وَعَنْ «أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ» قَالَ:

- رَاهَنَ رَسُــولُ اللهِ ﷺ عَلَى فَرَسٍ يُقَالُ لَهَا: «سَــيْحَةُ»، فَجَاءَتْ سَابِقَةً، فَهَشَّ لِذَلِكَ وَأَعْجَبَهُ.

وَعَنِ «ابْنِ عَبَّاسٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قَالَ:

- كَانَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَرَسٌ يُدْعَى «الْمُرْتَجِزَ».

وَأَخْبَرَ «أُبَيُّ بْنُ عَبَّاسِ بْنِ سَهْلٍ» عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ:

- كَانَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ عِنْدِي ثَلَاثَةُ أَفْرَاسٍ: «لِزَازٌ» وَ«الظَّرِبُ» وَ«اللَّحِيفُ».

فَأَمَّا «لِزَازٌ» فَأَهْدَاهُ لَهُ «الْمُقَوْقِسُ»، وَأَمَّا «اللَّحِيفُ» فَأَهْدَاهُ لَهُ «رَبِيعَةُ بْنُ أَبِــي الْبَرَاءِ» فَأَثَابَهُ عَلَيْهِ فَرَائِضَ مِنْ نَعَــمِ «بَنِي كِلَابٍ»؛ وَأَمَّا «الظَّرِبُ» فَأَهْدَاهُ لَهُ «فَرْوَةُ بْنُ عَمْرٍو الْجُذَامِيُّ».

وَأَهْدَى «تَمِيمٌ الدَّارِيُّ» لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَرَسًا يُقَالُ لَهُ: «الْوَرْدُ»، فَأَعْطَاهُ «عُمَرَ»، فَحَمَلَ عَلَيْهِ «عُمَرُ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ فِي سَبِيلِ اللهِ فَوَجَدَهُ يُبَاعُ.

وَعَنْ أَبِي «عَبْدِ اللهِ بْنِ وَاقِدٍ»:

- أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ رَسُــولَ اللهِ ﷺ قَامَ إِلَى فَرَسٍ لَهُ، فَمَسَحَ وَجْهَهُ بِكُمِّ قَمِيصِهِ، فَقَالُوا:

- يَا رَسُولَ اللهِ أَبِقَمِيصِكَ؟!

قَالَ ﷺ:

- إِنَّ «جِبْرِيلَ» عَاتَبَنِي فِي الْخَيْلِ.

وَعَنِ «ابْنِ عَبَّاسٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قَالَ:

- أُهْدِيَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ بَغْلَةٌ شَهْبَاءُ، فَهِيَ أَوَّلُ شَهْبَاءَ كَانَتْ فِي الْإِسْلَامِ، فَبَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى زَوْجَتِهِ «أُمِّ سَلَمَةَ»، فَأَتَيْتُهُ بِصُوفٍ وَلِيفٍ، ثُمَّ فَتَلْتُ أَنَا وَرَسُولُ اللهِ ﷺ لَهَا رَسَنًا وَعِذَارًا، ثُمَّ دَخَلَ الْبَيْتَ فَأَخْرَجَ عَبَاءَةً مُطْرَفَةً فَثَنَاهَا، ثُمَّ رَبَّعَهَا عَلَى ظَهْرِهَا، ثُمَّ سَمَّى وَرَكِبَ، ثُمَّ أَرْدَفَنِي خَلْفَهُ.

وَأَخْبَرَ «مُوسَى بْنُ إِبْرَاهِيمَ» عَنْ أَبِيهِ قَالَ:

- كَانَتْ «دُلْدُلُ» بَغْلَةُ النَّبِيِّ ﷺ أَوَّلَ بَغْلَةٍ رُئِيَتْ فِي الْإِسْلَامِ، أَهْدَاهَا لَهُ «الْمُقَوْقِسُ»، وَأَهْدَى مَعَهَا حِمَارًا يُقَالُ لَهُ: «عُفَيْرٌ»، فَكَانَتِ الْبَغْلَةُ قَدْ بَقِيَتْ حَتَّى زَمَنِ «مُعَاوِيَةَ».

وَعَنْ «زَامِلِ بْنِ عَمْرٍو» قال:

- أَهْدَى «فَرْوَةُ بْنُ عَمْرٍو» إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بَغْلَةً يُقَالُ لَهَا «فَضَّةُ»، فَوَهَبَهَا لِـ «أَبِي بَكْرٍ»؛ وَحِمَارَهُ «يَعْفُورَ»، فَنَفَقَ مُنْصَرَفَهُ مِنْ حَجَّةِ الْوَدَاعِ.

وَعَنْ «أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ» عَنْ أَبِيهِ، قَالَ:

- كَانَتِ الْأَنْبِيَاءُ يَلْبَسُونَ الصُّوفَ، وَيَحْلِبُونَ الشَّاءَ، وَيَرْكَبُونَ الْحُمُرَ، وَكَانَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ حِمَارٌ يُقَالُ لَهُ «عُفَيْرٌ».

❋❋❋

إِبِلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:

حَدَّثَ «مُوسَى بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيُّ» عَنْ أَبِيهِ، قَالَ:

ـ كَانَتِ «الْقَصْوَاءُ» مِـنْ نَعَمِ «بَنِي الْحُرَيْسِ» ابْتَاعَهَا «أَبُو بَكْرٍ» وَأُخْرَى مَعَهَـا بِثَمَانِمِئَةِ دِرْهَمٍ، فَأَخَذَهَا رَسُـولُ اللهِ ﷺ مِنْـهُ بِأَرْبَعِمِئَةِ دِرْهَمٍ، فَكَانَـتْ عِنْدَهُ حَتَّى نَفَقَتْ، وَهِيَ الَّتِي هَاجَـرَ عَلَيْهَا، وَكَانَتْ حِينَ قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «الْمَدِينَةَ» رُبَاعِيَّةً، وَكَانَ اسْمُهَا «الْقَصْوَاءَ» وَ«الْجَدْعَاءَ» وَ«الْعَضْبَاءَ».

وَعَنِ «ابْنِ الْمُسَيِّبِ» قَالَ:

ـ كَانَ اسْمُهَا «الْعَضْبَاءَ»، وَكَانَ فِي طَرَفِ أُذُنِهَا جَدْعٌ.

وَعَنْ «أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ» قَالَ:

ـ كَانَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ نَاقَةٌ تُسَمَّى «الْعَضْبَاءَ» وَكَانَتْ لَا تُسْبَقُ؛ قَالَ: فَقَدِمَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى قَعُودٍ لَهُ فَسَابَقَهَا فَسَبِقَتْ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، قَالُوا: سُبِقَتِ «الْعَضْبَاءُ». قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ؛ فَقَالَ:

ـ إِنَّهُ حَقٌّ عَلَى اللهِ أَنْ لَا يَرْتَفِعَ مِنَ الدُّنْيَا شَيْءٌ إِلَّا وَضَعَهُ.

❋❋❋

مَوَالِيهِ وَخَدَمُهُ ﷺ:

قَالَ «أَبُو هُرَيْرَةَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ:

ـ مَا كُنْتُ أَظُنُّ «هِنْدَ» وَ«أَسْمَاءَ» ابْنَتَيْ «حَارِثَةَ» الْأَسْلَمِيَّيْنِ إِلَّا مَمْلُوكَيْنِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ.

قَالَ «مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ»:

ـ كَانَا يَخْدُمَانِهِ لَا يَرِيمَانِ (يَبْرَحَانِ) بَابَهُ، هُمَا وَ«أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ».

وَعَنْ «عَبْدِ اللهِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي رَافِعٍ»، عَنْ جَدَّتِهِ «سَلْمَى»، قَالَتْ:

ـ كَانَ خَدَمُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَا وَ«خَضْرَةَ» وَ«رَضْوَى» وَ«مَيْمُونَةَ بِنْتَ سَعْدٍ»، أَعْتَقَهُنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ كُلَّهُنَّ.

وَكَتَبَ «عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ» إِلَى «أَبِي بَكْرِ بْنِ حَزْمٍ»:

أَنِ افْحَصْ لِي عَنْ أَسْمَاءِ خَدَمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَمَوَالِيهِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ يُخْبِرُهُ:

إِنَّ «أُمَّ أَيْمَنَ» وَاسْمُهَا «بَرَكَةُ» كَانَتْ لِأَبِي رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَوَرِثَهَا رَسُولُ اللهِ، فَأَعْتَقَهَا.

وَكَانَ «عُبَيْدٌ الْخَزْرَجِيُّ» قَدْ تَزَوَّجَهَا بِـ«مَكَّةَ» فَوَلَدَتْ «أَيْمَنَ»؛ ثُمَّ إِنَّ «خَدِيجَةَ» مَلَكَتْ «زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ» اشْتَرَاهُ لَهَا «حَكِيمُ بْنُ حِزَامِ بْنِ خُوَيْلِدٍ» بِسُوقِ «عُكَاظَ» بِأَرْبَعِمِئَةِ دِرْهَمٍ، فَسَأَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «خَدِيجَةَ» أَنْ تَهَبَ لَهُ «زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ»، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ تَزَوَّجَهَا، فَوَهَبَتْهُ لَهُ، فَأَعْتَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ» وَأَعْتَقَ «بَرَكَةَ» امْرَأَتَهُ.

وَكَانَ «أَبُو كَبْشَةَ» مِنْ مُوَلَّدِي «مَكَّةَ» فَأَعْتَقَهُ.

وَكَانَ «أَنَسٌ» مِنْ مُوَلَّدِي السَّرَاةِ فَأَعْتَقَهُ.

وَكَانَ «صَالِحُ شُقْرَانَ» غُلَامًا لَهُ فَأَعْتَقَهُ.

وَكَانَ «سَفِينَةُ» غُلَامًا لَهُ فَأَعْتَقَهُ.

وَكَانَ «ثَوْبَانُ» رَجُلًا مِنْ أَهْلِ «الْيَمَنِ»، ابْتَاعَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِـ«الْمَدِينَةِ» فَأَعْتَقَهُ؛ وَلَهُ نَسَبٌ فِي «الْيَمَنِ».

وَكَانَ «رَبَاحٌ» أَسْوَدَ، فَأَعْتَقَهُ.

وَكَانَ «يَسَارٌ» عَبْدًا نُوبِيًّا أَصَابَهُ فِي غَزْوَةِ «بَنِي عَبْدِ بْنِ ثَعْلَبَةَ» فَأَعْتَقَهُ.

وَكَانَ «أَبُو رَافِعٍ» لِـ «الْعَبَّاسِ» فَوَهَبَهُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا أَسْلَمَ «الْعَبَّاسُ» بَشَّرَ «أَبُو رَافِعٍ» رَسُولَ اللهِ ﷺ بِإِسْلَامِهِ، فَسُرَّ بِهِ فَأَعْتَقَهُ؛ وَاسْمُهُ «أَسْلَمُ».

وَكَانَ «فُضَالَةُ» مَوْلًى لَهُ يَمَنِيًّا، نَزَلَ الشَّامَ بَعْدُ.

وَكَانَ «أَبُو مُوَيْهِبَةَ» مُوَلَّدًا مِنْ مُوَلَّدِي «مُزَيْنَةَ»، فَأَعْتَقَهُ.

وَكَانَ «رَافِعٌ» غُلَامًا لِـ «سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ» فَوَرِثَهُ وَلَدُهُ، فَأَعْتَقَ بَعْضُهُمْ نَصِيبَهُ فِي الْإِسْلَامِ، وَتَمَسَّكَ بَعْضٌ.

فَجَاءَ «رَافِعٌ» إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَسْتَعِينُهُ فِيمَنْ لَمْ يُعْتَقْ حَتَّى يُعْتِقَهُ، فَكَلَّمَهُ فِيهِ، فَوَهَبَهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَأَعْتَقَهُ رَسُولُ اللهِ.

فَكَانَ «رَافِعٌ» يَقُولُ:

- أَنَا مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وَكَانَ «مِدْعَمٌ» غُلَامًا لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَهَبَهُ لَهُ «رِفَاعَةُ بْنُ زَيْدٍ الْجُذَامِيُّ»، وَكَانَ مِنْ مُوَلَّدِي «حِسْمَى».

وَكَانَ «كَرْكَرَةُ» غُلَامًا لِلنَّبِيِّ ﷺ.

وَرَوَى «سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ»:

- أَنَّهُ كَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ غُلَامٌ يُقَالُ لَهُ «رَبَاحٌ»؛ وَكَانَ فِي ظَهْرِ (إِبِلِ وَنُوقِ) النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي أَغَارَ عَلَيْهِ «عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ الْفَزَارِيُّ». أَيْ كَانَ يَرْعَى إِبِلَ وَمَاشِيَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

***

بُيُوتُ أَزْوَاجِهِ ﷺ:

قَالَ «عَبْدُ اللهِ بْنُ زَيْدٍ الْهُذَلِيُّ»:

- رَأَيْتُ بُيُوتَ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ هَدَمَهَا «عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ»، كَانَتْ بُيُوتًا بِاللَّبِنِ، وَلَهَا حُجَرٌ مِنْ جَرِيدٍ مَطْرُورَةٍ بِالطِّينِ، عَدَدْتُ تِسْعَةَ أَبْيَاتٍ بِحُجَرِهَا، وَهِيَ مَا بَيْنَ بَيْتِ «عَائِشَةَ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ إِلَى الْبَابِ الَّذِي يَلِي بَابَ النَّبِيِّ ﷺ، إِلَى مَنْزِلِ «أَسْمَاءَ بِنْتِ حَسَنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ الْعَبَّاسِ».

وَرَأَيْتُ بَيْتَ «أُمِّ سَلَمَةَ» وَحُجْرَتَهَا مِنْ لَبِنٍ، فَسَأَلْتُ ابْنَ ابْنِهَا فَقَالَ:

- لَمَّا غَزَا رَسُولُ اللهِ ﷺ غَزْوَةَ «دَوْمَةَ»؛ بَنَتْ «أُمُّ سَلَمَةَ» حُجْرَتَهَا بِلَبِنٍ، فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نَظَرَ إِلَى اللَّبِنِ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا أَوَّلَ نِسَائِهِ فَقَالَ:

- مَا هَذَا الْبِنَاءُ؟

فَقَالَتْ:

- أَرَدْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ أَكُفَّ أَبْصَارَ النَّاسِ.

فَقَالَ:

- يَا «أُمَّ سَلَمَةَ» إِنَّ شَرَّ مَا ذَهَبَ فِيهِ مَالُ الْمُسْلِمِينَ الْبُنْيَانُ.

وَحَدَّثَ «عَطَاءٌ الْخُرَاسَانِيُّ» فَقَالَ:

- أَدْرَكْتُ حُجَرَ أَزْوَاجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ جَرِيدِ النَّخْلِ، عَلَى أَبْوَابِهَا الْمُسُوحُ مِنْ شَعْرٍ أَسْوَدَ، فَحَضَرْتُ كِتَابَ «الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ» يُقْرَأُ، يَأْمُرُ بِإِدْخَالِ حُجَرِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ، فَمَا رَأَيْتُ أَكْثَرَ بَاكِيًا مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ.

وَقَالَ «عَطَاءٌ»:

وَسَمِعْتُ «سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيِّبِ» يَقُولُ يَوْمَئِذٍ:

- وَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنَّهُمْ تَرَكُوهَا عَلَى حَالِهَا، يَنْشَأُ نَاشِئٌ مِنْ أَهْلِ «الْمَدِينَةِ»، وَيَقْدَمُ الْقَادِمُ مِنَ الْأُفُقِ، فَيَرَى مَا اكْتَفَى بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حَيَاتِهِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ مِمَّا يُزَهِّدُ النَّاسَ فِي التَّكَاثُرِ وَالتَّفَاخُرِ.

وَقَالَ «عُمَرُ بْنُ أَبِي أَنَسٍ»:

- كَانَ مِنْهَا أَرْبَعَةُ أَبْيَاتٍ بِلَبِنٍ لَهَا حُجَرٌ مِنْ جَرِيدٍ، وَكَانَتْ خَمْسَةُ أَبْيَاتٍ مِنْ جَرِيدٍ مُطَيَّنَةٍ لَا حُجَرَ لَهَا، عَلَى أَبْوَابِهَا مُسُوحُ الشَّعْرِ.

ذَرَعْتُ السِّتْرَ فَوَجَدْتُهُ ثَلَاثَةَ أَذْرُعٍ فِي ذِرَاعٍ، فَأَمَّا مَا ذَكَرْتُ مِنَ الْبُكَاءِ يَوْمَئِذٍ، فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي مَجْلِسٍ فِيهِ نَفَرٌ مِنْ أَبْنَاءِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ،

مِنْهُمْ «أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ» وَ«أَبُو أُمَامَةَ بْنُ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ» وَ«خَارِجَةُ بْنُ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ» وَإِنَّهُمْ لَيَبْكُونَ، حَتَّى أَخْضَلَ لِحَاهُمُ الدَّمْعُ.

وَقَالَ يَوْمَئِذٍ «أَبُو أُمَامَةَ»:

- لَيْتَهَا تُرِكَتْ فَلَمْ تُهْدَمْ حَتَّى يَقْصُرَ النَّاسُ عَنِ الْبِنَاءِ، وَيَرَوْا مَا رَضِيَ اللهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ وَمَفَاتِيحُ خَزَائِنِ الدُّنْيَا بِيَدِهِ!

❊❊❊

بُنَيَّ الْعَزِيزَ:

كَانَ مِنَ الْمُنَاسِبِ أَنْ أُقَدِّمَ لِهَذِهِ الطَّائِفَةِ مِنَ الْأَحَادِيثِ وَالْأَخْبَارِ عَنْ أَسْلِحَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَخَيْلِهِ وَإِبِلِهِ، وَدُرُوعِهِ، وَكَذَلِكَ مَوَالِيهِ وَبُيُوتِ أَزْوَاجِهِ...

أَنْ أُقَدِّمَ لَهَا أَوَّلًا...

وَلَكِنَّنِي آثَرْتُ أَنْ أَسْرُدَهَا لَكَ، ثُمَّ نَتَحَدَّثَ مَعًا عَنْ مَدْلُولَاتِهَا وَمَعَانِيهَا وَرُمُوزِهَا، وَمَا تَرَكَتْهُ ـ وَتَتْرُكُهُ ـ مِنْ أَثَرٍ فِي نُفُوسِ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً، ثُمَّ فِي نُفُوسِ النَّاسِ الَّذِينَ يَطَّلِعُونَ عَلَى سِيرَتِهِ الشَّرِيفَةِ الْمُطَهَّرَةِ وَخَاصِّيَّةِ حَيَاتِهِ ﷺ.

فَلَقَدْ كَانَ مِنَ الْبَدِيهِيِّ وَالطَّبِيعِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ ﷺ سُيُوفٌ وَرِمَاحٌ وَقِسِيٌّ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ آلَةِ الْحَرْبِ وَالْقِتَالِ، خُصُوصًا وَأَنَّهُ ﷺ قَدِ اضْطَلَعَ بِعِبْءِ

الْجِهَـادِ! جِهَادِ الْأَعْـدَاءِ الَّذِينَ مَا فَتِئُوا يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُـولَهُ بِمُخْتَلِفِ الْوَسَائِلِ.

وَالْبِيئَةُ الصَّحْرَاوِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ، وَالْحَيَاةُ الْقَبَلِيَّةُ الْبَدَوِيَّةُ كَانَتِ الْحَرْبُ جُزْئِيَّةً أَسَاسِيَّةً مِنْ حَيَاتِهَا.

إِذَنْ... لَا بُدَّ مِنَ الْفَرَسِ وَالسَّيْفِ وَالرُّمْحِ، وَالدِّرْعِ وَالتُّرْسِ، وَلَا بُدَّ مِنَ الْقِتَالِ... وَلَا نَنْسَى أَنَّ الْمُسْلِمِينَ الْأَوَائِلَ قَدْ وُوجِهُوا مِنْ «قُرَيْشٍ» بِحَرْبٍ ضَرُوسٍ: عُذِّبُوا، وَحُبِسُوا، وَطُرِدُوا، وَمُنِعَ عَنْهُمُ الطَّعَامُ وَالْغِذَاءُ، وَقُوطِعُوا وَحُوصِرُوا، وَقُتِلَ بَعْضُهُمْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، حَتَّى اضْطُرُّوا إِلَى الْهِجْرَةِ، وَتَرْكِ الْوَطَنِ وَالْأَهْلِ وَالدَّارِ وَالْمَتَاعِ وَالْمَالِ، فِرَارًا بِدِينِهِمْ إِلَى اللهِ تَعَالَى.

وَمِنَ الْمَأْثُورِ الْمَشْـهُورِ، بَعْدَ أَنِ اشْـتَعَلَتْ نِيرَانُ الْحَرْبِ بَيْنَ «قُرَيْشٍ» وَالْمُسْـلِمِينَ، ابْتِدَاءً مِنْ غَزْوَةِ «بَدْرٍ»، وَعَلَى نِطَاقٍ وَاسِـعٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ مِنْ أَبْرَعِ الْقَادَةِ الْعَسْكَرِيِّينَ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَتَوَسَّعَ فِي هَذَا الْمَعْنَى، وَأَنْتَ فَاعِلٌ ذَلِكَ بِإِذْنِ اللهِ، فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَدْرُسَ غَزَوَاتِهِ وَسَـرَايَاهُ ﷺ بِكُلِّ دِقَّةٍ وَإِمْعَانٍ.

وَلَا يَفُوتُنِـي فِي هَذَا الْمَجَالِ أَنْ أُنَوِّهَ بِأَمْرٍ اشْـتُهِرَ عَنْهُ ﷺ؛ فَقَدْ ظَهَرَتْ شَجَاعَتُهُ وَجُرْأَتُهُ ﷺ إِلَى حَدٍّ قَالَ عَنْهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ «عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ» ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَوْلَةً مَا تَزَالُ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا هِيَ شَهَادَةَ بَطَلِ الْإِسْلَامِ وَفَتَى الْحَرْبِ...

فَقَــدْ كَانَ يَقُولُ بِأَنَّــهُ وَغَيْرَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ ـ رِضْــوَانُ اللهُ عَلَيْهِمْ ـ كَانُوا يَلْتَفُّونَ حَوْلَ رَسُــولِ اللهِ ﷺ وَيَحْتَمُونَ بِهِ، وَيَتَّقُونَ بِهِ، إِذَا مَا اشْتَدَّ وَطِيسُ الْمَعَارِكِ؛ إِذْ يَكُونُ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَى عَدُوٍّ.

وَالَّــذِي يَلْفِتُ النَّظَرَ فِي أَمْرِ كَثْرَةِ مَوَالِيهِ ﷺ أَنَّــهُ مَا مِنْ مَوْلًى مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَوَالِي إِلَّا وَأَعْتَقَهُ «عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ»، وَأَطْلَقَهُ حُرًّا لِوَجْهِ اللهِ تَعَالَى.

وَمِنْ هَذِهِ الْأُمْثُولَةِ الْعَظِيمَةِ تَعَلَّمَ كَثِيرٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَمِنْ هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ تَخَرَّجُوا، حَتَّى إِنَّ مَوْضُوعَ الرَّقِيقِ كَعُنْصُرٍ إِنْسَانِيٍّ فِي الْمُجْتَمَعِ الْإِسْــلَامِيِّ الْأَوَّلِ، قَدِ اسْــتَرَدَّ حُرِّيَّتَهُ وَإِنْسَــانِيَّتَهُ الَّتِي طَغَتْ عَلَيْهَا ذِهْنِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى، سَوَاءٌ كَانَتْ جَاهِلِيَّةً عَرَبِيَّةً أَمْ جَاهِلِيَّةً أَعْجَمِيَّةً.

ثُمَّ نَحْنِي الرُّءُوسَ وَالْهَامَاتِ إِجْلَالًا وَإِكْبَارًا لِسَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ ﷺ، وَنَحْنُ نَقْرَأُ وَنَسْمَعُ عَمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ بُيُوتُ أَزْوَاجِهِ مِنْ بَسَاطَةٍ وَتَوَاضُعٍ.

وَإِنَّ أَبْسَــطَ بَيْتٍ وَأَفْقَرَهُ مِنْ بُيُوتِ الْمُسْــلِمِينَ الْيَوْمَ يَفُــوقُ مِنْ نَاحِيَةِ الْمَخْبَرِ وَالْمَظْهَرِ مَسْكَنَ مُحَمَّدٍ ﷺ!

وَنَعْنِي بِالْمَخْبَرِ الْأَثَاثَ، وَبِالْمَظْهَرِ الشَّكْلَ الْهَنْدَسِيَّ الْخَارِجِيَّ.

نَاهِيكَ بِبُيُوتِ السَّادَةِ، وَمَنْ هُمْ فَوْقَ السَّادَةِ!

صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ وَسَلَّمَ يَا سَــيِّدِي يَا رَسُولَ اللهِ... صَلَاةً وَسَلَامًا دَائِمَيْنِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.